القائمة الطويلة لجائزة بوكر العربية ٢٠١٩

د. إيمان يحيى

الزوجة المكسيكية

مكتبة ٣٤٩

رواية

دار الشروق

مكتبة | 349

الزوجة المكسيكية

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

الزوجة المكسيكية

د. إيمان يحيي

الطبعـة الأولى ٢٠١٨

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

© دار الشروق

٧ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
www.shorouk.com
dar@shorouk.com

رقـم الإيداع ٢٠١٨/١٠٥١١
ISBN 978-977-09-3487-6

تصميـم الغلاف: محمود عبده

- لوحة الغلاف: تفصيل من لوحة «بورتريه روث»، ديـجو ريفيرا، ١٩٤٩
© 2018 Banco de México Diego Rivera & Frida Kahlo Museums Trust. Av. 5 de Mayo No. 2, Col. Centro, Del. Cuauhtémoc, C.P. 06000, Mexico City.
- صور روث ريفيرا بإهداء كريم من ابنها بيدرو ديـجو ألفارادو

مكتبة أحمد ٢٠١٩١٩

يحيي، إيمان،
القاهرة: دار الشـروق، ٢٠١٨
تدمك ٩٧٨٩٧٧٠٩٣٤٨٧٦
١ - القصص العربية
أ. العنوان

الزوجة المكسيكية/ إيمان يحيي
٣٢٠ ص، ٢٠سم
رقم الإيداع ٢٠١٨/١٠٥١١
٨١٣

د. إيمان يحيى

الزوجة المكسيكية

مكتبة | 349

دار الشروق

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

مكتبة أحمد
telegram @ktabpdf
telegram @ktabrwaya
تابعونا على فيسبوك
جديد الكتب والروايات

اللهم أنزل على قبرها الضياء والنور
والفسحة والسرور
اللهم اقبلها في عبادك الصالحين
واجعلها من ورثة جنة النعيم

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

إهداء

إلى جيل الخمسينيات

إلى دلال وجيلها

إلى القاهرة

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

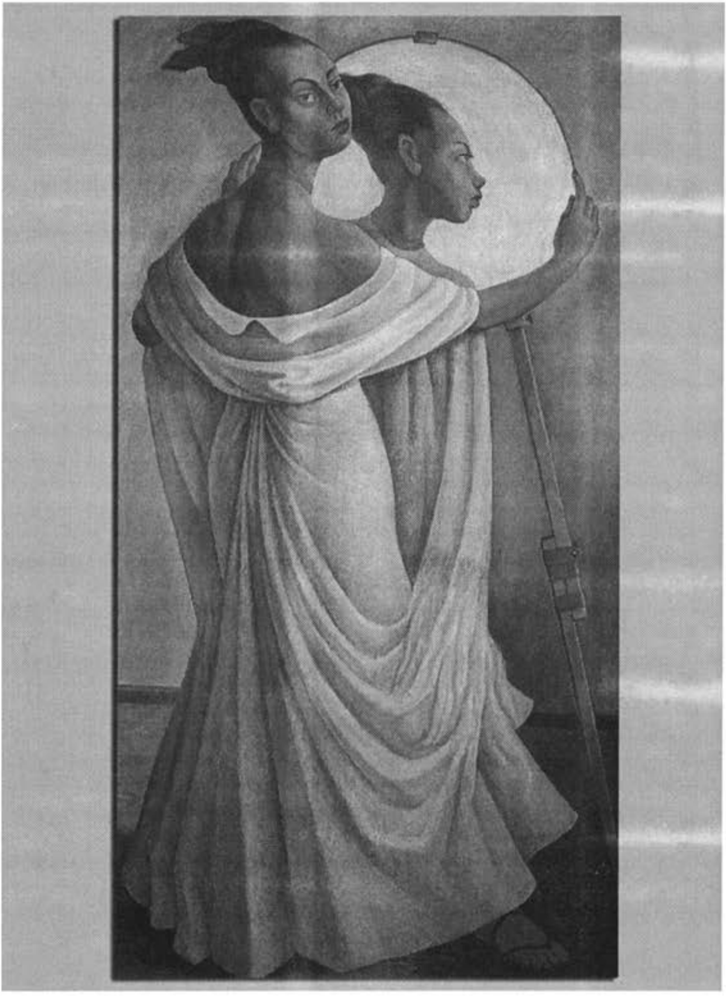

بورتريه روث ريفيرا، ديبجو ريفيرا، ١٩٤٩

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

دييجو ريفيرا يرسم بورتريه ابنته روث

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

عتبة

الثانية تمامًا قبيل الفجر. شبورة مائية تغلف سماء القاهرة، وطرقات شبه خالية من السيارات والبشر. تخترق وسط المدينة ثلاث عربات: سيارة نجدة زرقاء، وبيك أب مفتوحة من الخلف، وتويوتا سوداء بلا أرقام. تصل السيارات إلى ميدان السيدة زينب، ثم تندفع بسرعة إلى شارع خيرت، وأخيرًا تتسلل في هدوء إلى زقاق صغير. ينزل ضابط بملابس الشرطة، ويتبعه شخصان بملابس مدنية خرجا من السيارة السوداء، بينما بقيَ جنود مسلحون في البيك أب. يصعد الضابط ورفيقاه قفزًا على درجات سلم بيت متواضع من ثلاثة طوابق. يصلون إلى الثالث، وتتوالى خبطاتهم على باب شقة خشبي.

ينفتح الباب، ويبدو من فرجته وجه مذعور لفتاة بيضاء ذات شعر كستنائي. يبرز أحدهم للفتاة ورقة في يده. يدخل الثلاثة الشقة، ويغلقون بابها. تصدر ضجة من وراء الباب، تستمر لدقائق معدودات. بعد فترة قصيرة تخرج الفتاة معهم، وهي تحمل حقيبة سفر. ينفتح باب شقة أخرى في نفس الطابق، ويطل منه ـ في تردد ـ وجه لا يمكن تبين ملامحه. ينغلق الباب بعد زجرة من الضابط ذي الزي الميري. تظهر الفتاة والثلاثة في الشارع، فيتلقف حقيبتها أحد الجنود ويضعها داخل البيك آب. تضيء بعض النوافذ، وتبدو منها خيالات

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

بعض الجيران من وراء الزجاج. تجلس الفتاة في السيارة السوداء، ويتحرك الموكب.

مطار القاهرة. تجلس وحيدة مذعورة في غرفة بدون نوافذ، في يديها جواز سفر تتفحصه باستمرار. الأضواء الاصطناعية تغمر المكان، فيبدو الأثاث فقيرًا متقشفًا. كراسيّ خشبية قاسية مرتصة بجوار الحائط، وبلاط رخيص لا يستره غطاء من سجاد ولا حصير. يدخل ضابط شرطة بزيه الأسود الرسمي، ومعه آخر بملابس مدنية. يوجه لها الأخير حديثه:

ـ هيًّا، لم يبقَ على طائرتك سوى ساعة واحدة. آن وقت الرحيل.

ترفع الفتاة حقيبتها وتسير بينهما بتثاقل. خطواتها قصيرة مترددة. وجهها مصوب إلى بلاط الممرات. لا تنظر أمامها، بقدر ما تسترق نظرات إلى الجانبين والخلف.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

(١)

«المرأة حين تريدك، وتشير إليك من طرف خفي أن تتبعها، وتتوانى أنت وتحتار وترتبك، لا تستطيع أن تصبر طويلًا، ولابد بطريقة أو بأخرى أن تريك الطريق، ولكنها تفعل هذا من طرف خفي أيضًا».

(البيضاء)

أحسب أن هذه الرواية عجيبة وفريدة. الخيال فيها واقع حقيقي، والواقع فيها غارق في الخيال. ينمحي الحد الفاصل بينهما، فلا تعود تعرف أيهما هذا، وأيهما ذاك.

بالتأكيد، كان يحيى، لغالبية أبناء جيلي، كاتبنا المفضل. تفتحت عيوننا في البرزخ الفاصل بين الطفولة والمراهقة على بريق نجوميته وإبداعاته المبهرة. طوال فترة شبابنا، كنا نتابع بشغف قصصه ورواياته ومسرحياته. لهثنا وراء أفكاره التي يبثها في مقالاته الأسبوعية. ولعله، بكل ثقة، الأكثر إبداعًا وموهبةً بين كتابنا وأدبائنا. طاقته الإبداعية متدفقة، لكنها لا تتسرب إلى الصفحات بهدوء. هو أشبه بقنبلة انشطارية، لا تعرف وقتًا لانفجاراتها المتسلسلة. يفاجئ بتصرفاته قراءه والمحيطين به، بين حين وآخر. كان يحيى خارج نطاق التحكم، أي تحكم! يبدو مستأنسًا في بعض الأحيان، لكنه سُرعان ما يكسر قضبان القفص ليخرج منه في لحظات غير متوقعة بالمرة. يقترب

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

من السُّلطة ويظهر في الصفوف الأولى كطاووس منفوش الريش، ثم يبتعد عنها وتجده في مقدمة المعارضين كفارس مشاكس. يبحث دائمًا عن الأضواء، ويطرب لسماع اعتراف الآخرين بعبقريته.

ولكن ما بالي أبدأ به الحكاية، وقصتي تخُصني وتخصها فقط!

لم أكن أعرف أن تجربة عاطفية مثيرة تنتظرني، وأنا في العقد الخامس من عمري. من الصعب أن أجزم الآن بأن قصتي معها كانت حُبًّا، لعلها تعاطف أو اعتياد ما. لست سوى أستاذ جامعي أعزب، قضى معظم حياته بين كتب النقد الأدبي والروايات والأشعار. لم أدرك أن ذلك الانتداب للتدريس في الجامعة الأمريكية بقسم الأدب العربى سيقلب حياتي من النقيض إلى النقيض. بدأت قصتي بنقرات خفيفة على باب غرفة مكتبي بالجامعة، أعقبتها طلة خجول لوجه يستأذن في الدخول. لم أدرك وقتها أن صاحبته ستقتحم حياتي بلا استئذان!

بلكنة أمريكية تمضغ الكلمات قبل الحروف:

ـ دكتور سامي جميل؟

ـ نعم، هو أنا.

ـ صباح الخير يا سيدي.

لم تنتظر دعوتي بالدخول، اندفعت مصافحة وعلى وجهها ابتسامة عريضة تكشف عن أسنان بيضاء لا تتوافر لنا في الشرق.

ـ أنا سامانثا ديفيز، تلميذتك الجديدة.

تأملتها من وراء نظارتي الطبية. فتاة في أوائل العشرينيات من العمر، عيناها زرقاوان جميلتان، وشعرها كستنائي غامق قصير. ترتدي بنطالًا من الجينز وبلوزة بيضاء مفتوحة تكشف عن منبت نهدين عارمين.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

كان ظهورها في حياتي حدثًا دراميًا، لم أدرك أبعاده على الفور. سرت سامانثا في شراييني بالتدريج، وببطء شديد. لم أفق إلا ونظام معيشتي قد تغير كليًّا. حافظت على عزلتي الأكاديمية والشخصية بإرادتي المحض، لكن سامانثا، ولأكن أكثر دقة، هي ويحيى والإثارة العجيبة التي صاحبتهما، قلبوا حياتي رأسًا على عقب.

يحيى، لم أره عن قرب سوى مرتين، وفي كلتيهما اخترقت نظراته عظامي. عيناه براقتان، ونظراته عميقة صادمة تبدو كطلقات مدفع بعيد المدى. سواء كان واقفًا أو جالسًا، هو النجم الأوحد وسط الجميع. هو البطل، والدون جوان، وأبو زيد الهلالي. أما الباقي فيمن حوله، فمجرد شخصيات ثانوية.. وإن لم ينتبهوا، تحولوا إلى سنيدة وكومبارس!

يدل لون شعره الفاتح، ووجهه المشرب بالحمرة، وعيناه الخضراوان على دماء شركسية تجري في عروقه. الأم فلاحة من ريف مصر من أصول تركية، والأب فلاح نصف متعلم أصوله سودانية. خليط التضاد أنجب عبقرية استثنائية.

ما الذي يدفعني أن أبعث شخصية يحيى للحياة من جديد؟ بل ما الذي ذكَّرني بها؟! ألا يكفي أنها أوقعتنا في حيرة بسبب تناقضاتها، وغرائزها المتأرجحة في رواية «البيضاء»؟

لن أجيب الآن، وسأكتفي بما انتويته. لن أبعثه حيًّا وحده، ولكنني سأعيد الروح إلى سانتي، والبارودي، وأحمد شوقي، وفتحي سالم، وأحمد سيف النصر، وكل الشخصيات التي صنعت نسيج هذه الرواية. في هذه المرة، سيصبح الواقع ماثلًا إلى جانب الخيال. سيتحدث، ويتحرك، ويتشاجر، ويحب. سينحسر الستار عن أسرار

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

كثيرة، بينما سيبقى للخيال مكان كي يسد فجوات غابت فيها الحقائق عن مسار الأحداث.

كانت البداية جملة صغيرة في سطر من كتاب أجنبي. عبارة من تسع كلمات، أشعلت نار فضولي الذي لم يتركني إلا وأنا أبحث وأنقب عن جمل أخرى وسطور غارقة بين صفحات الكتب، وسابحة في فضاء الإنترنت. قرأت بلغات أجنبية عديدة عنه وعنها، وقابلت كثيرين كي أقتفي آثار الحكاية. تواصلت مع أصدقائه وأصدقائها، عائلته وعائلتها. بحثت عن حقيقة حب يحيى وسانتي. رأيت بأم عيني «ظل البيضاء». ذلك الظل المخاتل الذي كلما اقتربت منه، ابتعد عني وهرب. ظلٌّ فيه من الضوء أكثر مما فيه من عتمة.

عُذرًا.. استغرقتني الرغبة في الحكي، وألهبتني حُمى الاستهلال، فلم أقدم نفسي.

اسمي سامي جميل، أنا من ضيع في الأوهام عمره. سلبت أبحاثي ومحاضراتي أغلب أوقاتي، فتسربت مني الحياة. لم أنشئ أسرة كما يفعل البشر الأسوياء، وظلت روحي حبيسة رفوف قاعات الدرس والمكتبات الأكاديمية.

الانتداب للعمل في الجامعة الأمريكية، لم يكن دافعه المادة، ولا البحث عن تأمين معيشتي في شيخوختي. صحيحٌ أن الراتب أضعاف ما أحصل عليه من جامعتي الحكومية الأصلية، وصحيحٌ أيضًا أنني سأحصل على معاش تقاعدي بالدولار الأمريكي. لكنني قررت العمل لدى «اليانكي»، بعد أن انتابني الملل من التدريس لطلاب ذوي مجاميع متدنية في الثانوية العامة. اضطر أغلبهم اضطرارًا إلى الالتحاق بقسمنا؛ قسم الأدب العربي. قليلٌ منهم يفهم، وإن فهم

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

فلا يتوفر له الشغف بالإبداع أو التبحر في أسراره! كنت أبحث عن متنفس جديد لحياة آسنة، وأجواء أخرى مبهجة. ساعدتني لغتي الإنجليزية على التقدم للانتداب للعمل هناك. رَوَّحت عن نفسي الحديقة المهندسة ـ بالقلم والمسطرة ـ لحرم الجامعة الأمريكية في وسط البلد، وأخرجتني أزياء الطلبة والطالبات المبهجة والأنيقة من بؤس ما رأيته في جامعة القاهرة.

عندما جاءت سامانثا لأشرف عليها في رسالة الماجستير، اخترت لها رواية «البيضاء». كنت أعرف أن كثيرين تناولوها بالبحث والنقد. وأدركت ثراءها من قراءتي الملابسات التاريخية والسياسية التي واكبتها، وأيضًا من الضجة التي أعقبت نشرها. لم أكن أتوقع من سامانثا أن تجد جديدًا. مجرد «رسالة» ستكتبها، وتتدرب فيها على جمع المادة، وتحليلها، وكتابتها بترتيب وطريقة علميين، لا أكثر ولا أقل. لكنها فاجأتني ذات يوم. لوحت بكتاب في يدها وهي تبتسم:

ـ هذه موسوعة مترجمة إلى العربية أصدرتها دار حكومية عن الشخصيات المصرية في القرن العشرين، تقول إن يحيى قد تزوج بشيوعية مكسيكية!

تناولت منها الكتاب، وبحثت عن حرف الطاء. وبالفعل أورد المؤلف الأمريكي أن «يحيى مصطفى طه» تزوج فتاة شيوعية مكسيكية عام ١٩٥٧، وأن الزواج لم يستمر أكثر من عام، ثم تزوج بعدها بطبيبة فرنسية كانت تعمل في منظمة المؤتمر الإسلامي التي عمل بها!

ـ سامانثا، هذا هراء. لماذا تشغلين نفسك بهذه الشائعات؟! هناك

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

صنف من المستشرقين الغربيين يستقون معلوماتهم من دردشات المقاهي، ألم تسمعي عن بائعي البطاطا؟!

- لا، ولكن كيف عرفت أن هذه المعلومات غير حقيقية.

- ببساطة لأن أديبنا تزوج في عام ١٩٥٧، وزوجته مصرية ولكنها تشبه الفرنسيات في ملامحها. يبدو أن هذا المؤلف المستشرق من الصنف الذي قال عنه السادات: «يستقي معلوماته من بائعى البطاطا»!

ظهر الإحباط على وجه سامانثا الذي ظل مشربًا بحمرة صهد الصيف، ولم تبرده بعد نسمات تكييف المبنى. تحركت أناملها لتعدِّل من خصلة شعر تدلت على جبينها. أعجب أحيانًا: كيف لطالبة دراسات عليا، ذكية وجميلة مثلها، ألا تتجنب حرَّ الصيف في القاهرة، فتطير إلى بلدها! بلدها؟

عند لقائنا الأول أخبرتني سامانثا ديفيز أن جدتها من الأم مصرية هاجرت إلى أمريكا في بداية الستينيات. خديجة المعايرجي، ابنة حي السيدة زينب، التي رحلت في بعثة دراسية ولم ترجع. رفضت الجدة خديجة العودة إلى القاهرة، بعد أن أنهت بعثتها لدراسة الدكتوراه في الاقتصاد. تزوجت زميلها الأمريكي في الجامعة بفلوريدا. حدثت الهزيمة، فكانت مبررًا للجوء إلى بلاد لم تجرب مرارة الانهزام. تزوجت خديجة المسلمة بزميلها الكاثوليكي، ولم ترجع. سامانثا - نفسها - كانت ثمرة زواج مختلط بين أم نصفها مصري وأب ذي أصول مكسيكية!

خرجت سامانثا من غرفة المكتب واجمةً، بينما واصلت كتابة عناصر محاضرتي القادمة. كنت أبتسم، وأهز رأسي هازئًا من باحثي آخر زمن.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

لم يمر أسبوع، ووجدت سامانثا تطرق بثبات باب غرفة مكتبي. هذه المرة تدخل واثقة الخطى، وعلى وجهها ابتسامة فرح حقيقي. لم تلقِ حتى التحية، صاحت:

ـ وجدتُها يا دكتور أمين.. وجدتُها!

ـ لم أعرف أنك أرشميدس قسم اللغة العربية!

ـ وجدت سانتي الحقيقية! تصور يا دكتور، المؤلف اعترف بشخصيتها الحقيقية لمستشرقة متخصصة في الأدب العربي!

ـ وهل سيغير ذلك كثيرا في قراءتنا لروايته؟ لا أعتقد يا أرشميدس! ليس مهمًّا أن تكون سانتي أو ماريا أو روز، المهم أنها تمثل نمط حياة لجالية أجنبية عاشت في مصر في بداية الخمسينيات من القرن العشرين.

أحسست بأنني صدمت سامانثا ـ للمرة الثانية ـ باستهانتي بما ظنته اكتشافًا، فقررت أن أتراجع وأبدي بعض الاهتمام:

ـ حسنًا.. فلتخبرني يا «أرشميدس» ما الشخصية الحقيقية للسيدة سانتي؟!

التقطت أنفاسها، واختفت نظرة القنوط من عينيها. رفعت حاجبيها، وأنزلت يدها الممسكة بخصلة الجبين، وهي تقول:

ـ من الواضح أنها مكسيكية يا دكتور!

ـ وما الذي أحضر المكسيك لمصر؟!

ـ لا أعرف! لقد وجدت المؤلف يصارح مستشرقة بأن سانتي في رواية «البيضاء»، شخصية مستوحاة من قصة حب وزواج أول له من فتاة مكسيكية.

غزت الجدية نبرة صوتي، وأنا أسألها:

ـ وأين وجدتِ هذا الحديث؟

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ في فصل عن الرواية، في كتاب عنه ألفته مستشرقة روسية.
ـ وهل لك معرفة باللغة الروسية؟!
ـ لا، لكن صديقة لي من قسم «الروسي» في كلية الألسن لفتت انتباهي إليه، واتفقتُ معها على ترجمة هذه الفقرة المهمة من ذلك الفصل.
ـ هل من الممكن أن أرى صورة من الفصل، والترجمة التي تمت لتلك الفقرة؟
ـ طبعًا، يادكتور!
خرجت سامانثا من غرفة مكتبي، وتركتني فريسة لهواجسي. هل ضمت مصر جالية مكسيكية قبل ثورة ١٩٥٢؟! بالطبع لا، كان هناك إنجليز وفرنسيون وإيطاليون ويونانيون وأرمن وبلجيك وروس، ولكن من المستحيل وجود مكسيكيين!
في موعد لقائنا في الأسبوع التالي، جاءت سامانثا، ومعها صورة ضوئية من فصل الكتاب، وملخص ترجمته. أشارت إلى جملة بحروف روسية وُضِع تحتها خط. صاحت وكأنها تطلق صرخة انتصار في مباراة للمصارعة الحرة:
ـ ألم أقل لك إنها مكسيكية؟ مكسيكية، انظر لترى!
حملقت في الكلمات الروسية، فلم أفقه شيئًا. التفتُ إليها:
ـ وهل أنا أعرف الروسية كي أنظر؟! تقولين أيضًا إن «البيضاء» جاءت بتأثير ذلك الحب والزواج؟
ـ نعم، تقول المؤلفة إنه قابل تلك الفتاة في مؤتمر للسلام في فيينا!
ـ إذن بدأت مهمتك البحثية، بأن تجديها!
بدأت أفكر في اتفاق سطور المؤرخ الأمريكي مع حديث

المستشرقة الروسية. فتاة مكسيكية، وشيوعية! كيف؟ وأين؟ تذكر السوفيتية أنه التقى بها في فيينا، بينما يتركنا الأمريكي بلا جواب.

في صبيحة اليوم التالي، لاحظت أن سامانثا ترتدي ميني جوب ساخنًا يكشف عن فخذيها. كان طلاء شفاهها بلون قرمزي فاقع. لم يكن بيننا موعد عمل، ولكنها أتت إلى غرفة مكتبي. وفي تصرف مفاجئ لي، أزاحت كرسيها لتجلس على قرب سنتيمترات مني، وأمالت رأسها نحوي، ثم قالت هامسة:

ـ هل لم تتأكد بعد من أن سانتي مكسيكية؟!

لم تثر حنقي كلماتها، بقدر ما أثارته طريقة جلوسها التي عرَّت أعلى فخذيها. كانت تميل برأسها نحوي، وكأنه لا فارق بين أستاذ وطالبة. لم يكن مرَّ على تعارفنا سوى ثلاثة أسابيع. جف حلقي، وشعرت بانتصاب بين فخذيَّ.

ومرة أخرى، جاء صوتها متحديًا:

ـ سامي، لا تظن أنك الوحيد القادر على القيام بدور «شرلوك هولمز»! في فلوريدا نساء يبززن الرجال في كل شيء!

كنت قد تعودت من طلبة الجامعة أن ينادوا أساتذتهم بأسمائهم مجردة، ولكن تلك الجِلسة والبجاحة لم أرهما من قبل. اعتدت أن أرى الطلاب في الجامعة الأمريكية يضعون رِجلًا على رِجل، وأن يقوم أحدهم بقضم تفاحة أو شطيرة في أثناء إلقائي الدرس. لكن مثل ما فعلته سامانثا وأثارني، لم أصطدم به في حياتي قط. استعدت رباطة جأشي، ونظرت بقسوة إلى عينيها:

ـ لو سمحتِ يا آنسة، ابتعدي بكرسيك واجلسي أمام المكتب.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ضمت شفتيها، ونظرت في غيظ. جلستْ على مقعد آخر مقابل، وقالت في نبرة تحدٍّ:

ـ لم أفهمك يا أستاذي العزيز! ما الذي أغضبك مني؟!

قررت تجاهل سؤالها، فنظرت عبر النافذة. كان أحد الطلاب يقف مع طالبة، ويختفيان وراء أكمة أشجار كثيفة. كان واضحًا التصاقهما من تداخل أقدامهما. تسمرت عيناي على ما أشاهده، وسرحت فيما قد يفعلانه. انتبهت سامانثا إلى ما اجتذب اهتمامي. رفعت حاجبيها وأردفت بلهجة تقريرية:

ـ سامي.. الحياة جميلة وبسيطة، فلماذا تعقِّدها وتهيم برسميات فارغة؟

ثم أتبعت سؤالها بضحكة قصيرة ماكرة، وغنَّت بعربية مكسَّرة:

ـ الحياة حلوة، بس اللى يفهمها.. الحياة غنوة ما أحلى أنغامها.. ارقصوا وغنوا وانسوا همومها.. دي الحياة حلوة.

لم أستطع منع نفسي من الابتسام. حاولت أن أتصنع الوجوم وأقطب مابين حاجبيَّ، لكن تهدج صوتها أصابني بهستيريا مكبوتة من الضحك. فتاة، من الجيل الثالث للمصريين المهاجرين، تغني لفريد الأطرش أغنية قديمة أكل عليها الدهر وشرب!

لاحظتِ اندهاشي، فهزت رأسها:

ـ جدتي خديجة تحب هذه الأغنية، وهي التي أوحت إليَّ بدراسة الأدب العربي في الجامعة. صحيحٌ أن لغتي العربية بها عيوب كثيرة، لكنني أحاول. وسأستطيع بمساعدة الجينات المصرية التي تسري في دمي.

عندما جاءني خطاب من الإدارة، يعلمني بالتحاق سامانثا لدراسة الماجستير تحت إشرافي، لم أكن أتصور أن لها أصولًا

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

عربية، وخصوصًا أن اسم عائلة أبيها كان أجنبيًّا قحًّا. الآن، اكتشفت أصلها وفصلها من أحاديثها المتناثرة معي. في تلك اللحظة، طرقت الفكرة رأسي: «هي قد تعرف الإسبانية، فلماذا لا نستغل معرفتها للبحث عن زوجة يحيى الأولى؟ في حديثه إلى المستشرقة، يعترف يحيى بأنه كتب «البيضاء» تحت تأثير هذا الزواج. إذا توصلنا إلى ملابسات تلك الزيجة، فقد نستطيع إلقاء الضوء على جانب من المؤثرات التي دفعته لكتابة تلك الرواية الغريبة».

لم أفضِ بفكرتي لسامانثا، فلقد رأيت أن الوقت مبكر. كنت مازلت أفكر في غرابة تصرفها. وقبل أن تغادر، فوجئت بها تطبع قبلة على وجنتي وتقول:

ـ سامحني!

أسامحها على ماذا؟ وكيف أسامحها، وهي التي أوقدت النار من تحت الرماد؟!

خضت تجارب عاطفية عديدة، لكنها لم تكتمل لظروف يصعب شرحها. فاتني قطار الزواج، واستغرقني التدريس والبحث. لا أذكر آخر مرة مسست فيها امرأة، كلهن كن عابرات بلا توقف ولا أثر. قصة غرامي الحقيقية الأولى والأخيرة بزميلتي انتهت بنهاية مفجعة. تزوجت أستاذنا، نحن الاثنين، وتركتني متعجلة الصعود والثراء. كان يكبرها بثلاثين عاما، ومتزوجًا امرأة أخرى. كانت صفاء عملية وواقعية، فاستقلت المصعد إلى الأدوار العُليا، وتركتني أنتظر السماح بالصعود. تحولت إلى كاتبة وصحفية، تُشرَع لها الأبواب لتعتلي صفحات الجرائد. لم تختر السلم الأكاديمي، وراهنت على الشهرة والذيوع في ظل قامة زوجها العلمية. وعندما رحل، كان من الصعب على أحد أن يزاحمها، بعدما وصلت إليه.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ظهور سامانثا في حياتي أشعرني بظمئي الحقيقي للمرأة. لو تزوجت بصفاء، لكانت ابنتي الآن في عمرها! ما أخطر أن يتحول الشعور بالأبوة تجاهها إلى عشق رجل ناضج لامرأة متوهجة!

مفاجآت سامانثا بدأت بزوجة يحيي المكسيكية، لكنها توالت ولم تنتهِ. جاءتني ذات صباح، مرتدية ملاية لف. لم أستوعب صدمة أن تدخل طالبة الجامعة، وهي تتقصع بملاية لف سوداء. اتضح أنه يوم «الهولوين»، وأنها قررت الاحتفاء به على واحدة ونُصّ. تكاد الملاءة تنقرض في أحيائنا الشعبية، فمن أين اقتنصتها ابنة فلوريدا؟!

ـ سامي، ألم أقل لك من قبل إن أصولي تنحدر من حي السيدة زينب! أحضرت الملاءة من هناك، اشتريتها بنقودي من بائعة فجل تجلس أعلى سلم قلعة الكبش!

ـ كيف وصلتِ إلى هناك؟

ـ بقدميَّ اللتين أضناهما السير في حواري وشوارع السيدة. نداء غامض يجعلني أبحث عن جذوري وأهلي.

أرخت الملاءة من على رأسها، وأنزلتها بدلال عن كتفيها. وفي حركة لم تعد تجيدها بنات البلد، أمسكت بطرفيها وأدارتهما في الهواء عدة مرات. تحولت الملاءة في لحظات إلى ذراعيْن أسطوانيتيْن تمسك بهما على جانبيها، بينما برز ردفاها في وسط الملاءة المحبوك، وكأنه وتر قوس مشدود على وشك انطلاق سهمه. جلست سامانثا أمامي واضعة ساقا على ساق، وكاشفة عن فستان يصل إلى سمانة الساقين. تأملت شريط الدانتيلا الذي يحيط بطرف فستانها ذي الورود فاقعة الألوان، لكن مؤخرتها البارزة بقدر ما أثارت غريزتي، بقدر ما بعثت الفكرة في عقلي.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

لقد انتصرت جينات سامانثا المصرية على الصفات الوراثية المكسيكية من أبيها. تلك المقعدة، لا يمكن أبدًا ألا تكون مصرية! استدارتها إلى الجانبين، وضخامتها، ونسبة تناسقها مع بقية جسمها، كل ذلك يقطع بأصلها المصري. كنت قد سمعت من مذياع سيارتي، في لقاء إذاعي مع جراح تجميل، عن موضة «المؤخرة اللاتينية» الشائعة التي تسعى المصريات الموسرات إلى اكتسابها بواسطة الجراحة. استدارة نافرة إلى الخلف وتتجه قليلًا إلى أعلى، أشبه بكرة كاملة الاستدارة لا تعرف تفلطح الشرقيات. هاهي ذات الأصول اللاتينية تتخلى عن لاتينيتها، وتتمسك بمصرية جدتها!

أفقت على صوتها:

ـ هل أعجبتك؟

رددت مغيبًا، وفي اندهاش:

ـ آه.

ما قصدها؟ هل تقصد أن الملاءة أعجبتني، أم أنها لاحظت نظرتي إلى جسدها؟

التفتُّ ناحية النافذة؛ لأطرد خاطر غوايتها. أخذ وجهي سيماء الجد وأنا أوجه إليها كلماتي:

ـ ابنتي، ما الذي تفعلينه بنفسك؟ ألا تخشين نظرة زملائك وزميلاتك إليك؟

اخترت أن ألجأ إلى الأبوية، وتوقعت أن ترد بأبي أو أستاذي.

لكنها قالت في ثقة زائدة، وباعتداد:

ـ سامي، أنت لا تعرف ما يجري في باحة الجامعة. الجميع يحتفل بعيد المساخر، وأنا اخترت زيًّا قوميًّا يوشك على الاندثار

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

بفعل هجوم موضتي الحجاب والنقاب. ألم ترَ يومًا لوحات محمود سعيد؟!

ـ ربما كنت مررت بها يوما ما، ولكنني لا أتذكرها.

ـ حسنًا فلنذهب معًا غدا إلى متحف الفن الحديث.

متى استطاعت أن تعرف محمود سعيد، وهي لم تستقر بعد في القاهرة، إلا منذ ثلاثة أسابيع! لم يفتني التحسن المطرد في إجادتها الحديث بالعامية المصرية. هذه البنت نشيطة، لا تهدأ.

انتبهت إلى محاولتها استدراجي لمقابلة خارج قاعات الدرس، وغرفة مكتبي بالجامعة. اشتممت الخطر المحدق بعلاقة أستاذ بطالبته، فاعتذرت بعصبية:

ـ لا.. شكرًا، أنا منشغل هذه الأيام ولا وقت لديَّ.

اجتاحت عينيها موجة من أسى وإحباط. وقفت، وهي تصلح من ملاءتها لتغطي رأسها وتسدلها على كتفيها. استدارت متجهة إلى باب الغرفة، وفجأة التفتت إليَّ برأسها دون جسدها. قالت بصوت واهن، كله إغراء:

ـ العواف!

لجمتني المفاجأة، فلم أستطع الرد.

عندما غادرتُ مكتبي، تعمدت أن أسلك طريقًا ملتفًّا إلى بوابة الجامعة بين مربعات الحدائق وملاعب التنس. وجدت الطلاب بالفعل متنكرين، يرتدون أقنعة وملابس غريبة. لم تكن سامانثا إذن متبرجة، أو خارجة عن المألوف في الجامعة. تحاملت عليها، وشعرت بأنني كنت قاسيًا معها.

فور وصولي إلى المنزل، اتجهت إلى الكمبيوتر الرابض على مكتبي في استكانة. تحول المستكين إلى وحش يضيء، تتقلب

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

صفحات شاشته في حمى مستعرة. نقرت على «جوجل».. محمود سعيد، ثم أضفت أداة «صُوَر». في لحظات انهمرت صور لوحاته على الشاشة. وبالفعل كانت الملاءة اللف وبنات البلد والمنديل أبو أوية، هم أبطالها. انتبهت إلى صورة مصغرة لامرأة تنسدل الملاءة من على رأسها. نقرت بالفأرة عليها، فأطارت صوابي.

كانت استدارة وجه سامانثا وشفتاها المملوءتان طبق الأصل من وجه المرأة التي تنظر بدلال، وتغمز بعينها اليسرى. طرفا سبابتها وإبهامها يمسكان بنعومة متناهية بالملاءة حتى لا تسقط بالكامل فتكشف كل شعرها، بينما تلف الطرف المقابل للملاءة على قبضتها اليسرى. يا الله، نفس ميل الرأس إلى جانب، ونفس تقصيعة الجسد إلى الجانب المقابل! إنها سامانثا المعجونة بماء العفاريت.

لم تُخفِ بشرة سامانثا البيضاء، وعيناها الزرقاوان حقيقة الشبه الواضح بين فتاة محمود سعيد وبينها.

طوال الليل، راودني وجهها وانحناءات جسدها في الملاءة اللف، بينما جالت فتيات محمود سعيد وأجسادهن الناضجة في أحلامي المتقطعة وهذياني الليلي.

عندما صحوت، انتابني تفكير ساخر في سامانثا بنت السيدة زينب!

تذكرت أنني نسيت أن أسألها عما توصلت إليه حول ملابسات رواية «البيضاء». أيقظت شاشة الحاسوب من جديد، فأضاءت. فتحت ملفًا جديدًا، وأسميته «ظل البيضاء». كتبت: سانتي.. سامانثا.. يحيى.. وأنا!

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

(٢)

«والمعركة ضد الاستعمار قائمة في كل مكان. في السودان ومصر وسورية والبلاد العربية، وشمال إفريقيا وقبرص وفي كل مكان. ولجماعتنا أنصار وأعضاء في كل قطر من هذه الأقطار، والمجلة تصدر في القاهرة ويتردد صداها في كل عاصمة من عواصم الشرق الأوسط».

(البيضاء)

طوال أسبوع بأكمله لم أرها. غابت سامانثا عن الجامعة، ولأول مرة أشعر أن لغيابها هذا الحضور. ربما لو لم تغب، لخلا بالي منها. انقطاعها عن المجيء بعد لقائنا الأخير، جعل النهاية المثيرة لذلك اللقاء تزداد إلحاحًا على ذاكرتي. لو أنني رأيتها في اليوم الثاني، ما شغلتني كل هذا الانشغال.

بحثت عيناي في لهفة عنها بين وجوه طلابي للدراسات العليا في غرفة ٣٠٧ المخصصة لإلقاء دروسي. طلاب وطالبات، من كل حدب وصوب، جاءوا ليدرسوا مكونات ثقافتنا العربية. الياباني المهذب، والأفغانية الأمريكية، والبريطاني الباكستاني، والصينية التي تصوصو، والهندي ذو العمامة السيخية، والإيطالي المرح ابن حواري نابولي، والدنماركي المهاجر من العراق: كلهم كانوا حاضرين عدا سامانثا! اعتدت أن أطلق عليهم أسماء وألقابًا من وحي الموضوعات التي كلفتهم بدراستها، فليس من المعقول أن أتذكر أسماءهم الغريبة

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

كل الوقت. كنت اخترت اسم يحيى للآنسة سامانثا، فقد كان موضوع بحثها منصبًّا على روايات يحيى، وليس على مجموعاته القصصية أو مسرحياته. ذلك الاسم تحول فيما بعد إلى «البيضاء»، وكان طبعًا السبب متعلقًا بغرقنا في البحث عن سانتي، أو عن «البيضاء» ذات الأصول المكسيكية.

بعد نهاية أحد الدروس في ذلك الأسبوع، سألت «نجيب محفوظ» الإيطالي عن سبب تغيب سامانثا، فأشار بسؤال صديقتها «ألف ليلة وليلة» الصينية التي تسكن في نفس المسكن الطلابي التابع للجامعة بالزمالك. بعدها بيوم سألت الصينية، فأجابت بأن سامانثا انتقلت إلى العيش بحي السيدة زينب! أردفت شهرزادي، ذات العيون المسحوبة بقوة، إجابتها بصوصوات متناثرة وإيماءات مذعورة من وجهها ويديها. بدأت أهتم باختفاء سامانثا، لكن غيابها لم ينسني «البيضاء».

وكعادتها ذات صباح، ظهرت سامانثا وهي تبتسم بعد نقرات خفيفة على الباب. هذه المرة، ارتدت جينزًا أزرق وفانلة بيضاء مكتوبًا على صدرها «MAKE LOVE NOT WAR». شعار قديم يعرفه جيلي الذي تفتح وعيه على مأثورات تمرد طلاب ٦٨ في باريس، وشعارات «الثورة الجنسية» التي غيرت وجه أوروبا وكثير من بلدان العالم إلى الأبد. ما الذي ذكر شابة في بداية القرن الحادي والعشرين بشعار ستيني عتيق؟!

ـ صباح الخير يا سامي!

ـ صباح الخير، أين كنت ؟ غبت أسبوعًا كاملًا! لو تكرر غيابك، فلن تدخلي امتحانات المواد الخاصة بالأدب العربي.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

تحولت الابتسامة إلى نظرة غضب ممتزج بعتاب من أحسَّ بطعنة صديق.

ـ لم أكن ألعب في أثناء تغيبي. كنت أبحث في موضوع رسالتي، رغم انشغالي بكنس مقام السيدة.

داهمني الشك فيما سمعته منها، واعتقدت أن إنجليزيتي لم تسعفني. كنت أدير مناقشاتي مع طلابي باللغة الإنجليزية، فقط النصوص يمكنهم قراءتها بالعربية واستخلاص دلالاتها. لقد جاءوا من أجل دراسة أدبنا وثقافتنا، لا للرطانة باللغة العربية في الشوارع والأزقة. تلك كانت وجهة نظر كثيرين في تدريس الأدب العربي للأجانب. استفهمت مرة أخرى عما قالته، ورجوتها أن تعيد كلماتها بلا صربعة أمريكية.

جاءني الرد هذه المرة بعربيتها المهشمة:

ـ كنت.. أكنس.. مقام.. الست زينب.

طرافة ماقالته دفعتني للضحك بصوت عالٍ، لولا أنني أستاذها لرددت عليها بما يستحق من استنكار وتهكم. تمالكت أعصابي وسألت:

ـ لماذا؟!

لم تجب، بل أخرجت ورقة مطوية من حقيبة أوراقها المعلقة على كتفها، ودفعتها تجاهي.

تناولت الورقة وفضضتها، ثم قرأتها. فطنت إلى أنها بيان سياسي ودعوة إلى مظاهرة في الوقت نفسه. بيان من حركة «كفاية» المعارضة يدعو لتظاهر النساء عند مسجد السيدة زينب. لكن ديباجة الدعوة العجيبة أدهشتني، حتى إنني قمت بنسخها في ورقة من مفكرتي وسط نظرات سامانثا المرتابة.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

«يوم الأربعاء الموافق ١٥ يونيو ٢٠٠٥، من الساعة ٦ إلى ٨ مساء في أوقات الشدة نسعى للمدد، نتعلق بباب رئيسة الديوان وندعو على الظالم: كشفت رأسي واتجهت يا أم العواجز يا بنت بنت النبي شاكي ليكِ همي في يوم أربع حزين في يوم أربع يتيم ستاشر ربيع تاني.. ولادك انداسوا.. بناتك اتلمسوا في قاهرة مولاي.. ح نقيد لكم شمعة يا سعدي من دمعة، ترجع لنا رابعة تطلق صراخ الشعب، أول طريقي صعب أرجع في يوم أربع أكنس عليكوا الباب يا ست يا طاهرة دول ظالمين أحباب يعود ليهم في عينهم وعافيتهم يا رب يا قادر يا كريم».

أقرأ تلك الكلمات الآن، فتصيبني رعشة. لقد فصلت رئيسة الديوان في الدعوى المقامة أمام محكمتها العادلة بعد ستة أعوام، واستجاب الله لدعاء من كنسوا المقام! شيء لله يا أم العواجز! سخرت وقتها بشدة من سامانثا، ومن اشتراكها في طقوس شعبية لا تمت إلى أصول الإسلام بصلة. ولكن ما سر علاقة هذه الشابة الأجنبية بحي السيدة زينب الشعبي؟ هل هو سحر المكان الذي لا يُقاوم، أم هو ألق الأسطورة الذي يصنعها الاعتقاد الشعبى بكل تجلياته؟! لم يكن عبثًا قط أن تطرح رواية «قنديل أم هاشم»، من خلال ضريح السيدة زينب وزيت قناديله، معضلة مقاومة القديم للحداثة في مجتمعنا. الأسطورة تنبت حين يحتاجها الناس، والحاجة أم الاختراع. المنطق والتاريخ لا يؤكدان وجود جثمانها في الضريح، لكنه البحث عن الشرعية السياسية والدينية أتى بها من الشرق إلى القاهرة، مع الفاطميين القادمين من أقصى المغرب. وإذا كان الملوك، بسلطاتهم وجبروتهم وأعوانهم يضعون البذرة، فإن الشعوب هي التي تغذيها وتضيف عليها من ثقافتها وتاريخها. تختفي الأسباب القابعة

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

في القمة بمرور الوقت، ويبقى الخيال المتجدد دائما ليضفي على الأسطورة أبعادًا إنسانية وحكمة.

ما الذي يجعل شعبًا لمئات السنين يصدق بأن رأس الحسين المضرج بالدماء يطير من كربلاء بعد المذبحة، ويعبر الصحراء والبحر والزمن ليسقط في حِجر فاطمة «أم الغلام» الجالسة على الأرض في قاهرة المعز؟! ستقوم فاطمة بإخفاء رأس الشهيد في بيتها، وتذبح غلامها لتقدم رأسه لعسكر يزيد بن معاوية، لتعيش الأسطورة في ذاكرة أهل المحروسة لأكثر من ألف عام، ويتم دفن الرأس في المسجد الحالي المجاور لمسجد «أم الغلام»! كأستاذ جامعي وباحث، أرى في كل ذلك تحايلًا من البسطاء لإضفاء موروثاتهم الفرعونية والقبطية القديمة على دين وافد مفروض. لم تعتنق أغلبية المصريين هذا الدين رغم عسف الجزية والخلفاء، إلا عندما أخذ سمتًا مصريًّا خالصًا وأصبح امتدادًا بشكل ما لقديمهم.

كل هذا لم يدر بخلدي ساعة أن قابلتها بعد غيبتها. أفكر فقط فيه الآن، وأنا أكتب قصتي معها، ومع البيضاء ويحيى.

أحاديثي معها أضاءت لي الكثير في شخصيتها. جاءت إلى القاهرة مدفوعة بحكايات الجدة عنها. لعله سؤال الهوية الذي حيَّر «صابر الرحيمي» بطل نجيب محفوظ في رواية «الطريق»، فطفق يبحث عن إجابة له. سامانثا اختارت دراسة الأدب العربي بتأثير جدتها المصرية وحكاياتها عن حي السيدة زينب، رغم أن خديجة هجرت أهلها و«السيدة» ومصر كلها. لم ترجع خديجة المعايرجي قط لتزور القاهرة منذ استيطانها فلوريدا، وهاهي حفيدتها تمتلك الشجاعة لتطرق أبواب حي السيدة، وتصعد السلالم الحجرية لقلعة الكبش، وتسأل عن جذورها.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

«كنس السيدة» جعل الشكوك تنتابني حول سامانثا وتورطها في نشاطات سياسية، بل كدت أجزم بأنها عميلة جهاز استخبارات دُسَّت علينا. أخبرتني يومها بأنها ذهبت إلى كنس السيدة بدعوة من أصدقاء تعرفت إليهم في مقهى بمنطقة البورصة بوسط البلد. قالتها، وكأنها ذهبت في نزهة! مانشرته الصحف يومها، يشير إلى قيام جنود الأمن المركزي بحصار المتظاهرات والتحرش بهن.

ـ سامي، لا تنسَ أنني أمريكية أحمل جواز سفر أمريكيًّا. لن يستطيع أمن نظام، يعتمد وجوده بالكامل على حكومتنا، أن يعتقل مواطنًا أمريكيًّا حتى ولو كانت جدته من قلعة الكبش!

ـ لكن مكوثك بالقاهرة لم يتعد سوى شهرين، كيف لحقتِ أن تنتقلي بسكنك من الزمالك إلى السيدة، بل تتظاهرين أيضا أمام مسجدها؟

ـ لم يكن ذلك سريعًا، لكن الوقت عندكم ليس له ثمن. تتحركون ببطء، وإذا تحركتم تنحو خطواتكم في اتجاه الخلف في أغلب الأحوال.

يومها ابتلعت انتقادها الصفيق، لكنني وجهت لها سؤالًا ظننت أنه يكشف تناقضا بين ما تقوله، وما تفعله:

ـ أنت التي تسيرين إلى الخلف، جدتك لم تنظر وراءها، لم تزر مسقط رأسها مرة واحدة. وجئت أنت لتبحثي عن أهل ومكان لا تنتمين إليهما، ولا يربطك بهما أي ذكريات أو مشاعر.

لمحت دموعًا متحجرة في مقلتيها، فأدركت كم كنت قاسيًا عليها.

انصرفت سامانثا مطرقة الرأس، ولكن قبل أن تبلغ باب الغرفة التفتت إليَّ، وقالت بنبرة حزينة:

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ العواف.

ما زالت غرابة تصرفات سامانثا تجعلني أهتمُّ بها، وتثير فضولي نحوها. في أثناء المحاضرات ومناقشات السيمنار، أصبحت أكثر فأكثر منجذبًا لمراقبتها والنظر نحوها. لاحظت أيضًا أنها تنظر إليَّ دون أن يرمش لها جفن، ولكنها نظرات هائمة في الفضاء.

في لقاء تالٍ بغرفة مكتبي، تحدثت معها بشأن زوجة يحيى المكسيكية، وسألتها عن إمكانية استغلال معرفتها بالإسبانية ـ لغة أجدادها من الأب للبحث في مواقع النِّت باللغة الإسبانية. وكانت مفاجأتها الدورية هي، أنها لا تعرف الإسبانية!

ـ كيف وأنت من أب مكسيكي؟!

ـ ليس مكسيكيًّا بالضبط، هو من الجيل الرابع لمهاجرين من المكسيك. هذا الجيل سرعان ماذاب في المجتمع الأمريكي. لم يبق من المكسيك فيه سوى اسم العائلة، وبعض وصفات الأكلات التي يتوارثها الأحفاد.

ـ ولكن لماذا فضلت الرجوع إلى جذورك المصرية وليست المكسيكية؟ بين فلوريدا والمكسيك خطوات!

ـ إنها جدتي التي ارتبطت بها، جاءت لتعيش معنا بعد أن مات جدي. جدتي ـ يا سامي ـ شهرزاد عصرية موهوبة في الحكي. حنينها المتأخر لمصر من جهة، وعجزها عن مواجهة أهلها بعد ما فعلته من ناحية أخرى، أفضيا إلى طريق وحيد في شيخوختها. طريق الحكايات المفروش بحنين الذكريات. لقد ظلت تحكي، وتحكي لي عن صباها والقاهرة.

ـ وكان ذلك السبب وراء بحثك عن الجذور؟

ـ نعم.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

لم يكن هناك بُدٌّ من أن أبدأ وحدي رحلة البحث عن سانتي، فأي اتصال برفاق يحيى من باحثة أجنبية قد يثير لديهم الشك والارتياب. ورغم أنهم قد فارقوا العمل السياسي المباشر بحكم تقدمهم في العمر، فإن رحلة العمل تحت الأرض وفي التنظيمات السرية أصابت معظمهم بكتمان لا مبرر له. وهل هناك أسرار تظل في الخفاء إلى ما بعد خمسين عامًا؟!

من أين نبدأ البحث؟ قررت أن أقرأ الرواية من جديد، وأن أحاول فهم تأثير الزوجة المكسيكية عليها. ولكن قبل أن أقرأ، ألم يقل يحيى إنها يونانية؟ فلماذا لا أسأل أحدًا من رفاق يحيى عنها، قبل أن يرحلوا هم الآخرون؟ أعرف صديقًا في جيلي من هواة الأفكار اليسارية، رجوته أن يدلني على يساري قديم من جيل يحيى.

وبالفعل اتصلت تلفونيًّا بذلك الرفيق القديم الذي أبدى دهشته الشديدة من سؤالي عن حقيقة سانتي. كنت أعرف الحساسية الزائدة لدى رفاق يحيى من الشيوعيين تجاه رواية «البيضاء»، وكيف اعتبروها خيانة وطعنة في الظهر عندما نُشرت لأول مرة على حلقات في جريدة «الجمهورية» القاهرية في الفترة اللاحقة على حملة اعتقال الشيوعيين ليلة رأس سنة عام ١٩٥٩ . لكنني لم أتوقع كل هذا الغضب والصراخ من محدثي لمجرد نطق اسم سانتي! حاولت الاستفسار والسؤال، فكانت إجابته قاطعة:

- سانتي رفيقة يونانية، من أشرف الزميلات في الحركة. قام يحيى بالتشهير بها في الرواية؛ لأنه لم ينلها. لقد وصفها في الرواية تمامًا بملامحها، ومشيتها، وإيماءاتها. صحيحٌ لم يكن اسمها في الحياة سانتي، ولكننا كلنا نعرفها. زميلة لم تتركنا وقت الشدة، وظلت ترعى أسر المعتقلين والمعتقلات، وعندما هاجرت إلى اليونان ظلت على

صلة بنا. سانتي الحقيقية يا دكتور، هي زعيمة في حركة التضامن مع قضايانا العربية، وفي مقدمتها فلسطين!

لم أشأ مجادلته، فأنا أعرف الزوابع التي صاحبت صدور الرواية. تلك الضجة لم تهدأ حتى الآن، وتبعتها موجة من الدراسات الأدبية والتاريخية عن تلك الرواية الغريبة من نوعها في الأدب العربي. وقت صدورها، لم يكن سوى البطل الإيجابي هو عنوان الرواية الواقعية العربية، ثم جاء يحيى ليصدم الجميع بنموذج بطل متردد متمزق بين ذاته الأنانية الضيقة، وبين قضية رحبة تسع الوطن والرفاق. التمست من محدثي اسمًا أو اسمين لزملاء يعتقد أنهما كانا مقربين من يحيى، فأعطاني بشق الأنفس اسمين اثنين. أفكر أحيانًا في غبائنا نحن العرب، جُلّ تاريخنا شفاهي يضيع، ولا ننتبه إلى رحيل الشهود قبل أن يدركهم الموت! تلك الصفحات الروسية التي عثرت عليها سامانثا، هي ضمن كتاب صدر في عام ١٩٨٠. لو كنا انتبهنا إليه، ولم ننتظر سامانثا الأمريكية لتبحث عنه وتترجم بعض صفحاته، لاستطعنا وقتها أن نسأل الأحياء عن حقيقة زواج يحيى بالمكسيكية. بعد ربع قرن من صدوره، نبدأ رحلة البحث عمّن تبقى منهم على قيد الحياة. أشخاص طاعنون في السن لا يتعدون عدد أصابع اليد الواحدة، وأغلبهم بلا ذاكرة، ومن احتفظ ببعض منها لا يريد الحديث، أو لا يعرف!

حاولت الاتصال ـ عبر التلفون ـ بزميل يحيى، الذي عمل صحفيًا في جريدة المصري لعدة شهور. أن تجد صحفيًا عاش سنوات الخمسينيات المضطربة، هو بمثابة العثور على كنز ذكريات وأحداث ونميمة.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

شجعتني ذاكرته القوية، فسألته عن حقيقة زواج يحيى الأول. وكانت إجابته مبشرة.

ـ نعم، رأيتها معه مرتين. عاشت معه فترة قصيرة. ماذا تقول مكسيكية؟! لا، لا أظن. أتذكر جيدًا أنه قدمها لي بوصفها إيطالية!

ـ هذا يعني أنك رأيتها معه، صِفها لي.

جلجلت ضحكته، وأتبعها بنبرة ساخرة:

ـ تريد مني أن أتذكر ملامح سيدة قابلتها مرة أو مرتين منذ خمسين عامًا! والله، هذه مزحة لم يبز طرافتها شيء سمعته خلال حياتي.

لم يمنحني فرصة، فأنهى المكالمة من طرفه. وجاءت صفارة متقطعة عبر السماعة، لتزيد من حيرتي.

علمني ذلك الحديث عبر الهاتف، أن المقابلة الشخصية قد تكون أكثر جدوى وجدية. اتصلت بالشخص الثاني، واتفقت على موعد للقاء معه في منزله. في تمام الموعد، كنت أمام باب شقته. كان الرجل أنيقًا في ملبسه، يرتدي «روب دي شامبر» حريريًّا على قميص أبيض وبنطال رصاصي من الصوف، بينما تدلت رابطة عنق بدبوس ماسي لتظهر من فتحة الروب. اكتشفت في أثناء حديثنا أنه تأنق خصيصًا لمقابلتي. كان قد تقاعد من عمله كطبيب منذ ما يقرب من عشرين عاما، وترك العمل السياسي والحزبي منذ خروجه من السجن عام ١٩٦٤ . سألته عن يحيى، فأبدى دهشته.

ـ رجل مات منذ خمسة عشر عامًا، لا يجوز على الميت إلا الرحمة يا أستاذ!

ـ أنا باحث في تاريخ الأدب يادكتور، ولعلك كنت قريبًا منه فتدلي بشهادتك حول أديبنا الراحل. هل كان زميلك في الكلية؟

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

- كان يكبرني بعامين، دخلت طب قصر العيني، فوجدته زعيمًا للطلبة. كان فؤاد محيي الدين وعصام جلال يتزعمان طلاب الكلية قبله، وعندما تخرجا أصبح يحيى زعيمًا بلا منازع. هو سكرتير منتخب لاتحاد طلبة الكلية، وسكرتير لجنة مساندة المقاومة المسلحة في القناة.. كانت أيام!

- ولكنه كان على اتصال بتنظيمات شيوعية أيضًا؟ سمعت أنك كنت معه في التنظيم؟

- تنظيمنا كان مرنًا ومتسعًا يسمح بعلاقات فضفاضة خارج المستويات التنظيمية. يحيى كان من هؤلاء الذين انخرطوا في مكتب الأدباء والفنانين في التنظيم، دون التزام تنظيمي واضح كما أعتقد!

- أريد أن أسالك عن «البيضاء».

زاغت نظراته، ومرت سحابة غضب سوداء على وجهه. أحسست أنه لولا الفراغ الذي يعيش فيه، وحاجته إلى من يستعيد ذكرياته معه، لرفض مواصلة الحديث وأنهى المقابلة.

- «البيضاء» يا أستاذ هي خطيئة يحيى، التي ظل يحاول أن يبررها طوال عمره. أراد يحيى أن يبرئ ساحته من تهمة الشيوعية نهائيًا، فنشر «البيضاء» في صحيفة الجمهورية عقب حملة القبض الكبرى عليهم التي قام بها عبد الناصر في ٥٩.

- هل تزوج يحيى بفتاة مكسيكية في بداية الخمسينيات؟

- أي مكسيكية؟! يحيى كان أعزب حتى تزوج في نهاية الخمسينيات. ذهبت إلى منزله في المبتديان في الأشهر الأولى لعام ١٩٥٤، ولم أجد زوجة هناك. فقط كان يقطن مع أخيه الطالب

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

في الجامعة. أنا متأكد من ذلك، فقد تذكرت أننا عقدنا اجتماعا حزبيًّا للجنة منطقة القاهرة في شقته بشارع المبتديان آنذاك.

ـ ألم تقل إنه لم يكن في جسم التنظيم الأساسي؟! هأنت تصرح بأنه عضو لجنة قيادة العاصمة!

ـ عذرًا.. نسيت أن أقول لك إنه بعد القبض على القيادات البارزة في التنظيم بعد أزمة مارس ١٩٥٤، اضطررنا إلى الاستعانة بالأعضاء المنضمين للمكاتب النوعية كمكتب الكتاب والفنانين، وكان منهم يحيى.

أدركت أن الشيخ الذي أمامي، مازال يخفي أسرار تنظيم اندثر منذ أربعين عامًا! عادة، لم يبرأ منها الذين اعتادوا العمل بعيدًا عن الضوء وأعين المخبرين. لعل أن مايبررها، هو عذاب الاعتقال والسجن الذي عانوا منه. يحيى نفسه، في أكثر من حديث صحفي، ينفي انضمامه إلى التنظيم ويؤكد أنه مجرد عاطف ونصير له من بعيد! وهاهو صديقه يقع بلسانه، ويفصح عن وجوده في مستوى قيادي بالتنظيم.

ـ ولكن هناك من أخبرني أنه شاهد زوجته معه، وإن كان قد قدمها له بوصفها إيطالية!

ـ أنا أخبرك بما أعرفه عن يحيى في تلك السنوات، قبل أن يتخلى عن رفاقه. عندما خرج يحيى من المعتقل في خريف عام ١٩٥٥، أخبر صديقًا مشتركًا بيننا أن علاقته قد انتهت نهائيًّا مع الشيوعيين. بعدها، لم أقابله مطلقًا.

ـ لقد كان ذلك قبل نشر الرواية بأكثر من ثلاث سنوات، ألم تثر «البيضاء» استغرابك؟! استطاع يحيى أن يستشرف بانتقاداته فيها

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ما حدث من انهيار للدول الاشتراكية، وما أصاب الإيديولوجية الشيوعية من تصدع. لقد سبق «البريسترويكا» و«الجلاسنوست» بأكثر من ثلاثين عامًا!

ـ قرأت «البيضاء» مرة واحدة، ولم أكررها. ربما تكون على حق، لكننا اعتبرناها رواية خيانة وتوبة في آن واحد. خيانة للرفاق، وتوبة معلنة بعلم الحكومة.

كنت أقود سيارتي في طريق العودة من ذلك اللقاء، حين وجدتني أصفر لحن «ليالي الأنس في فيينا». ما أدراني ما فيينا وما أوروبا! هل كانت رحلة يحيى إليها، ومشاركته في مؤتمر أنصار السلام، هي النافذة التي انفتحت أمامه ليرى المستقبل؟ ألا يمكن أن يكون اتصاله باليسار العالمي ذا علاقة بما جاء على لسانه من أفكار وانتقادات؟

قلت لسامانثا مازحًا:

ـ هل تعلمين شيئًا؟ اتضح أن يحيى كان يسكن بالقرب من مسكنك؟

نظرت بدهشة.

ـ كيف؟!

ـ بيته بالقرب من السيدة زينب، هناك في شارع المبتديان.

لمعت عيناها، وشهقت:

ـ ألم أقل لك؟

ـ ماذا؟!

ـ إنه سحر السيدة زينب، الذي لا تعترف به!

أدركت المعنى الحقيقي لمجاذيب السيدة من كلمات سامانثا. نظرت إليها، وكأنني أتأمل وجهها للمرة الأولى. وجه لا يمكن أن يكون مصريًا! بياض كالحليب، وعينان بزرقة السماء، ونمش خفيف

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

على أنفها ووجنتيها لا يظهر إلا تحت أشعة الشمس. ولعل مصريتها تتجلى فقط في الشفتين الغليظتين، واستدارة الوجه، ومؤخرتها العظيمة. ما الذي جعلني أظن أنها من فتيات محمود سعيد؟!

ـ اسمعي، أشعر أننا نبحث عن إبرة في كومة قش. تلك المكسيكية، سألت عنها من بقيَ على قيد الحياة من أصدقائه، فنفوا أنهم رأوها. نحن لا نعرف حتى اسمها! من تكون، وما مهنتها؟ تلك السيدة المجهولة تكاد تفقدنا اتجاه الدراسة التي تزمعين القيام بها. لولا أن يحيى ذكر بنفسه أن «البيضاء» من تأثير حياته معها، لتجاهلنا موضوعها من الأساس.

ـ ولكن ألم تكن أنت الذي تحمست للبحث عنها؟!

كانت سامانثا على حق في عتابها. أخرجت الصفحات الروسية من درج المكتب، ومعها ملخص الترجمة. وبدأت أنظر فيها بلا هدف. سامانثا تتطلع نحوي باستغراب. وفي لحظة خاطفة، سطعت نجمة حظي، فوضعت طرف إصبعي عليها غير مصدق. لاحظت نجمة صغيرة معلقة في سماء آخر الجملة التي تتحدث عن زواجه من المكسيكية. كان هناك هامش صغير في أسفل الصفحة، ومكتوب ببنط صغير جدًّا. التفتُ إلى سامانثا:

ـ كيف فاتتنا تلك النجمة؟! من الواضح أن هناك هامشا على متن. اتركي لي هذه الورقة، وسأتأكد بطريقتي الخاصة من الهامش.

انفرجت أساريرها، وقبل أن تذهب فوجئت بها تلوح بيدها قائلة:

ـ أديوس!

لم أفهم، فأردفت:

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

ـ وداعا بالإسبانية، إنها من بعض الكلمات القليلة التي أعرفها منها.

«العواف»، «أديوس»، وغيرها من تعبيرات الوداع. لا تعدم سامانثا وسيلة لإثارة دهشتي في نهاية كل لقاء معها! هل هي خطة محكمة منها لاستدراجي كي أكون مجالًا لتسليتها؟!

لم تكن طريقتي الخاصة، التي أخبرت بها سامانثا، أكثر من الالتجاء إلى مترجم محترف في المركز الثقافي الروسي لأعرض عليه جملة من تسع كلمات لا أكثر. نظر إليَّ المترجم من فوق العوينات التي انزلقت من مكانها إلى منتصف أنفه، وقال مترجمًا الهامش الصغير بروية:

ـ الفتاة المكسيكية هي ابنة فنان الجداريات العالمي دييجو ريفيرا.

كتبت ما قاله في نوتة الجيب، وأثار دهشتي أن تكون الفتاة ابنة فنان عالمي أيضًا!

ثقافتي الفنية ضعيفة، فما بالك إذا كان الأمر يتعلق بفنون تشكيلية وجداريات؟ ولكن إذا كان والدها فنانًا عالميًّا، فبالتأكيد سيصبح العثور على المكسيكية سهلًا.

مكتبة أحمد

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

(٣)

«ففكرت هنيهة وضمت فمها تلك الضمة التي أحبها؛ الضمة التي تذكرك أن لها فمًا صغيرًا دقيقًا كنت قد نسيته لفرط دقته وصغره. الضمة التي تبرز شفتيها وتركز حمرتها وتصنع لهما عشرات التجعيدات الدقيقة المتقاربة المحتقنة ذات المعنى الجسدي الذي ينسيك حتمًا ما كنت تريد قوله».

(البيضاء)

ثلاث سنوات كبيسة متتالية! ثلاث سنوات تنفتح أمامك أبواب العالم، ثم تنغلق دونك.

ما أجمل أن تشعر بأنك تملك الكون بأكمله بين يديك! وما أقسى أن تضيق الدنيا، فلا تجد ثقب إبرة تحتمي فيه!

منذ اللحظة الأولى التي تخرجت فيها من طب قصر العيني، أحسست أن الحياة تأخذني في أحضانها بكل صخب واحتفاء. المستشفى والممرضات والطبيبات والأطباء وحتى المرضى، شعرت بأنني أصبحت مركز دائرة اهتمامهم وترقبهم. الدكتور يحيى، ذلك اللقب الذي حلمت به، منذ أن كنت طفلًا أقطع مشوارًا يمتد لكيلومترات على قدميَّ بين الحقول جيئة وذهابًا إلى المدرسة. فقيرًا كنت يا يحيى، لكن حلمك وقتها لم يحده كون ولا سماء. أرفس حجرًا بحذائي القديم طول الطريق، وأظل أركله وأحلم حتى يبلى الحذاء، وتضربني أمي. بنيت قصورًا، واخترعت حكايات،

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

وتصورت أشخاصًا بغير وجود! مِخلة الدمور الرخيصة، وضعت فيها مع الكتب نصف رغيف مغموس بقطعة صغيرة من الجبن القديم، وطِرت بها على جناح مخيلة طفل مثل سندباد صغير يحلم بالتفوق، والاعتراف به، والشهرة، والثراء.

لم أكن طالبًا جامعيًّا خاملًا، عرفتني الجامعة سياسيًّا وخطيبًا وناشطًا. أخذتني على حين غِرة نداهة القص والأدب. لكن تلك السنوات الثلاث، وما حملته معها من أحداث ومشاعر، تجاوزت بكثير ما شهدته سنون العمر السابقة والتالية. ثلاث سنوات بدأت بحريق القاهرة، وانتهت بحريق آخر كاد يأتي عليَّ ولا يُبقي مني سوى الرماد.

ثلاث سنوات انتقلت فيها مصر من مسار إلى مسار. تحدد فيها مصيرها، وشكلت الأقدار طريقها عبر الأحلام الكبيرة والألم الدفين. اليوم، عندما أنظر إلى تلك السنوات تصدمني حقيقة، أن النهايات ارتبطت بالبدايات. خدعت نفسي، عندما استسلمت لفكرة مفادها أن الاستبداد المؤقت قد يفضي إلى العدل والتحرر. الهزيمة ـ التي نلناها ـ كانت قاسية، وكان أقسى منها خداع النفس. تنازلنا عن حريتنا كأفراد وتيارات، وجعلناها قربانًا لتحقيق الاستقلال والعدل الاجتماعي وحرية الأوطان، وفوجئنا بعد سنوات باحتلال البلد من جديد.

أتذكرها، ولا أستطيع نسيان ضمة فمها الصغير الدقيق، وعشرات التجعيدات الدقيقة حوله، وهي تقول بعصبية وحزم:

ـ لا، لا أستطيع مواصلة العيش هنا معك. يحيى، انتهى كل شيء!

في هذه المرة كرهت تلك الضمة التي طالما أحببتها، وهي تنفث دخان سجائرها، أو تقول بالإسبانية في دلال: «نو». «لا» التي تعني

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

«نعم»، «لا» التي تختزن في حرفين كل إغراء العالم ومراوغته. هذه المرة، كانت «لا» كلمة النهاية لقصتنا!

لم يستمر زواجنا الا بضعة شهور، لكنه ترك جرحًا لم يندمل، إلا بعد سنين وأعوام. كنت أظن أنني نسيتها نهائيًّا، حتى فوجئت، في أحد الأيام الأولى لعام ١٩٧٠، بسويتش الجريدة يحول لي مكالمة تلفونية غريبة.

ـ ألو، الأستاذ يحيى.

ـ نعم، هو أنا!

ـ نحن سفارة المكسيك، نود أن نسلمك شيئًا!

في صباح اليوم التالي، كنت أستقل سيارتي، وأبحث عن مبنى السفارة في حي المعادي الهادئ. لم يدر بخلدي قط أن تكون هي! قلت في نفسي: ربما هي دعوة إلى مؤتمر أو حدث أدبي، أو لعلها تهنئة وتعارف بمناسبة العام الجديد.

قابلني شاب حليق الذقن، ذو شعر أسود ناعم فاحم مرتب بعناية، ومفروق من الجانب. كان من النوع المعتاد من الدبلوماسيين وموظفي الخارجية. قدم نفسه لي بصفته الملحق الصحفي بالسفارة. قال إنه يعرفني من كتاباتي بالصحف، ويشرفه معرفة أديب مؤثر مثلي. رفع سماعة التلفون الداخلي، واستدعى أحدهم. جاء موظف مصري بدين، وفي يده ظرف أصفر متوسط الحجم. أعطاني المغلف، وأخذ توقيعي بالاستلام في دفتر آخر كان يمسك به بيده الأخرى. تحسست الظرف، وأنا أضع ألف احتمال واحتمال.

هممت بالوقوف، لكن نظرة من الدبلوماسي الشاب استوقفتني. اعتدل على كرسيه، وأخبرني بلهجة وقورة محايدة، لا حزن فيها ولا خفة:

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ هذه أمانة، قام ورثة المرحومة رُوث مارين ـ ريفيرا بإرسالها لك حسب وصيتها.

عندما نطق اسمها، انتابني فزع وجزع شديدان. أمعقول أنها رحلت هكذا مبكرًا؟!

وجمت، بينما جاءني صوت محدثي رتيبًا:

ـ السيدة رُوث ماتت في أحد مستشفيات مكسيكو سيتي في الشهر الماضي بسبب السرطان، وأوصت ورثتها (قام بقراءة أسماء أربعة أشخاص من ورقة أمامه) بإيصال هذا الخطاب لك. البقية في حياتك!

لم يكتفِ الدبلوماسي بتعزيته، لكنه أردف، هذه المرة بنبرة حزن وقورة، وكأنه أنهى مهمته الرسمية ليتحدث معي بشكل شخصي:

ـ المرحومة لم تكن امرأة عادية في حياة المكسيك، كانت شخصية مؤثرة في حياة مجتمعنا الثقافية والفنية.

أبديت له أسفي، وأنا مذهول. خرجت تائهًا، أتحسس الظرف بيدي. قلبته بين يديَّ، وقرأت على أحد وجهيه «الدكتور يحيى مصطفى طه». كانت الحروف اللاتينية الكبيرة تشغل وجه الظرف، بينما على الزاوية اليسرى العليا منه حروف صغيرة أخرى «حقيبة دبلوماسية».

ماتت إذن رُوث؟! لم أستطع أن أستقل سيارتي، خطوت بلا هدى في شوارع المعادي، ووجهها يملأ ناظري. وجهها البيضاوي الصغير، شعرها الأملس المضموم على هيئة ذيل حصان، ولون بشرتها الذي لا يشبه أي لون. لاهو أبيض، ولا قمحي، ولا أسمر. وجه اختلطت فيه ملامح الهنود الأمريكيين بالغزاة الإسبان. «ميستيزو يا يحيى.. أنا ميستيزو!»، كانت تقولها ببهجة واعتزاز بخلاسيتها.

لمحت مقعدًا خاليًا وسط الحديقة التي تمتد في وسط الشارع

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

وحتى نهايته. جلست والتقطت أنفاسي، بينما تحسست الظرف بأطراف أناملي. تذكرت أنها كانت تتعرف على الأشياء باللمس بأطراف الأصابع، كيف كانت تغمض عينيها قائلة:

ـ يا هيا.. اغمض عينيك، واتركني أتحسس ملامح وجهك!

أطيعها في غبطة، فتغلق عينيها هي الأخرى، وتتحسس بخفة ورِقة أنفي أولًا، ثم أذنيَّ الطويلتين، ثم جفوني المغلقة. أنتبه على صيحتها:

ـ يا هيا، افتح عينيك.

أطيعها، فأجد وجهها لصق وجهي، تضيئه ابتسامة رائعة.

ـ أنت تحبني في هذه اللحظة، أخبرتني أناملي بما تشعر به!

كانت تتحسس المنضدة، والأكواب، والورق، وفرشاة الألوان، وملاءات السرير ومساند الكراسي.

ـ هي طريقتي للتعرف على الناس والأشياء، فلا تنزعج ياصغيري!

كانت روحها تنساب من أطراف أناملها، فتتعرف على العالم من حولها بحاسة اللمس. لكن أناملي الآن، لا تستطيع أن تفصح عما يحتويه المغلف الأصفر. يبدو خاليًا إلا من شيء صلب متعرج بداخله. تأملت المظروف مرة أخرى، فوجدته بلا عنوان محدد. إذن، هي لا تعرف عنوان عملي ولا سكني. أكثر من ستة عشر عاما من الانقطاع والتناسي، اسمي الشهير كان كافيًا لأن يصل إليَّ خطابها الأخير!

أعرف تاريخ ميلادها، وُلِدت في نفس العام الذي وُلِدت فيه! أسبقها بشهر واحد في المجيء إلى الدُّنيا، وهاهي تسبقني في الرحيل. ياه، يا رُوث، رحلتِ في عمر الثانية والأربعين! نظن أن الموت بعيدٌ عنا، لكننا نقابله وجهًا لوجه فقط عندما يرحل مجايلونا من أحبائنا وأصدقائنا.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

فتحت المظروف مترددًا ومترويًا. مددت أصابعي داخله، فإذا بشيء معدني بارد. أخرجته، فإذا به هو! مفتاح الذهب !

مفتاح باب شقة ذهبي لامع، موصول بسلسلة ذهبية رفيعة. إذن، فلقد ظلت محتفظة به طوال عمرها!

أصررت أن يقوم الصائغ في محل «السرجاني» بصنع نسخة من الذهب عيار واحد وعشرين لمفتاح شقتنا بالقاهرة. بُهِت الصائغ أمام طلبي الغريب. أفهمني أن الذهب لا يصلح لفتح الأقفال والأبواب، الذهب لن يتحمل وسينكسر أو يُعوَج. أصررت يومها على طلبي، ورفضت عرضه البديل بمفتاح الحياة الفرعوني. بعد يومين كان مفتاح بيتنا الذهبي معدًّا. في المساء طلبت أن تغمض عينيها، ووضعته حول عنقها. تلمسته وهي مغمضة، سارت أناملها فوق سطحه، وتلمست طريقها إلى سلسلة الذهب. عندما رأته، صاحت في فرح:

ـ فعلتها أيها المجنون!

أغرقت وجهي بقبلات خفيفة سريعة متتالية، وهي تهمس وتضم شفتيها كبرعم زهر على وشك التفتح:

ـ تيا امو.. تيا أدورو.. أحبك.. أحبك.

هذا المفتاح الذهبي لم أتذكره بعد رحيلها، سوى مرة واحدة. بعد شهور عديدة من انفصالنا وعودتها إلى بلدها، وبعد غيبة طويلة لي في السجن، رجعت إلى البيت ومددت يدي في جيب بنطالي. لم أجد مفتاح الباب المعدني. ضاع في الأمانات والتنقلات بين ثلاثة سجون. ساعتها تذكرت مفتاحًا ذهبيًا آخر، مفتاح قلبي الذي فقدته مع من أحببتها يومًا ما!

نظرت في ساعتي، فأدركت أن الزمن يمر، والحياة لن تنتظر. زوجتي وأطفالي ينتظرونني على موعد الغذاء، بينما أغرق في بحر

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ذكريات منسية. كانت سيارتي تنتظر في مكانها، بدت السيارة حزينة وكأنها تشاركني الأسى. اللون الأزرق الذي طمس زجاج مصابيحها أضاف حزنًا فوق حزني. سواتر الطوب الأحمر، المرتصة على الأرصفة أمام مداخل العمارات والبيوت، تشبه شرائط اللصق التي تكمم أفواه الرهائن والمخطوفين.

أدرت مفتاح مذياع السيارة، فأتى صوت عبد الحليم في لوعة «عدى النهار.. والمغربية جاية تتخفى ورا ورق الشجر..وبلدنا ع الترعة بتغسل شعرها.. جاها نهار ما قدرش يدفع مهرها». دائما ما يذيعون موال «النهار» قبيل نشرة أخبار الثانية والنصف ظهرًا بإذاعة القاهرة. يذيعونه وكأنه إشعار باحتواء الأخبار على بيان عسكري حول قتال بيننا، وبين الإسرائيليين على الضفة الأخرى للقناة. حرب الاستنزاف مستمرة، هم مدججون بطائرات الفانتوم وأسلحة الأمريكيين، ونحن نقاتل بأسلحة سوفيتية لنمحو ذلّ الانهزام. جاء صوت المذيع وقورًا ليذيع بيانًا عسكريًّا. أتذكر أنه تعلق بمعركة حول جزيرة بالبحر الأحمر، حاول العدو أن يحتلها بمعاونة قواته الجوية. انسحب الإسرائيليون بعد تصدي وسائل دفاعنا الجوي لطائراتهم، وتعرض قوارب جنودنا لهم.

تحل بي راحة مؤقتة، ما زالت المعركة قائمة رغم تفوق طائراتهم. تُرى كم من الشهداء سقط؟ وكم قُتِل من الغزاة؟ حرب الاستنزاف تحتدم، تزداد وتيرة الاشتباكات بالمدفعية وغارات الطيران. ينتظر الناس بفارغ صبر زوال الهزيمة. متى ترجع الابتسامة لشفاه المصريين؟ منذ أكثر من ثلاثة أعوام، هجرتهم البهجة والشعور بالفخر. سحب الكآبة مخيمة على الوجوه، وذلّ الانهزام ساكن في القلوب.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

نهار حزين، ورحيل فاجع، وموال حزين. كل شيء حزين، حتى بلادي حزينة.

* * *

ما أشبه نهاية قصتنا بهذا الحريق!

كان قلب القاهرة يتآكل متفحمًا بألسنة اللهب التي أخذت تنتقل بسرعة مخيفة من مكان إلى مكان. طبق على صدور الناس خوف أسود من مجهول، وكُنا غير قادرين على تحديد ملمح واحد من ملامحه. كانت كل أبواب الأمل مشرعة أمامنا، النحاس ألغى معاهدة ١٩٣٦، والكفاح المسلح يشتد وينتشر بطول القناة ضد الإنجليز، والشوارع تمتلئ بالمظاهرات. أفكار جديدة، وجيل من شباب ينظر أمامه بتفاؤل. وفجأة جثم ليل حالك السواد على البلاد. إعلان الأحكام العرفية، واعتقالات بالجملة تطول السياسيين، واضطراب وراء اضطراب.

وكنت أنا هناك!

من وسط الحركة الشعبية، جئت محمولًا على أكتاف اليسار. موجة أنصار السلام تكتسح أوساط المثقفين والأدباء والفنانين والسياسيين. نداء «ستوكهولم» الشهير، نجمع عليه التوقيعات في المقاهي والأزقة والمصانع والقرى والمدن الصغيرة. موجة عتيدة من الأفكار الجديدة المتحررة. خمسمائة مليون من البشر يوقعون النداء المطالب بتحريم استخدام الأسلحة النووية. وفجأة، يقوم الجيش بحركته التي سرعان ما يُطلق عليها «ثورة». وسط هذه الأحداث المتسارعة، كانت الأبواب تُشرع أمامي. بدأت قصصي في الظهور على صفحات المصري وروز اليوسف، وبرز نشاطي في لجان أنصار السلام.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

مقر حركة أنصار السلام في شقة بأرض شريف، أمام محل عمر أفندي بشارع عبد العزيز. شقة كبيرة تكاد تخلو من الأثاث. يوسف بك حلمي بجسده الضخم يجلس وراء مكتب صغير، ويقول بصوت عريض عميق يليق بضخامته:

ـ دكتور يحيى، ستكون ضمن الوفد المصري المشارك في مؤتمر فيينا للسلام، استعد يا بطل!

تلجم لساني المفاجأة، فيردف قائلًا:

ـ سيضم الوفد أيضًا صديقك الخميسي، وعبد الرحمن الشرقاوي، وكامل باشا البنداري، والسيدتين سيزا نبراوي وإنجى أفلاطون.

من خلال النافذة الواسعة يبدو، خلف يوسف حلمي، مبنى متجر عمر أفندي. تبرز الإضاءة الخلفية جمال قبته الفريدة المنتصبة فوق الطوابق الخمسة، عند الناصية وفوق التقاء ضلعين من أضلاعه. تتمثل أوروبا، كومضة برق، بمدنيتها ونظامها وأناقتها ونسائها أمامي. أستسلم لإحساس النشوة والابتهاج.

ـ شكرا لهذه الثقة يا يوسف بك.

ـ إبراهيم رشاد وكامل باشا البنداري وحفني باشا محمود، كلهم يرون جدارتك بتمثيل حركة السلام المصرية في هذا المؤتمر.

أخرج إلى الشارع، وأنا مازلت مندهشًا من المفاجأة. أعبر الشارع وأدخل عمر أفندي، أتأمل جدرانه الداخلية ذات الزخارف اللولبية. صالات البيع على شكل محارات بحرية. تقابلني ابتسامة على وجه فتاة أجنبية ترتدي زي البائعات الوردي. أشتري منشفة لبنية قطنية، وقميص قطن «لينوه» من إنتاج مصانع «الشوربجي». أغازل البائعة، فتبدو متمنعة بلامغالاة في الصد. أنظر إلى يدها اليمنى فأجد دبلة

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

خطوبة ذهبية. أخرج من المحل، وأشعر بأن أجنحتي مشرعة في الفضاء.

انفتح باب جديد أمامي، السفر لأول مرة إلى الخارج بدعوة لحضور مؤتمر الشعوب المحبة السلام.

كنت أعرف ـ وقتها ـ أنها أول رحلة لي إلى أوروبا، لكني لم أعلم أنها ستكون أول تجربة حب كاملة، وأول زواج.

ألم أقل من قبل إنها كانت ثلاث سنوات كبيسة، مليئة بالأحداث الكبيرة والصغيرة والحميمة؟!

هكذا بدأت حكايتنا ـ أنا ورُوث ـ في مدينة غريبة على كلَيْنا: فيينا.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

(٤)

«وذهبنا إلى البوفيه، وهي تسبقني، وكلانا يحاول أن يجد له طريقًا بين الأجساد المتلاطمة المزدحمة، وكنت وأنا أستسمح هذا أن يدعني أمر، وأعتذر لذاك، وأبتسم، أحس بنفسي رقيقًا دقيقًا كوتر الكمان، كلامي موسيقى، وحركاتي أريد أن أحيلها إلى رقصات باليه. إن السعادة أحيانًا تخلق من الإنسان شاعرًا».

(البيضاء)

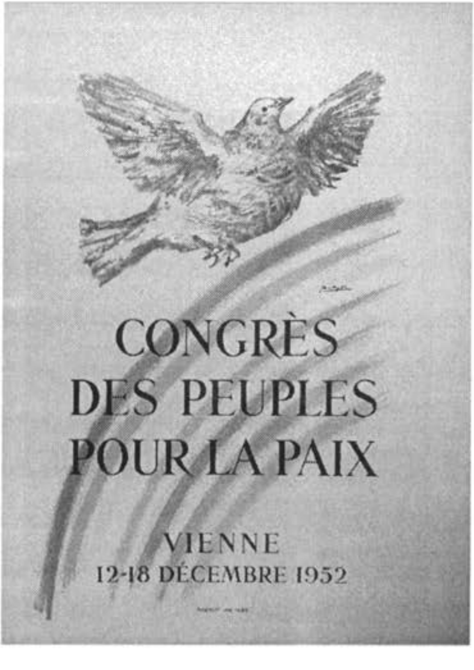

بوستر مؤتمر فيينا للسلام، بيكاسو، ١٩٥٢

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

لحظة واحدة، بل هي ثانية واحدة التي قررت مصيرنا، نحن الاثنين! بينما كنت أصعد، بالكعب العالي، الدرج الفخم لقاعة المؤتمرات بفيينا، أفلتت قدمي اليمنى، وكدت أن أقع بظهري على الدرجات الرخامية للواجهة، والتي اكتست بطبقة جليدية زلقة. أغلقت عينيَّ في استسلام مرتعب. لولاه، لكنت ذهبت هباء منثورًا. يد قوية أسندت ظهري، وتبعتها يد كبيرة أخرى أمسكت بكتفي. فتحتُ عينيَّ، فوجدت وجهًا مبتسمًا لشاب رياضي يحتضنني. نفذ وميض شعاع عينيه الخضراوين إلى داخلي، واخترقني. انتفضت مبتعدةً عن صدره، بينما كانت ركبتاي تصطكان من اصطدام نظراتنا. جاءت كلماته بالإنجليزية لتقيلني من عثرتي الحقيقية:

ـ آسف، لعلك بخير؟

أجبته بإنجليزية مرتبكة:

ـ جراتسيا.. شكرا، أنا ممتنة لك للغاية.

ـ هل أنت إيطالية؟!

لم أستطع أن أكتم ضحكة جاءت من القلب:

ـ أوه.. لا.. لا، أنا من المكسيك!

اتسعت عيناه، وبدا الاستغراب على وجهه. حرك أصابع كفه اليمنى في حركة نصف دائرية لم نعتدها في بلادنا، كأنه يسأل ويستنكر في نفس الوقت:

ـ ولكنهم في المكسيك ـ كما أظن ـ لا يتكلمون الإيطالية!

هززت رأسي موافقةً ومدركةً أن رد فعلي العفوي، أثرت فيه إقامتي لعامين في روما للدراسة:

ـ يتكلمون ـ بالطبع ـ الإسبانية يا سينيور.

لم أرد أن أفسر استخدامي (جراتسيا) الإيطالية مع أول رجل أقابله

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

على درج المؤتمر، وبلا تعارف مسبق. ولم أشأ أن أغرق في نقاش لغوي، لا وقت له حول تشابه الكلمة الإيطالية مع شكرًا الإسبانية (جراتسياس). أومأت برأسي شاكرة وأكملت صعود الدرج، بينما كانت نظراته تطاردني وتخترق ظهري. لم يترك مسافة كبيرة بين خطواتي وخطواته.

وأمام منضدة التسجيل بالمؤتمر وقف بجانبي، ومرةً أخرى أحسسته يسترق النظر إلى استمارة التعارف التي أملؤها. أخذت أجندة وأوراق المؤتمر، وعلقت بدبوس مشبك بطاقة التعريف على صدري. وبينما كنت أبتعد عن المدخل وأتأهب لدخول القاعة، اقترب مني وحانت منه التفاتة إلى البطاقة المعلقة على صدري، وقال موجهًا سبابته:

ـ نعم، إنك مكسيكية حقيقية!

نظرت إلى البطاقة المعلقة بشريط أزرق رفيع إلى رقبته، كان مكتوبًا عليها «EGYPT» بخط ثقيل وحروف كبيرة، وفوقها حرفا Y.M، وبعدها اسم عائلة غريب غير مألوف لديَّ (Taha).

ـ وأنت مصري، لكنك تبدو أوروبيًّا وليس مصريًّا حقيقيًّا!

جاوبتني ضحكة قوية مجلجلة، ضحكة لا تشبه أي ضحكة. قهقهة، بل ريح تأخذ في وجهها كل شيء وأي شيء. كم مرة ظننت ضحكته موجة عاتية من غضب يموج داخله، وينفثه عبر رئتيه!

ـ مدموازيل، أنا فلاح مصري ابن فلاح. الأوروبيون هم الذين يحتلون بلادنا، وما زال الإنجليز يتخذون من أراضينا قواعد عسكرية لهم.

نكص على عقبيه من أمامي، وبدا غاضبًا أو مجروحًا. لاحظت

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

أنه جلس على مسافة أربعة مقاعد مني، وفي نفس الصف الذي اخترته. لم تكن مصادفةً قط، لأنني ضبطته أكثر من مرة يختلس النظرات نحوي. وفي إحدى المرات ابتسمت، وكأني أقول له: «ضبطتك». رد على الابتسامة بإيماءة من رأسه، وبابتسامة معطاءة تتسع لكون بأكمله.

في الاستراحة توجهت مع بيدرو زميلي من منظمة الشبيبة الشيوعية إلى الكافتيريا الواقعة تحت المنصة المقامة على المسرح. وجدنا طريقنا بصعوبة عبر غابة من الأجساد المتلاطمة لألفين من الموفدين. لم يكن هناك موضع لقدم في البهو الكبير المفضي إلى «الجروسر زال». تكدس بالبشر الدرج العريض المتجه يسارًا، والهابط إلى مدخل الكونسرت هاوس.

في ركن قصي من المقصف استطعنا العثور على طاولة، قد خلت للتو من جالسين إليها. أحسست بنظرات تخترق ظهري، وأنا أحتسي القهوة مع بيدرو. كيف أحسست بنظراته، وهو لا يواجهني؟ لا أعرف! التفتُّ فوجدته واقفًا خلفي على بعد أمتار قليلة، لكنه ـ هذه المرة ـ كان يتأمل كل تفصيلة من جسدي. حاول أن يشيح بوجهه بعيدًا، لكن نظراته أبت مطاوعته. اعترت وجنتيه حمرة الخجل، وبدت شفتاه ترتجفان. استدرت إلى بيدرو الذي لاحظ اضطرابي، وتنبه إلى نظراته المصوبة نحوي، فسأل:

ـ هل تعرفينه يارُوث؟!

ـ لا، بل اصطدمنا عند مكتب التسجيل!

لم أكد أنتهي من عبارتي، حتى فوجئت بصوت عميق يأتي من خلفي:

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

ـ هل تسمحين يا آنسة؟

مد يده بكاميرا كوداك «بوكس» من نوع عتيق رخيص.

ـ لا أريد أن أزعجك، لكنني وددت أن تلتقطي لي صورة فوتوغرافية بجانب هذا الملصق.

أشار بسبابته إلى ملصق المؤتمر الذي تم تكبيره ليشغل جدارًا بأكمله في الكافتيريا، وفي الوقت نفسه أرسل نظرة اعتذار إلى بيدرو في انحناءة خفيفة للرأس. وأردف قائلًا:

ـ لا أرى أحدًا من رفاقي المصريين هنا ليساعدني، أستميحك عذرا يا رفيقة!

أخذت منه صندوق الفوتوغرافيا، وتبعته. حمامة بيكاسو ـ رمز السلام ـ تطير فاردةً جناحيها ورافعةً مؤخرتها المكتنزة وريش ذيلها، بينما تتراقص ألوان قوس قزح المُبهِجة في الخلفية.

ابتسم واضعًا يديه في جيبيْ بنطاله، وفك أزرار سترته مفسحًا المجال لبروز صدر رياضي واثق. التقطت الصورة بسرعة، وهممت أن أرجع له آلة التصوير. ومرة أخرى، فاجأني بحركة غير متوقعة. جذبني من ساعدي، وسألني في رجاء:

ـ هل تتفضلين عليَّ بصورة تجمعنا معًا؟

قبل أن أجيب، تناول «بوكس الكوداك» وقدمه لأحد الضيوف المارين سائلًا المساعدة. أخذ يدي ليضعها في ساعده الأيسر، وضمها بحميمية. صوت اللاقط كان مسموعًا، وكأنه طلقة من مسدس انطلقت لتعلن بداية سباق عدو. نعم.. سباق عدو، فمنذ تلك اللحظة بدأت نيران الرغبة تسري بسرعة الضوء في عروقنا.

سحبت ذراعي من المثلث الذي تألفت أضلاعه من ساعده وذراعه وجانب صدره، كنت مصعوقة من جرأته وتهوره. كان

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

يجب عليه كأي «جنتلمان» أن يسأل بيدرو ـ الرجل الجالس معي ـ أن يصوِّره، هو لم يعطِ رفيقي أي اعتبار. لمحت بطرف عيني بيدرو، وهو يرقبنا متململًا. ولعله كان مازال مصعوقًا بما شاهده منذ ثوانٍ.

ـ سينيور، من الواضح أنك تسمح لنفسك بتصرفات تتعلق بأناس آخرين دون مشورتهم!

تلون وجهه بلون قاتم، وظهر اعتذار ممتزج بغضب مكتوم في عينيه. والحقيقة أنني عندما أتذكر ملامحه الآن، أوقن أنها كانت حسرة وخوفًا من خيبة أمل وهزيمة أكثر من غضب.

فقد يحيى القدرة على المبادأة، ومعها ابتسامته الواثقة. صمتَ، كتمثال شمع في متحف مدام «توسو». ولأول مرة منذ اصطدامنا على الدرج، أكون المبادِرة في الحديث معه.

ـ كومبانيرو، (أردت أن ألطف حديثي بعد أن انتقدته، فناديته: يا «رفيق» بصيغة أكثر وِدًّا من لفظ «السيد»)، أنت وسيم وذو روح مرحة مهذبة، لكنك أخذت ساعدي تحت إبطك دون استئذاني، حتى ولو بلفتة أو إيماءة! تخطيت رفيقي الذي أجلس معه، وطلبت مني أن ألتقط صورة لك!

بُهِت يحيى، وهجرته الحروف والكلمات والأصوات. واصلتُ، وقد اكتسبت ثقة مضاعفة:

ـ المسألة أبسط بكثير مما تظن يارفيق، تستطيع مصادقتي ولكن دون أن تفرض عليَّ ذلك. المسألة بسيطة وسهلة، لا تحتاج إلى كل تلك المناورات والخطط!

استعادت عيناه بريقهما، وارتسم برعم ابتسامة على ثغره. تنهد وقال بصوت خفيض متردد:

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ وددت أن أُصادقك، من اللحظة الأولى أعجبتني. شيء ما غريب ينمو في صدري تجاهك، لا أعرفه..اعذريني فقد تصرفت كرجل شرقي!

ـ لا اعتذار بين الرفاق.

ابتسمت، واستأذن بيدرو في الانصراف بإيماءة من بعيد وهو جالس على الطاولة. فيما بعد، عرفت أن بيدرو كان مستاءً، وكان يرقبنا عن كثب ليتدخل إذا لاحظ أي تمادٍ من يحيى نحوي. قال لي بيدرو بعدها إن يحيى لم يرَ شخصًا أمامه سواي، تصرف وكأنه سهم مصوب تجاهي مباشرة. ظن بيدرو أن يحيى فاقد العقل والإدراك بمن حوله.

يومها عرفت أن اسمه «يا حيا»، هكذا أنطقها على مقطعيْن صوتييْن، بينما يتأرجح حرف «الحاء» بين صوتي «الخاء» و«الهاء». وعرف يحيى بدوره أن اسمي رُوث. أشار إلى اسم عائلتي المكتوب في بطاقة التعارف المعلقة على صدري «مارين ـ ريفيرا»، وسأل متعجبًا من اسم العائلة المكون من لقبين بينهما شرطة!

ـ كومبانيرو! في المكسيك يحمل المرء اسميَّ عائلة والدته ووالده معًا في لقبه.

لمعت عيناه، وقال متصنعًا الحسرة وهو يبتسم:

ـ لقبي طه تبعا لاسم عائلة أبي، ولو اقترح أحد إضافة اسم عائلة أمي لوقعت جريمة قتل في قريتنا! يبدو أن بلادكم متقدمة جدًّا يا رُوث!

هذه المرة اختار أن يناديني دون لقب «رفيقة» كي يقترب أكثر فأكثر.

بدا لي أن يحيى لم ينتبه إلى لقب «ريفيرا» الذي أحمله، وما قد

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

يعنيه من احتمال قرابتي إلى أحد أشهر فناني العالم المتصدرين لحركة أنصار السلام.

في صباح اليوم التالي، وجدته ينتظرني أمام «الكونسرت هاوس». ارتدى يحيى معطف مطر أسود، وفي يده باقة من ثلاث وردات حمراء. شعر رأسه كان مغطى بندف بيضاء من الثلج، أبت أن تذوب على الفور. أتذكر منظره الآن كعاشق يقدم قدمًا ويؤخر أخرى. كنت أرتدي فوق ردائي «بانشو» مكسيكيًّا مشقوقًا من الجانبين تطل من فتحته رأسي. بانشو صوفيًّا، ألوانه فاقعة: أصفر أرجواني وأزرق غامق وأحمر قانٍ وأبيض ناصع. لو أن فنانًا تشكيليًّا نظر إلينا عبر الشارع، لانبهر بلوحة الألوان العاشقة التي انسكبت على خلفية الشارع الثلجية البيضاء، وواجهة المبنى التاريخي المزدان بلوحات لبنية، وحمامات بيكاسو ذات أقواس قوس قزح. تناولت ورداته شاكرة، وغرزت واحدة منها في شعري خلف أذني اليسرى. الوردتان الأخريان، كانتا من نصيب عاملة مشجب المعاطف المسنة، وبيدرو الذي رأيته في ردهة الطابق العلوي. ابتسم بيدرو عندما رآني مع يحيى، وحياه بابتسامة ذكية ونظرة ماكرة. رد يحيى التحية بكثير من الكلمات التي بدت، وكأنها غطاء يتدثر به ليخفي اضطرابه، وخجله الشرقي.

تركنا يحيى، وفضَّل أن يجلس بعيدًا عنا في قاعة المؤتمر. استغربت ابتعاده، وعزوته إلى خجل أو تردد انتابه. أفقت على صوت بيدرو الجالس بجانبي:

ـ يبدو أن صديقك المصري يخشى من غيرة رفيقاته المصريات!

أشار بالتفاتة من رأسه إلى يمين القاعة؛ حيث كان يحيى يجلس بجوار ثلاث نساء شرقيات الملامح. ولأول مرة أشعر بعدم ارتياح

غير مبرر. كنت أتطلع إلى الصف البعيد الذي يجلس فيه مع الوفد المصري، وأفكر في ذلك الشاب الجريء والخجول في آن. كيف استطاع أن يجذب انتباهي إليه بهذه السرعة، ولماذا أصبحت مهتمة به إلى هذا الحد؟!

في الثالثة من ظهر اليوم نفسه، خرجت ضمن الوفود المشاركة في المؤتمر في مسيرة إلى مبنى البرلمان النمساوي؛ حيث التقينا بمظاهرة ضخمة لعشرات الألوف من أهالي فيينا. تصدر أبي، ورفاقه، وأصدقاؤه من زعماء حركة السلام مسيرتنا. كانت المسافة قصيرة ما بين «الكونسرت هاوس» ومبنى البرلمان في شارع «رينجشتراسا». تنفست الصعداء؛ لأن صحة «سابو-رانا» بعد إصابته بالسرطان قد تأثرت، ولن تسمح له بالسير مسافة طويلة. كنا نسمي والدي «سابو-رانا»، أي «الضفدع الكبير»؛ لطوله الفارع وضخامة جسده. رفرفت أعلام خمس وثمانين دولة فوق رءوسنا، وارتفعت آلاف اللافتات المكتوب عليها كلمة «السلام» بالعديد من لغات العالم، وتبادل الخطباء الكلمات من فوق منصة منصوبة بالقرب من البرلمان. اختلط أعضاء الوفود بأهالي فيينا، ولم تعد هناك صفوف منتظمة لوفود البلدان. ارتفعت الصيحات: «نريد السلام للشعوب»، «العار لمشعلي الحروب»، «عاش كفاح الشعوب في كوريا وفيتنام».

أحسست بكف تمسك ذراعي وسط الزحام المبهج. قبل أن ألتفت، أخبرني حدسي أنه هو. كان يحيى يبتسم، وهو يلوح بقبضة يده مع الجماهير المحتشدة. في لحظة خاطفة اندفع صبي صغير، ووراءه أمه نحونا ليهديانا حمامة ورقية بيضاء. يومها ظللنا ـ حتى حلول الظلام ـ نجوب مع المتظاهرين شوارع فيينا، غير عابئين بتقسيم المدينة بين قوات الحلفاء. أومأ يحيى إلى لافتة مضيئة لبار

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

قريب. فوجئنا، فور دخولنا من الباب الزجاجي، بالعدد الكبير من الجالسين حول طاولات مغطاة بمفارش بيضاء ذات مربعات حمراء. قهقهات ضباط إنجليز في بزاتهم العسكرية وزوجاتهم، وصخب الموسيقى منعانا من المكوث. لاحظت علامات الارتياح على وجه يحيى، عندما خرجنا إلى الشارع.

انتبهنا إلى جلبة عربات الترام، قبل أن نراها. ظهر ترام فيينا بلونه الأحمر الزاهي وسقفه الأبيض الحليبي. كان يشق طريقه بين أكوام الثلوج التي أزيحت من على قضبانه. لاحظنا محطة ترام قريبة في منتصف الشارع. في لمح البصر شدني يحيى؛ لنركض كي نصل إلى المحطة قبل أن يصل الترام. تسارعت أنفاسنا، وتهدج صوتانا للسرور الذي اجتاحنا للحاق به. زاد اهتزاز العربة من احتكاكات جسدينا المتلاصقين. كنت بجوار النافذة الزجاجية التي تكثف عليها بخار الماء الدافئ الناتج من تنفس الركاب. تواطأ الجليد خارج النافذة مع طبقة جليدية رقيقة من تكاثف الماء في الداخل، ليجعلا من رؤية ملامح الشارع مستحيلة. مال يحيى بجسده ناحيتي، وضغط بسبابته على النافذة. رسم بدفء إصبعه على الزجاج البارد قلبًا يخترقه سهم كيوبيد. بدت اللوحة طريفة، خطوط يحيى شفافة تلوح منها أضواء الحوانيت والمقاهي والحياة، وبقية زجاج النافذة معتمة جامدة.

نظرت إليه متصنعة الغضب، تساءلت:

ـ ألست متعجلًا بعض الشيء؟!

ـ لا أبدًا، أنا متأكد من شعوري نحوك.

ـ لكنني لا أعرف من أنت. ما مهنتك وما اهتماماتك؟!

ـ أنا طبيب وكاتب. اهتماماتي مثل اهتماماتك، وإلا ما تقابلنا في فيينا يارفيقة!

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

ـ وأنا مهندسة معمارية، مهتمة بتخطيط المدن والتراكيب المعمارية. أقوم بالتدريس في معهد البوليتكنيك بمكسيكو سيتي.

حاولت أن أكبح ميلًا جارفًا نحوه طوال الأمسية التي قضيناها معا. مازلت أتذكر البار الهادئ في المنطقة الأمريكية الذي جلسنا فيه. حاول أن يضفي عفوية بريئة على لمسات يديه التي انتهزت كل فرصة لتحسس جسدي، لكن عينيه كانتا تفصحان عن مشاعره الفائرة. أضفَت موسيقى الجاز الدافئة على كافة حوارنا الهامس رومانسية حالمة. العازف أمريكي أسود، يتمايل بجسده في الاتجاهات كافة ممسكًا بالساكسفون. فمه لا ينفخ في أنبوب الموسيقى، بل يهمس بحنو بالغ كأنه يناجي حبيبته. جاء صوت يحيى:

ـ ألم تري كيف حظيت رسالة بول روبسون الموجهة للمؤتمر بتصفيق هائل في جلسة المؤتمر؟!

ـ «يا.. حيا»، أعظم فناني العالم يقودون حركة السلام، ولا يأبهون باضطهاد حكومات بلدانهم الرأسمالية. روبسون يتعرض لاضطهاد مريع. سحبوا جواز سفره ومنعوه من مغادرة الولايات المتحدة

نظر يحيى ناحية العازف الأمريكي، وقال دون أن يحول بصره عنه:

ـ من الواضح أن روبسون فنان لن يتكرر. هذا دليل على أن الفن يسري بالفطرة في دماء الأمريكيين الأفارقة.

لم يكد ينتهي يحيى من جملته، حتى بدأت دقات البيانو تعزف لحنًا مألوفًا. يا لها من مفاجأة، إنها أغنية بول روبسون الشهيرة «دع شعبي يرحل»! تخلى العازف الأسود عن آلته الموسيقية، وبدأ يغني. صوت رخيم يموج بثورة غضب العبيد. برقت عينا يحيى وهو يسمع اسم وطنه يتردد في الأغنية. كلمة «إيجيبت» المتكررة في الأغنية

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

أيقظت في نفسي إحساسًا وحدسًا، بأن لقائي مع يحيى ليس عابرًا. أوحت لي كل تلك المصادفات أن القدر يجمعني به. اتسعت عيناه، وهو يقول لي:

ـ هذه الأغنية يا رُوث ذات معانٍ صهيونية واضحة.

فاجأتني غرابة ما قاله، لكنني قلت له في اقتضاب؛ حتى لا أفسد استمتاعي بالغناء والعزف:

ـ إنها ليست فقط أغنية شهيرة لبول روبسون، بل هي عبارات من سِفر الخروج من الكتاب المقدس. أغنية ألفها وغناها زنوج الولايات الجنوبية في مخابئهم الواقعة على مسار طريق الهروب إلى الحرية في الشمال!

بدا لي أنه يسمع هذه المعلومات لأول مرة، وإن ظلت على وجهه علامات الحيرة والدهشة.

ما الذي يجذبني إلى هذا الرجل؟ سؤال يدور في رأسي ويدوخني معه. طوال طريقنا إلى الفندق الذي أصرَّ أن يصاحبني إلى بابه كجنتلمان حقيقي، كنت أفكر في سر الجاذبية التي يتمتع بها هذا الشرقي. هل هو قدري؟ لماذا يخفق قلبي بكل هذه القوة؟ كلماته ـ الآن ـ أكاد لا أسمعها من ضجيج ضربات قلبي المتسارعة. أفكر فقط في تلك العلاقة الغريبة التي بدأت بيننا. لست مراهقة، ليحدث معي كل ذلك! قابلت كثيرين في أثناء الجامعة وفي محيط أصدقاء أبي وأمي، لكني لم أجرب انجذابًا، مثل الذي أحسُّ به تجاه هذا المصري.

أمام باب الفندق قبلني قبلة خفيفة على وجنتي، وتمنى لي ليلة طيبة.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

كانت غرفتنا ـ أنا وأبي ـ مظلمة. دخلت دون أن أحدث ضجة؛ حتى لا أوقظه. فاجأني صوته، وأنا أرتدي قميص نومي:

ـ هل حضرت يارُوث؟

ـ نعم.

ـ لماذا تأخرت؟

لم أرد. صمتُ، ولم يسألني ثانيةً، لعله لم يكن ينتظر جوابًا. استلقيت على سريري وتدثرت بالغطاء. لم أنم، ظلت عيناي تحملقان في الظلمة. كان وجه يحيى في مخيلتي. كنت متأكدة أن والدي الضفدع الكبير مستيقظ أيضًا، ويحاول النوم.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

(٥)

«الطريق دقيق جدًّا، ذلك الذي يفصل بين الرجل والمرأة ويصلهما، وكل منهما يسلكه باحتراس شديد. إن الرجل وهو يطلب المرأة كالصبي حين يحاول الإمساك بفراشة، إنه يقترب منها في حذر مبالغ فيه، مخافة أن يأتي بحركة غير مقدرة ومحسوبة تجعلها ترف بجناحيها وتطير».

(البيضاء)

ديسمبر عام ١٩٥٢. فيينا مدينة أشباح، لم تتخلص من دمار الحرب بعد.

مر أكثر من سبعة أعوام على انتهاء الحرب، وكادت فيينا أن تكون المدينة الوحيدة التي لاتزال تعاني ويلاتها. مبانٍ مهدمة مبعثرة، وحدود تقسمها إلى خمس مناطق، وجنود جيوش أربع دول يجوبون أنحاءها. تجار سوق سوداء، وجواسيس من الشرق والغرب تمتلئ بهم المدينة. هذه كانت حالة فيينا، حين قابلت رُوث أول مرة!

معطفي الذي اشتريته من القاهرة لا يقي من زمهرير الشتاء الأوروبي. ندف الثلج تتساقط على البيوت والشوارع، فتكسوها بلون أبيض وقور. أسير بحذر على رصيف الشارع، ففي الصباح ظهرت الشمس وارتفعت درجة الحرارة فوق الصفر، ثم انخفضت مرة أخرى فتحولت الثلوج الهائشة إلى طبقة جليد صلبة ناعمة مصقولة زلقة.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

الفندق الصغير الذي أقمت فيه مع الوفد المصري لأنصار السلام، يقع في الحي الثاني بالمنطقة السوفيتية. مبنى مقر المؤتمر في «كونسرت هاوس» على التخوم بين الحي الثالث الواقع تحت سيطرة الإنجليز ووسط المدينة المحايد. دوريات مشتركة من القوات الإنجليزية والأمريكية والفرنسية والروسية تحفظ الأمن في منطقة وسط المدينة، وفي كل شهر يتم تبادل القيادة بين الدول الأربع: الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا العظمى، وفرنسا، والاتحاد السوفيتي. أحياء المدينة الثلاثة والعشرون موزعة بين البلدان الأربعة. القوات السوفيتية تكاد تحيط بالمدينة من النواحي كافة. لم يكن عبثًا أن يختار أنصار السلام فيينا، ليعقدوا مؤتمرهم فيها!

اللافتات الزرقاء اللبنية تغطي واجهة «كونسرت هاوس». جملة واحدة مكتوبة عليها، ولكن بعدة لغات، «مؤتمر الشعوب المدافعة عن السلام». لوحات كبيرة أخرى مرسوم عليها حمامة السلام، وملصق كبير جذب اهتمامي بشدة. صورة طفل يشير بسبابته إلى الأمام، ومكتوب تحتها «ماذا فعلت أنت لتحافظ على السلام؟!».

ألفا مندوب جاءوا من خمسة وثمانين بلدًا من أنحاء الكرة الأرضية كافة. بشر من كل لون ارتدوا الأزياء كافة التي يمكن تخيلها. أفارقة، هنود، صينيون، يابانيون، عرب، أوروبيون، لاتينيون. عشرات اللغات المختلفة تسمعها، وتجري على الألسنة. مؤمنون وغير مؤمنين، رجال دين وعلمانيون، شيوخ مسلمون وقُسوس مسيحيون، أئمة وحاخامات يهود، براهمة هندوس ورهبان بوذيون. استقبلت فيينا العالم بذراعين مبتورتين وجسد مضمد.

رئاسة المؤتمر تتكون من جوليو كوري، وسارتر، ولوي أراجون، وبابلو بيكاسو، وبابلو نيرودا، وإيليا إهرنبورج، ودييجو ريفيرا.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

يتناوب هؤلاء المشاهير الجلوس على المنصة الموضوعة أعلى خشبة المسرح. عيوننا معلقة بنجوم العِلم والثقافة الذين يدافعون عن مستقبل البشرية. زملائي في الوفد المصري من كل الأطياف السياسية ومن مختلف المهن: كامل باشا البنداري، وعبد الرحمن الخميسي، وإنجي أفلاطون، ويوسف حلمي، وسعد كامل، ولطفي الخولي، وسيزا نبراوي.

هناك وسط هذا المولد المزدحم، قابلتها. أرق من فراشة، وأشَفّ من الدانتيلا.

رأسها الصغير يلتفت يمنة ويسرة بينما ترتقي درجات السلم الرخامية للمبنى. كنت أتأملها دون قصد من الخلف. ترتدي معطفًا يناسب شتاء فيينا. لم يخفِ المعطف عن عينيَّ جمال ساقيها. بضة الساق الانسيابية تفضح جمال وتناسق مفاتن الجسد الأنثوي. هكذا علمتني الحياة، وأيضًا دراستي لعلم التشريح في كلية الطب. كنت أفكر في كل ذلك، عندما وقعت المفاجأة لأجدها تنزلق من فوق درجة السلم التي غطتها طبقة جليدية زلقة ولامعة، لتقع بين يديَّ. أفهم الآن، والآن فقط، لماذا زلزل كياني وجهها الذي تطلع إليَّ في ذعر وامتنان في آن واحد. أخذني - على غرة - بريق عينيها، ووجهها البيضاوي ذو الملامح اللاتينية. حسبتها إيطالية، فخاب حدسي.

منذ تلك اللحظة أحسست أن رابطة ما ستجمع بيننا. لعله قدر أو مصادفة محسوبة وضعتنا في طريق واحد معًا!

في «الجروسر زال» أو القاعة الكبرى، لم تغب لحظةً عن عيني. كنت أرقب لفتاتها. كانت أذناي تلتقطان كلمات المتحدثين على المنصة في جلسة الافتتاح، بينما انجذبت عيناي دون إرادة مني إليها. على المنصة رجل ضئيل الحجم، يظهر رأسه بالكاد

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

من فوق المنضدة، وبجانبه الأيمن مارد من الأوزان الثقيلة، وعلى يساره الشاعر الفرنسي لوي أراجون الذي ألهب خيالنا بقصائده عن معشوقته «إلزا». سأعرف فيما بعد أن ضئيل الجسد ذا الأذنين الكبيرتين، هو جان بول سارتر. وأن المارد الذي بجانبه هو الكاتب السوفيتي إيليا أهرنبورج. انتصبت أعلام البلدان والدول التي جاء منها المندوبون وراء المنصة، بينما ظلَّلت الرءوس لوحة كبيرة تحمل عبارة «مؤتمر الشعوب من أجل السلام»، وفوقها حمامة بيضاء كبيرة.

انشغل ذهني بسؤال كبير، تفرعت منه أسئلة أصغر تحتاج إلى إجابات سريعة. كيف يمكنني الاقتراب من هذه الفراشة البديعة، دون أن تنزعج وتهرب مني؟ رغبة تنتابني لا يمكن مقاومتها، تدفعني إليها. جاذبيتها مغناطيس قوي، أصبحت مأسورًا في مجاله. هجوم خاطف لا يفزعها، هو الحل.

اعترتني غيمة سريعة من ذكريات. لم تكن علاقتي بالمرأة سلسة قط، كانت على النقيض مليئة بالصعوبات والتعرجات. أحبها، وأخشاها في الوقت نفسه. أحيطها بذراعيَّ، وأجفل منتفضًا في لحظة وكأن لسعة عقرب قد أصابتني. هل كانت علاقتي المضطربة بأمي هي السبب؟ ظلت تشعرني بالجفاء، وتضن عليَّ بحقي من حنانها. لم أنل منها سوى قبلة واحدة فقط طوال عمرها. قبلة باردة، استحققتها عند حصولي على بكالوريوس الطب. ربما كان طلاقها القصير من أبي، ورجوعها إليه، ثم ولادتي بعد موت ابنها البكري الرضيع سببًا لجفائها نحوي. أحست والدتي أن بقاءها على ذمة رجلها، يتوقف على بقائي على قيد الحياة. امرأة جميلة مشتهاة، وزوج تزوج ثلاث مرات دون أن ينجب. جاء الولد وأعقبه آخرون، وبقيَ الخوف عليه والغيرة منه. لم أكن بالنسبة إليها طوق

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

نجاة فقط، ولكنْ سوطًا يلهب ظهرها في يد عائلة زوجها! علاقة معقدة، لا ذنب لي فيها، ستضع بصمتها على علاقتي بالجنس الآخر طوال عمري.

حانت لحظة التقدم والهجوم الخاطف في الكافتيريا. لم يمنعني جلوسها مع شاب آخر من التقدم نحوها. لقد أدركت أن اللحظة، بل الجرأة أيضًا، لن تواتيني مرة أخرى. سار الأمر في البداية كما تمنيت، لكنها فاجأتني بدرس مباشر في العلاقة بين الرجل والمرأة.

ـ المسألة أبسط بكثير مما تظن يا رفيق، تستطيع مصادقتي ولكن دون أن تفرض عليَّ ذلك. المسألة سهلة، لا تحتاج إلى كل هذه المناورات والخطط!

يعجبني في النساء الغربيات قدرتهن العجيبة على المصارحة وعدم الالتفاف والمداورة في علاقتهن بالرجل. عندما تريد المرأة الغربية رجلًا، فإنها تقول بوضوح: «نعم». وتنطق المرأة الشرقية كلمة «لا» مراوغة، وهي تقصد «نعم». تخاف نساؤنا من إبداء مشاعرهن ورغباتهن وعواطفهن، فما هو مسموح للرجل غير مسموح به للمرأة.

اتفقت مع رُوث على صداقة، ولكن أي صداقة يمكن أن تنشأ بين رجل وامرأة؟! الطبيعة لها قوانينها، ونحن نختار من الكلمات ما يستر غريزتنا وعواطفنا. ما بين الذكر والأنثى منذ بدء الخليقة، انجذاب لا يختلف عن انجذاب قطب موجب وآخر سالب بفعل المغناطيسية.

أدركت أن هجومي يجب أن تعقبه فترة لالتقاط الأنفاس، فتعمدت ألا أطاردها في جلسة صباح اليوم التالي بعد أن أهديتها وردًا حمراء. كنت أرقب اللحظة المواتية لمواصلة الاقتراب منها دون أن أثير ضجة تفزعها. وجاءت اللحظة في مظاهرة أنصار السلام في شوارع فيينا. كنت أرقبها منذ اللحظة التي خرجت فيها الوفود لملاقاة جماهير

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

المدينة، وعندما اختلطت الحشود وذابت طوابير الوفود المشاركة في طوفان بشري اتجهت على الفور نحوها وأمسكت بذراعها. التصاق جسدينا واختلاط أنفاسنا وسط الزحام، أعطيا خصوصية لهمساتنا التي ضاعت وسط ضجة الهتافات والصراخ.

افتراقنا عن المسيرة الحاشدة، أضفى روح الاشتراك في مؤامرة لذيذة. اجتذبنا نداء ساحر خفي، شارك فيه ليل فيينا ومصابيح شوارعها ذات الإضاءة الهادئة وباراتها الأنيقة النظيفة. عندما أخرجت رُوث كفها من القفاز الصوفي لتضعه على نافذة الترام، واتتني الفكرة. دفء كفها الصغيرة فتح شباكًا صغيرًا في بخار النافذة المتولد من تكاثف تنفس الركاب، لنطل منه على الشارع. حانت لحظة اصطياد الفراشة ولكن بِرقة واحتراس. رسمت بدفء سبابتي، وبنفس الطريقة خططتُ قلبًا يخترقه سهم على جليد النافذة، ولم أكتب أول حرفين من اسمينا. هكذا أحسن كثيرًا، حتى أحتفظ بخط الرجعة إذا جفلتِ الغزالة من صيادها.

وجدنا ضالتنا في مقهى بالمنطقة الأمريكية، كان اسمه على ما أذكر «ذا كاوبوي». كنت أتأمل وجه رُوث الصغير الجميل على أنغام موسيقى الجاز المفعمة بالعاطفة، وإذا بدقات بيانو مهيبة، مصاحبة بصوت مغنٍّ أمريكي أسود، تنطلق!

«انزل يا موسى، انزل إلى أرض مصر
وأبلغ الفرعون العجوز أن يدع شعبي يرحل
عندما كان شعب إسرائيل في أرض مصر
(دع شعبي يرحل).
كان شعبي مضطهدًا لدرجة يصعب معها الصمود
ولذلك قال الرب لموسى: اهبط

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

اهبط إلى أرض مصر
وأخبر الفرعون العجوز أن يدع شعبي يرحل
وبالفعل نزل موسى إلى أرض مصر
(دع شعبي يرحل)».

تكرار كلمة «إيجيبت»، ولهجة الوعيد الرهيبة في الأغنية مع الصرخات الآمرة التي تردد: (دع شعبي يرحل) جعلت بدني يقشعر. حرب ثمانٍ وأربعين ليست بعيدة، ومأساة اللاجئين الفلسطينيين عالقة في الذهن، ودم الشهداء لم يجف بعد. لاحظت رُوث اضطرابي، فأفضيت لها بنفوري من الأغنية. وهنا اكتشفت بفضلها أن حركة تحرير السود الأمريكيين تستعير كلمات وجملًا من العهد القديم للتعبير عن التوق إلى الحرية.

بالتأكيد، رُوث ليست فتاة عادية، هأنذا أكتشف موسوعية ثقافتها التي تتعدى حدود السياسة إلى آفاق الفن!

لكن المقطع الثاني من أغنية «بول روبسون» يأتي بانتقام إلهي ووعيد:

«اهبط يا موسى إلى مصر
ودع الفرعون يفهم، قل له
لو لم تدعهم فسأبتليك بموت ابنك البكر
اهبط ياموسى إلى أرض مصر
أخبر الفرعون العجوز أن يدع شعبي يرحل».

أغنية على لسان الرب، أم تهديد بقتل؟! فيما بعد سأهتم بالأمر، وسأعرف أن الرب سيعاقب المصريين بطوفان متتابع من ضفادع وبعوض وذباب، وأوبئة تحصدهم مع بهائمهم، ومطر وبرد ورعود

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

تضرب محاصيلهم. لم أستطع أن أستسيغ أن تتحول الرحمة إلى قتل ودمار لشعب بأكمله، حتى ولو كان ملكه ظالمًا. وللحق، وقتها أعجبتني فكرة الاستعانة بالمقدس في أغنية ضد العبودية. هم زنوج وملونون، لكن من حقهم أن يكونوا أحرارًا وأن يعاملهم الرب كما عامل العبرانيين!

في صباح اليوم التالي، بينما كنت أقترب مع أصدقائي المصريين من قاعة المؤتمر، اصطدمت عيناى برُوث في أحضان كهل ضخم. اتكأ الرجل على كتفها بذراعه، وكاد يحتضنها. كانا يقفان مع عدة أشخاص لم أتبينهم. أشرت برأسي إلى الرجل الضخم، وسألت متوجسًا صديقي عبد الرحمن الخميسي:

ـ من هو؟

نظر إلى حيث أشرت، ومسح نظارته السميكة بمنديله، ثم هزَّ رأسه يمنة ويسرة، قائلًا بصوته الجهوري:

ـ ومن قال لك إنني دليل تلفونات!

انتبهت رفيقتنا الشابة إنجي أفلاطون على صوت الخميسي الجهوري، واستفهمت عما حدث. ضحكت قائلة:

ـ إنه دييجو ريفيرا، أشهر فناني الجداريات في العالم!

لم تلحظني رُوث.

في داخل القاعة التقت أعيننا، وتبادلنا الابتسامات. خلف منضدة على المنصة، جلس هذا الكهل وأمامه يافطة صغيرة باسمه. لم أتبين الحروف، فلقد جلست بعيدًا في منتصف القاعة. ريفيرا، أليس هو اسم عائلة رُوث؟! هل يقربها، أم أنه مجرد تشابه في الألقاب؟

فور انتهاء الجلسة، ذهبت من فوري إلى حيث تجلس. الزحام أعاقني عن الوصول في الوقت المناسب. اختفت وسط أعضاء

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

الوفود الخارجين من القاعة. في تلك اللحظات أصابني الإحباط، العثور عليها وسط هذه الفوضى معجزة.

وكانت المعجزة تنتظرني خلف أحد أبواب القاعة الذي خرجتُ منه! وجه رُوث يتطلع إليَّ:

ـ أين ذهبت يايحيى؟

ـ كنت أبحث عنك!

تكاد الفراشة تلامس كفي، وأنا أترقبها فرِحًا. أخفي ابتهاجي؛ خشية أن تنزعج وترفرف بجناحيها بعيدًا عني.

نلتقط معطفينا من العاملة العجوز بغرفة حفظ المعاطف. تقف رُوث أمام مرآة كبيرة في المدخل، تحكم الوشاح حول رقبتها وترفع من ياقة معطفها، تضع كفيها بمهارة وسرعة في القفازين الصوفيين. تبدو كأميرة من أميرات الشمال. نخرج إلى الشارع البارد، فأدخل يدي اليمنى في جيب معطفي، وأضع كفي الأخرى في جيب معطفها، قابضًا على كفها. نصف احتضان، ودفء لذيذ. لا تُبدي اعتراضًا؛ فأوقن أني اقتربت من امتلاك فراشتي.

ـ إلى أين نذهب؟!

ـ لا أعرف يا رُوث.

ـ فلنمشِ في شوارع فيينا.

بارك الجو الصحو اقتراحها. شمس الشتاء الصفراء، واللون الأبيض للجليد الذي غطى المباني والطرقات والسيارات الواقفة منذ ليل أمس أضفيا روحًا شاعرية على خطواتنا. مررنا بجوار عمارات مهدمة وجدران شوهتها شظايا حرب، مَرَّ على انتهائها سبع سنوات. الحياة تنبض في البنايات المأهولة، والمقاهي المتناثرة، وفي الخطوات القافزة لأطفال المدارس حاملي الحقائب الصغيرة.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

نظرت رُوث إلى نبتة عشب خضراء شقت طريقها بين أنقاض مهدمة؛ لتظهر غير آبهة بالجليد الذي غطى كل شيء.

ـ انظر.. كم جميلة هي الحياة!

تبدو رُوث كطفلة شقية، خطواتها قفزات إلى الأمام. تتعب أقدامنا فنستقل أول ترام نقابله، ولا يهم إلى أين يمضي بنا. تظهر بعد عدة محطات حديقة ملاهٍ كبيرة، مراجيح دوارة وساقية ضخمة معلقة في السماء. ندخل حديقة الملاهي، ونجلس في مقهى صغير بداخلها.

ـ رُوث، من هو الرجل الذي كان يضع ذراعه حولك في صباح اليوم؟

ـ أوه، هل رأيتنا؟ أنا لم أرك!

ـ كنتِ وسط جمهرة؛ فلم تلمحيني.

ـ هذا هو أبي الذي جاء بي معه لحضور المؤتمر.

ـ ولكنك لم تخبريني من قبل أنك بنت دييجو ريفيرا!

ـ وهل يغير الأمر شيئًا؟

تغلبت على تلعثمي، وابتسمت:

ـ لا يهمني من يكون والدك، تهمني أنتِ فقط.

بدت سعيدة بكلماتي، علت ضحكاتها. وفي لحظة لمحت دمعة ساكنة في زاوية عينِها.

لم تتركني تائهًا في تكهناتي:

ـ أصرَّ دييجو على أن أصاحبه في السفر إلى فيينا. لم يعد يأمن السفر بمفرده.

ـ لماذا؟

ـ في بداية هذا العام أصابه السرطان!

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

أخذ الحديث منحى مفاجئًا، وبدت الفراشة مستسلمة حزينة. انتفض داخلي فضول الطبيب المتخرج حديثًا، سألتها:

ـ أي سرطان؟

ـ القضيب!

في البداية، ظننت أنني لم أسمع الكلمة جيدًا. نظرت في عينيها، وكررت السؤال مستفهمًا، وركزت كل سمعي على ما سوف تقوله.

ـ سرطان القضيب يا يحيى.

لم يرمش لها جفن، وهي تقولها. نبرة الحزن كانت واضحة، ولكن لم تقلها بخجل، ولم تحول بصرها عني. عجيب أمر هؤلاء الأجنبيات لا يخجلن من النطق بأسماء أعضاء، لو ذُكِرت أمام هانم شرقية لتصنعت الإغماء وفقدت النطق. انتبهت على نظرات رُوث المستغربة من صمتي الذي طال.

ـ اسمحي لي كطبيب أن أسألك: كيف يتعالج؟

ـ أخذ علاجًا إشعاعيًّا لبضعة أشهر، أوقف انتشار المرض. لكنه مازال يعاني.

ـ أي علاج إشعاعي؟! هذا السرطان لن يوقفه إلا البتر. الجراحة هي ما ينقذ حياته. اعذريني على تدخلي. مازالت معلوماتي الطبية طازجة، فلم يمر على تخرجي سوى أشهر.

ـ لقد رفض والدي تمامًا البتر الجراحي.. هل تعرف لماذا؟!

صمتُ، فواصلت وشبح ابتسامة يغشو وجهها:

ـ يقول بإصرار، إنه يريد أن يبقى كل شيء كاملًا كما هو. وعندما حاولنا مناقشته، برر ذلك بأنه مسئول عن العواقب. لا أنسى كلماته الحازمة «أرفض ان أسمح لأحد بأن يبتر العضو الذي منحني أعظم متعة عرفتها».

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

لم أستطع أن أخفي دهشتي البالغة. أي رجل ذلك الذي يصر على مقايضة العمر بالمتعة في سن الشيخوخة؟ رجل في العقد السابع، ومازال يبحث عن المتعة. وقتها لم أكن أعلم أنه عاش أربع زيجات، وعشرات من قصص الحب الملتهبة.

وجهها المستسلم، وكلماتها الأخيرة دفعاني لأحتضن كفيها بكلتا يديَّ وأضغط عليهما برفق. ربط بيننا في هذه اللحظة شعاع من حب، وتعاطف عميق.

وكأنه نداء خفي يجذبنا، اشترينا تذكرتين لنصعد إلى إحدى عربات العجلة الكبرى التي تدور رأسيًّا. أحكم العامل وضع حزام الأمان حول خصريْنا. بدأت الساقية الكبيرة في الدوران. عربتنا ترتفع في بطء متأرجحةً، وتبدأ ملامح فيينا في الظهور من خلال واجهة العربة الزجاجية. سقوف منازل تغطيها الثلوج، وحدائق، وميادين، وشوارع. البشر نقاط صغيرة دكناء وسط بياض مدهش. تقتربُ مني، وأنتهز الفرصة فأحتضنها. أقبلها، وترتعش شفاهنا في قبلة طويلة لا ترتوي. أنا وهي نحلق في الفضاء، والأرض أسفلنا بعيدة. تبدو المدينة من سماء الحب مزيجًا من الحياة والخراب، الجمال والقبح، الحرب والسلم، الماضي والمستقبل. اليوم فقط أتذكر مشهد فيينا من السماء، لكنني وقتها كنت غارقًا في الحب فلم ألحظ سوى رُوث. لا أرى سوى وجهها، ولا أشعر إلا بدفء جسدها. لم تكن قبلة عادية، بل حياة تشغلنا عن أي حياة أخرى.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

(٦)

«ولكن الدافع الذي يدفعني لبذل نفسي من أجل الآخرين دافع يكاد يكون غريزيًا كغريزة الدفاع عن النفس مثلًا أو الابن أو العائلة».

(البيضاء)

بدأت تستهويني فكرة البحث عن الفتاة المكسيكية. جلست أمام شاشة الحاسوب، بينما تصاعد بخار الشاي الساخن ليضفي دفئًا على ليلة من ليالي يناير الباردة. ولكن كيف أبدأ؟ ومن أين؟!

أين قابلها يحيى؟ يكتب صديقه المقرب- في شهر وفاته- بمجلة الهلال الشهرية أنه جاء بها من وارسو، وأنه أبرق لأصدقائه كي يجهزوا عش الزوجية ويعلقوا ستائر تخفي تشقق جدران مسكنه، وسقوط أجزاء من طلائها. أما يحيى فيؤكد بنفسه للمستشرقة الروسية أنه التقى بابنة ريفيرا في أثناء مؤتمر فيينا للسلام، وفي مقال له ـ بعد سنوات عديدة ـ يتذكر لقاءً وحديثًا له في فيينا نفسها مع سارتر في شهر يناير من عام ١٩٥٣!

أجد نفسي دائرًا في دوامة تتسع دوائرها باطراد، ويبدأ الشك في مراودتي. هل قصة الارتباط بالمكسيكية نتاج خيال يحيى القصاص الموهوب، أم أنها حقيقة تعصى على الإثبات ؟ سمعت كثيرًا عن أدباء يختلط عليهم الواقع بالخيال، فينسجون أوهامًا يعيشون فيها!

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

وقابلت بعضًا من هؤلاء، تظنهم صادقين فيما يروُونه، ثم تكتشف بعد ذلك أكاذيب عقولهم المبدعة. كيف أتأكد من حقيقة بيضائه؟ بل، ولأكن أكثر دقة، كيف يمكن أن آتي بدليل دامغ على وجود تلك الزيجة في الواقع؟

تومض شاشة الكمبيوتر وتطفئ أمامي، وأنا منشغل بتفكير عميق. أعيد ترتيب أفكاري، سأبحث عن مكان اللقاء أولًا، ثم أحدد التاريخ ثانيًا. أفتش في محرك «جوجل» للبحث عن مؤتمر لأنصار السلام في وارسو، فأكتشف أن المبادرة لتجميع المدافعين عن السلام في العالم قد انطلقت في عام ١٩٤٧ بدعوة من جمعية الصداقة الفرنسية البولونية لمؤتمر للمثقفين، حضره خمسمائة من مثقفي وكتاب وفناني العالم في بولندا. كان يحيى ـ وقتها ـ مازال طالبًا مغمورًا في الجامعة، ولم يكن في متناوله حضور هذا المؤتمر. لكني أجد مؤتمرًا ثانيًا لأنصار السلام انعقد في وارسو في نوفمبر عام ١٩٥٠، وتمَّ فيه إهداء جائزة السلام للفنان العالمي بابلو بيكاسو. مرةً أخرى، يبدو أن التاريخ غير مناسب؛ لأن يحيى مازال طالبًا في كلية قصر العيني. أضع مؤشر الفأرة على السهم المشير إلى أسفل في يمين الشاشة، فتتحرك الصفحة إلى أعلى وتظهر سطور جديدة أمامي. يظهر اسم مدينة فيينا أخيرًا، لقد انعقد فيها مؤتمر الشعوب المحبة للسلام فيما بين ١٢ ديسمبر و٢٢ ديسمبر ١٩٥٢. هذا التاريخ مناسب، سيكون يحيى قد تخرج، وعلى وشك الانتهاء من فترة تدريب الامتياز في مستشفيات الجامعة. والأكثر من ذلك، أن نجمه بدأ في السطوع بين الأوساط الأدبية، كما أن قصصه أصبحت تشد الأنظار في الصحف. يبدو أيضًا التاريخ مواكبًا للقاء يحيى بسارتر في يناير ١٩٥٣.

ألقي نظرةً على موقع مجلس السلم العالمي باللغة الإنجليزية،

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

وأتمعن في المؤتمرات والنشاطات التي عقدها. أجد سطرين اثنين ـ لا غير ـ عن المؤتمر، لا يلبيان نداءات فضولي. يفاجئني وجود جدول جامع لمؤتمرات السلام يبين مكان وموعد الانعقاد، وبجانبهما في خانة منفصلة أسماء هيئة رئاسة المؤتمر وأبرز الحاضرين. تبهرني أسماء شخصيات عالمية بارزة. رئاسة مؤتمر فيينا ١٩٥٢ تضم كلًّا من جان بول سارتر، وبابلو نيرودا، ولوي أراجون، ودييجو ريفيرا. الأخير هو الفنان المكسيكي العالمي. إذن هناك احتمال كبير بأن يصطحب ابنته إلى المؤتمر، فتلتقي بيحيى! أستمر في استعراض أسماء هيئة الرئاسة والحاضرين: زوجة الزعيم الصيني صن يات صن، والكاتب السوفيتي إيليا أهرنبورج، والعالم الفرنسي الشهير جولييت كوري، والفنان العالمي بول روبسون. يبدو الاسم الأخير غريبًا على ذاكرتي. وكيف لي أن أعرفه، وقد ولدت بعد هذا المؤتمر بسنوات وسنوات؟!

لم أستطع العثور على أسماء المصريين المشاركين في هذا المؤتمر، رغم وجود مقالات في مواقع إلكترونية عربية تذكر أسماء شخصيات سورية وعراقية مشاركة! سأعرف فيما بعد أن السبب في غياب أسماء الوفد المصري، هو اندثار أرشيف حركة أنصار السلام المصرية بعد حلها ووقف أنشطتها.

أكتب اسم روبسون بالإنجليزية في الخانة المخصصة لمحرك البحث، لتنفتح أمامي آلاف الصفحات المحتفية بشخصيته. ثلاث ليالٍ كاملة، قضيتها غارقًا في حكاياته وأغانيه وأفلامه. أكتشف قدر جهلي، فأحاول تعويضه بقراءة المزيد. أغوص، وأتتبع قصة حياته المثيرة. رواية دالة مؤثرة، تشي بأجواء الحرب الباردة في بداية الخمسينيات بين كتلتين من الدول اقتسمتا الكرة الأرضية. ترتسم

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

أمامي صورة لعالم ما بعد الحرب العالمية الثانية؛ حركات تحرر بازغة، واستعمار يقاوم أفوله، وآمال صاعدة لشعوب في الحرية والعدل والمساواة. تغزو ثقافة التحرر واليسار جنبات الأرض، وتتألق نجومها بقوة في السماء. أعثر على صور فوتوغرافية عديدة لروبسون، يبدو فيها زنجيًا وسيمًا بابتسامة جذابة.

أذهب في الصباح إلى الجامعة وكأنني تركت حبيبة مريضة في البيت، وأعود متلهفًا إلى منزلي بعد الظهيرة لأفتح الحاسوب، صندوق الدنيا. نسيت يحيى، ورُوث. جذبتني أجواء الخمسينيات وأحداثها العالمية. اكتشفت أن بول روبسون لم يحضر مؤتمر فيينا، رغم وجود اسمه في هيئة رئاسة المؤتمر! لقد كان ممنوعًا من السفر خارج حدود الولايات المتحدة الأمريكية، وبعد انتهاء المؤتمر تمَّ الإعلان عن حصوله على جائزة ستالين العالمية. أقرأ صفحات وصفحات، وأتأمل صوره الفوتوغرافية، وتنبت آلاف الأسئلة في ذهني.

كان روبسون في الرابعة والخمسين من عمره عندما انعقد مؤتمر أنصار السلام في فيينا، وطوال مسيرة ثلاثين عامًا قبله، أبهرت العالم موهبته الفنية في الغناء والتمثيل. لم يكن قط مشواره الفني إلى القمة سهلًا. زنجي أمريكي، وابن لعبد سابق، يتفوق في ميدان كرة القدم الأمريكية ليصبح أحد أبرز لاعبيها. يَدرس القانون في الجامعة، وتتفتح مواهبه دفعة واحدة. تتجاوز شهرته الأسوار الأكاديمية، ليمثل ويغني على خشبات المسارح. يصبح أحد رموز «نهضة هارلم» في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي. ينتقل إلى لندن ويبدع في دور عُطيل، ويصبح بعدها نجمًا سينمائيًّا عالميًّا في الثلاثينيات.

تندلع الحرب العالمية الثانية، فيقوم بدور بارز في دعم المجهود

الحربي الأمريكي. لن يغفر له هذا الدور، أمام سلطات بلاده، جريمة تعاطفه مع الجمهوريين في الحرب الأهلية الإسبانية. ستثير نشاطاته في «مجلس الشئون الإفريقية» الأمريكية حفيظة مكتب التحقيقات الفيدرالي. لا يُخفي روبسون آراءه السياسية المؤيدة لسياسات الاتحاد السوفيتي في حقبة الستالينية، ويتضح بالتدريج تعاطفه مع الشيوعيين الأمريكيين وحركة الحقوق المدنية. يعاني الاضطهاد في حقبة المكارثية في خمسينيات القرن الماضي، ويُمنع من السفر خارج الولايات المتحدة الأمريكية، ويُسحب جواز سفره. تقاطعه شركات الإنتاج السينمائي، ومتعهدو الحفلات. يعاني الإفلاس، لكنه يصمد ولا يتخلى عن مواقفه السياسية. فقط، في عام ١٩٥٨، يحصل على جواز سفر بحكم من المحكمة العليا الأمريكية. يتقاعد في بداية الستينيات، ويعيش بقية حياته في فيلادلفيا.

الحقيقة، أن كل تلك العلامات الفارقة في حياة روبسون لم تستهوني بقدر ما أغوتني تفصيلات وأحداث صغيرة كثيرة أحاطته. مقاطع أغانيه وأفلامه، التي احتفظ بها اليوتيوب، بالغة الروعة. صوته العميق الأجش ـ من طبقة الباس ـ أدخلني في عوالم لم آلِجها من قبل. أحاسيس جياشة، ومشاعر تتدفق بلا ضفاف. كان روبسون ـ بالنسبة إليَّ ـ اكتشافًا لعصر كامل بكل متناقضاته؛ الحرب الباردة، والستالينية الصارمة، ودول الستار الحديدي، وثقافة يسارية تغزو العالم، وسجون الشرق والغرب المليئة بأصحاب الرأى الحر!

هل كان يحيى وقتها يعرف ما أعرفه عن روبسون الآن؟! أشك كثيرًا. ففي عصر لا تتوفر فيه وسائل الاتصال الحديثة، وينتقل فيه الإبداع من مكان إلى آخر عبر أفلام السينما وبرقيات الصحف يصبح الإلمام بهذه الشخصية مستحيلًا. لكنني سأقرأ فيما بعد في أثناء بحث

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

قمت به عن أدب السجون في مصر، في تلك الفترة، أن اسم روبسون ورد في شهادة وحيدة لأحد المعتقلين اليساريين. حكى أنهم كانوا يغنون في المعتقل أغنية من أغنياته بالإنجليزية!

هل وقَّع يحيى وفتاته المكسيكية على البيان، الموجه من أعضاء مؤتمر فيينا للسلام للسلطات الأمريكية، مطالبًا بالتصريح لروبسون بالسفر؟ أعتقد أنهما قد وضعا توقيعيْهما مثل الآخرين. أفتح أمامي مقال يحيى حول لقائه مع سارتر، وأعيد قراءته مرة أخرى في ضوء ما توفر لي من معلومات عن المؤتمر. إنها الأجواء نفسها، وأسماء المشاهير ذاتها التي يذكرها. يتحدث عن مؤتمر مجهول العنوان في «كونسرت هاوس»، ومؤتمر السلام انعقد في نفس المكان. انطباق التاريخ والمكان لا يتركان لي مجالًا للتشكك في حكايته عن فيينا.

قبل أن أنام، أبحث عن دييجو ريفيرا في محرك البحث. أعثر على مقتطفات من مذكراته، فيلتهمها فضولي المستعر. في إحدى الفقرات يقول إنه ذهب إلى فيينا في يناير ١٩٥٣ لحضور مؤتمر السلام، ويشير إلى اصطحابه ابنته معه. أدقق النظر، فأجد اسمها بين مزدوجين أمامي. اسمها رُوث، نعم رُوث. أنتفض صارخًا من نشوة الاكتشاف. إذن رُوث هي ابنة ريفيرا التي تزوج بها يحيى! لريفيرا ابنتان من زوجته الثانية لوب، وابن - توفيَ في طفولته المبكرة - من أنجلينا بلوف زوجته الأولى ذات الأصل الروسي، بالإضافة إلى ابنة غير شرعية من عشيقة روسية رفض الاعتراف بها. أقرأ بنهم شديد عسى أن أجد إشارة لزواج ابنته رُوث من مصري، فلا أجد!

ما الذي يجعله يتجاهل هذا الزواج في مذكراته؟!

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

يستوقفني أن يحيى وريفيرا يذكران شهر يناير من عام ١٩٥٣، بينما المؤتمر انعقد في ديسمبر ١٩٥٢. أنا متأكد من تاريخ الانعقاد، فالوثائق لا تكذب. تفاصيل الحدث تؤكد أنه تأخر عن الموعد المقترح له أسبوع، فكان افتتاحه يوم الثاني عشر من ديسمبر. لماذا يذكران شهريْ يناير وفبراير من العام الجديد؟ حضورهما المؤتمر مؤكد، هل لأنهما مكثا بعده في فيينا وأوروبا؟ ربما كان هذا السبب؛ وربما لأن تلك الفترة شهدت زواج يحيى ورُوث، وهو حدث بارز في ذاكرة كليْهما. إنها الذاكرة المخادعة، تنسى التفاصيل، ولا يعلق بها إلا الأحداث الشخصية اللصيقة. ولعلها أيضا الذاكرة التي تحاول نسيان الذكريات المؤلمة!

أغفو في مخدعي. أرى في الحلم رجلًا أسمر البشرة في الخمسين من عمره، يجلس في قاعة محدودة الحجم أمام محققين. رئيس المحققين يرتدي نظارة طبية، يتحدث وعلى وجهه علامات التقزز. يوجه أسئلته إلى الرجل الأسمر، لا ألتقط ما يقوله، أرى فقط فمه ينفتح وينغلق دون صوت. فجأة أسمع صوت الرجل الأسمر بوضوح، وأشاهد إشارات يديه القاطعة:

ـ أتمسك بالتعديل الخامس للدستور الأمريكي، وأرفض سؤالك عن هويتي السياسية.

هذه المرة أسمع صوت المحقق جيدًا:

ـ لماذا إذن رفضت توقيع إنكار عضويتك بالحزب الشيوعي؟

ـ هذا حقي، طبقا للتعديل الخامس. أن أكون شيوعيًّا، أو لا أكون مسألة هامشية، لكن القضية هي: هل من حق المواطنين الأمريكيين بغض النظر عن معتقداتهم السياسية وميولهم أن يتمتعوا بحقوقهم الدستورية؟

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ لماذا لم تبقَ في الاتحاد السوفيتي بعد زيارتك له، إذا كان نظامه السياسي والاجتماعي يحظى بإعجابك؟

ـ لأن والدي كان عبدًا هنا، ولأن قومي قد ماتوا في سبيل بناء الولايات المتحدة، فإنني أنتوي البقاء هنا، وأن أمتلك جزءًا منها مثلكم تمامًا. لن يستطيع أناس ذوو عقلية فاشية أن يطردوني من وطني.

أبصر نافذة في آخر القاعة، يتطلع من خلال زجاجها شخصان واقفان في الخارج. تقترب النافذة وتشغل مجال نظري بالكامل. أُفاجأ بوجه يحيى المعروف لي، ووجه فتاة بيضاء ذات شعر كستنائي. أسمع صوتي: «أهيَ البيضاء؟!». أراني أتقدم نحو النافذة، انحناءة ظهري تميزني. أطل أنا الآخر من النافذة، بعد أن أفتح مصراعيها. خلق كثير، ووجوه مختلفة، وقاعة كبيرة مزدانة بلافتات مكتوبة بلغة فرنسية. حمامة السلام تتصدر المشهد، على المنصة نفس الشخص الأسمر الذي أُجري التحقيق معه. لافتة فوق رأسه، مكتوب عليها (باريس ـ ١٩٤٩). يوجه إصبعه نحو صدره ويقول بصوته الرخيم:

«نحن، في أمريكا، لن ننسى أن ثروة الولايات المتحدة قد قامت على ظهور الملايين من العمال الأوروبيين البيض، وعلى ظهور الملايين من السُّود. لقد قررنا أن نتقاسمها معًا بالتساوي، إننا نرفض أي تحريض هستيري يدعونا لمحاربة أي أحد. إرادتنا من أجل السلام قوية، ولن نعلن الحرب على أي شخص. لن نحارب الاتحاد السوفيتي، وسنعارض هؤلاء الذين يريدون بناء ألمانيا الإمبريالية، والذين يرغبون في توطيد الفاشية في اليونان. سندعم السلام والصداقة بين كل الأمم، ومع روسيا السوفيتية، والجمهوريات الشعبية».

يجرفني تصفيق مدوٍّ من حولي، فأجد نفسي أصفق أيضًا بحماس

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

وسط الحضور. أنظر بجانبي، فأجد سامانثا تصفق أيضًا. أسألها مندهشًا بصوت عالٍ، حتى تسمعه وسط الضجيج:

ـ منذ متى، وأنت هنا؟!

ـ منذ أول أمس!

تجذبني من ذراعي لنخرج، وأجد نفسي جالسًا بجانبها في طائرة تحلق في السماء. التفت إليها، وأنا في حالة انقياد كامل إليها:

ـ إلى أين؟!

ـ سنسافر في الزمن إلى الأمام قليلًا، فقط بضع سنوات إلى الأمام. سنهبط في لندن.

يظهر فجأة أمامي بناء من ثلاثة طوابق، تحمل واجهة طابقه الأوسط أربعة أعمدة؛ اثنيْن أسطوانييْن مستديريْن، والآخريْن مربعيْن بأربعة أوجه. المبنى مواجه لمحطة سكة حديد، في شارع بناياته مصبوغة باللون الأحمر الداكن. زحام أمام باب المبنى، ورجال ونساء بمعاطفهم يوشكون على الدخول. أجد في يدي تذكرة حفل غنائي لبول روبسون، أندس بين الداخلين، وأدخل قاعة كبيرة. على باب القاعة كُتب بحروف ذهبية كبيرة «قاعة سانت بانكراس تاون هول». يجلسني رجل في المكان المخصص لي، وأتلفت حولي. أجد يحيى مبتسمًا بجانبي، ولا أستطيع أن أبصر سامانثا! أين ذهبت؟!

خشبة المسرح خالية، لا عازفون، ولا آلات موسيقية! أبدي استغرابي ليحيى، فيضحك قائلًا:

ـ لا تتعجل، سيغني روبسون لك اليوم!

ـ لقد بيعت ألف تذكرة خلال ساعة واحدة فقط!

ـ يظهر رجل في بذلة دكناء اللون على خشبة المسرح، ويعلن عن بدء الحفل مبديًا الشكر لكل من حضر، ولشركة تلفونات

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

عبر الأطلنطي التي ستنقل الحفل على الهواء مباشرة من الإستوديو بالولايات المتحدة إلى لندن مباشرة. أنتبه إلى وجود مكبرات صوت منتشرة في أنحاء القاعة، عند بدء عزف الموسيقى. يأتي صوت روبسون عميقًا بعمق البحر، أتعجب للمفارقة. منعوه من السفر، وضيقوا عليه عيشته، وصادروا جوازه، لكن كابلات التلغراف والتلفون الرابضة في قاع المحيط الأطلنطي تكفلت بنقل صوته إلى أوروبا. عجيب أمر التكنولوجيا والتقدم العلمي، هاهو فنان محاصر لقناعاته السياسية استطاع أن يقفز فوق الأسوار ليصل صوته إلى محبيه رغم أنف سلطات بلاده! أليست شبكة المعلومات العنكبوتية تقوم بنفس المهمة اليوم، وبشكل أكثر سرعة ويسرًا وشموليةً؟! تقدم العلم، وثورة الاتصالات أزالا الحدود بين الدول، وقلَّصَا نفوذ الحكومات.

انتشت روحي بغنائه، كان يحيى منتشيًا مثلي. سألته عن البيضاء التي كانت معه وراء النافذة، أنكر وجودها، وسألني بدوره:

ـ هل تقصد سانتي؟

ـ رُوث.

اعترت وجهه علامات الانزعاج أكثر من الدهشة. اختفت ابتسامته، وظهرت تكشيرة بين حاجبيه. أعطاني ظهره واختفى، وكأنه جنيٌّ من عالم الغيب.

خارج المبنى أجد سامانثا تنتظرني. أتجه إليها غاضبًا:

ـ لماذا تركتني؟ وإلى أين ذهبتِ؟

ـ كنت في مسرح البيكاديللي أشاهد مسرحية «عربة اسمها اللذة».

ـ لم يكن تصرفك معي مهذبًا. تأتين بي إلى هنا، ثم تتركينني تائهًا! هذا ليس عدلًا.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

ـ أعطيتك تذكرة لدخول حفل روبسون، وذهبت بدوري لأشاهد مسرحية تينيسي ويليامز. استمتعتَ بغناء روبسون الأمريكي، واستمتعتُ أنا بفن أمريكي آخر. أليس هذا عدلًا؟!

تعلقت برقبتي، وانقضت بشفتيها عليَّ. لم تثر قبلتها الطويلة حفيظة المارَّة. لم أشعر بفرق العمر بيننا، شعرت بأنني شاب مثلها، أغرق معها في محيط من نزق وحماسة وحب متهور. مشت إلى جواري، تحيط خصري بساعدها، بينما جذبتها من كتفها لتلتصق بي أكثر.

وكأن الأرض انشقت، ليظهر شُرطي بريطاني بزيه المميز وقبعته المرتفعة كخوذات رجال المطافئ. أوقفنا، وسأل:

ـ جواز السفر، إذا سمحت!

أخرجت جواز السفر، وأعطيته إياه. نظرت إلى سامانثا، فلم أجدها. تبخرت في الهواء.

ـ أين ختم المطار؟ وأين فيزا الدخول؟ أنت مخالف يا سيدي.

تلعثمت، وانتابني اضطراب مريع. لا أعرف بماذا أرد عليه. أطلقت ساقيَّ للريح، ركضت بكل ما فيَّ من قوة. كيف أتتني تلك العافية والجرأة؟! تسارعت ضربات قلبي، وكدت أسمع أصواتها من شدتها. صُفارات طويلة مميزة تنطلق بلا توقف. التفتُّ برأسي، فلم أجد شرطيًا واحدًا فقط يطاردني، بل عشرات رجال البوليس يركضون ورائي، وفي أيديهم عشرات الكلاب البوليسية تنبح في أثري. تتضاعف سرعتي، وأشعر كما لو أنني أعيش آخر لحظات حياتي. في الرمق الأخير، يشاهد الإنسان شريط حياته يمر أمام عينيه سريعًا في إيجاز شديد. أبصرت نفسي طفلًا في «شورت» يلهو في الشارع مع أقرانه، يلعب لعبة عسكر وحرامية. تغيرت ملامح وجه

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

الطفل، فصار شابًّا عفيًّا يقف أمام واجهات دور السينما في انتظار بدء العرض. يصير الشاب شيخًا يقف أمام طلابه، يطنب ويزيد في شرحه، بينما أغلبهم عنه معرضون. قدماي طائرتان على أسفلت الطريق، لا تكادان تتلامسان معه. أتلفت إلى جانبي، فأجد من يجري بجواري مبتسمًا لي، وغامزًا بعينه. تكاد تسقط على الأرض قبعته الدائرية السوداء من الاهتزاز، فيسندها بيده اليمنى. يمسك بيسراه عصا معقوفة، يديرها في أثناء ركضه. فردتا حذائه الكبير ذواتا المقدمة العريضة المنتفخة، تصنعان إيقاعًا خاصًّا ناتجًا عن صفعهما أرض الشارع. يتحرك شاربه المستطيل المميز، فلا يترك لي مجالًا للشك. أهتف:

- شارلي! شارلي!

يضحك شابلن، ويزيد من سرعته. يندفع بسرعة النفاثة، ويتركني خلفه. كأنني أرى نفسي في مشهد شهير من أفلامه. تقترب أصوات النباح من أذني، وأسمع دبيب ركض الجنود أقرب فأقرب. وفجأة أتعثر وأقع على وجهي، يبدو أن أحد المارة قد وضع قدمه في طريقي، وعرقلني بالفعل. أشعر بأيدٍ تجذب ثيابي، وبأنيابٍ تمزقها. أصرخ، أصرخ بعنف. أصحو مفزوعًا من نومي، نصف راقد في سريري. يسيل العرق غزيرًا من مسامي. أشعل الضوء، وأنظر إلى سقف الغرفة، غير مصدق وجودي بالبيت.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

(٧)

«واعتبرت ما حدث جولة. مجرد جولة في تلك المعركة الرهيبة الدائرة بيني وبين نفسي، وبيني وبين سانتي».

(البيضاء)

منذ أن تلقيت، على البريد الإلكتروني، طلب رئيس الجامعة مقابلتي في التاسعة صباحًا، وأنا لا أستطيع التفكير في يحيى ورُوث. حتى حلمي عن روبسون، الذي تحول إلى كابوس، لم يعد يشغل عقلي. ما الذي دفعه إلى استدعائي؟! بحُكم العمل، تقتصر صلاتي على عميد كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، وعميد الجامعة لشئون الدراسات. ما الخطب الجلل الذي حدث، حتى يلقاني الرجل الأول في الجامعة؟

يطل مكتب الرئيس، في المبنى الرئيس، على ميدان التحرير عبر شباك كبير - في الطابق الأول - تغطيه حِليات الأرابيسك الخشبية. تدخلني السكرتيرة إلى مكتبه، يقف لي مصافحًا. أبادره الحديث:

- خيرًا، يا سيادة الرئيس! أعرف أن وقتك مشغول للغاية.

يبتسم متحرجًا، وينظر إلى نقطة ما على سطح مكتبه:

- دكتور سامي، أنت أستاذ كبير في تخصصك، ورجل حصيف في نفس الوقت.

أنظر إليه متطلعًا لما سيقول، بعد تلك المقدمة غير المطمئنة.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

رجل أمريكي مهندم، حتى في حديثه. يرفع رأسه نحوي، لتواجه عيناه عينيَّ:

ـ لقد استبعدت أحد طلاب السنة الثانية، في قسم الإعلام والاتصال الجماهيري، من امتحان الأدب العربي الذي تدرسه!

نظر في ورقة أمامه، حتى يخفي حرجه.، ثم واصل حديثه:

ـ اسمه ـ على ما أعتقد ـ مصطفى الشاذلي!

نطق اسمه الثاني، وهو يضغط على كل حرف فيه. أجبت مبتسمًا:

ـ نسبة حضوره متدنية للغاية، ولا تسمح له بدخول الامتحان طبقًا للقواعد الأكاديمية. لقد تحدث معي عميد الكلية بهذا الشأن، وأبدى تفهمًا لموقفي.

ـ نعم، هذا صحيح. لكنك تعرف من هو والده، أليس كذلك؟!

ـ نعم، أعرف أنه من أعمدة نظام الحكم.

ـ ولذلك أرجو أن تعيد النظر في موقفك.

ـ ولكن سيادتك تعلم جيدًا أن اللوائح لا تسمح!

ابتسم هازًّا رأسه:

ـ «معلِش» (قالها ممطوطة) أول كلمة تعلمتها في القاهرة من لغتكم العامية. هذه سياسة يا دكتور سامي. مستشار الجامعة، للعلاقات بيننا وبين المؤسسات المصرية والحكومة، يطلب مني هذا الاستثناء.

ـ ولكن؟

ـ افعل ما تراه مناسبًا، أثق في اختيارك. أنا لن أجبرك على شيء.

مدَّ يده مصافحًا. خرجت من مكتبه، ووقفت أتأمل الميدان الكبير من نافذة جانبية في الممر نصف المعتم. زحام خانق، ومئات السيارات تتصارع للمرور قبل غيرها، وشمس عفية تغرق كل شبر

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

بأشعتها. ضجيج صاخب، لم يستطع زجاج النافذة المزدوج حجبه تمامًا، فنفذ وشيش المارَّة، ومعه أبواق السيارات. شهدت الميدان في السبعينيات، وساعة الزهور تتصدره. كان يحيطه سوار حديدي علوي، جسر قبيح دائري للمشاة تفضي إليه سلالم معدنية في كل ركن من أركانه. على ناصية محمد محمود، وقبالة سور الجامعة الأمريكية كان مقهى أسترا الشهير. أمامه، يتناثر ماسحو الأحذية جالسين القرفصاء أمام صناديقهم الخشبية، ويقف عشرات الأشخاص الذين ضربوا موعدًا لأصدقائهم ولا تسعفهم جيوبهم للانتظار داخل المقهى. ارتبط تاريخ البلاد بهذا الميدان الفسيح، مظاهرات الطلاب في السبعينيات، وجنازات الزعماء السياسيين وكبار الأدباء والفنانين. انتقلت سُرة العاصمة من ميدان العتبة الخضراء إليه في الربع الثاني من القرن العشرين. مبنى المجمع الضخم الذي افتتح قبيل الثورة بأشهر قليلة، ومبنى الجامعة العربية، وفندق هيلتون النيل الضخم كتلٌ معمارية ثقيلة، تجذب بقوة الميدان إلى الغرب نحو النهر. أتذكر قاعدة التمثال الجرانيتية الخالية منذ زمن ما قبل ثورة يوليو، وحتى البدء في إنشاء مترو الأنفاق. لم ينجح في أن يعلوها زعيم أو ملك أو رئيس. وقف على حوافها، وتسلقها فقط بعض الطلاب في مظاهرات السبعينيات، وحشود الاحتجاج على حرب الأمريكيين على العراق. في ركن من الميدان، يبدو مسجد عمر مكرم الذي أقيم توسعًا لجامع الشيخ العبيط. اندثر اسم العبيط، وبقيَ اسم عمر مكرم زعيم المصريين. يا للمفارقة، عمر مكرم الذي طواه النسيان والنفي، بعد أن مهد طريق الحكم لمحمد علي، يعود إلى قلب المحروسة بعد سقوط الملكية. يستعيد اعتباره، فلا يُعد المرء مُتوفيًا - في عُرف أولاد الناس - إلا إذا أقيم عزاؤه أو خرجت جنازته من

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

جامع عمر مكرم. تجذب أطراف الميدان هويات متنوعة، وأحداث التاريخ، وتبدلات الزمن. في أقصى الشمال الغربي يتخذ المتحف المصري القديم موقعًا فريدًا، يبدو مبتعدًا في تأفف عما يحدث في الميدان، ينظر إلى الحاضر باستعلاء وأسى، ويحمل في جوفه كنوز الحضارة البشرية والمعرفة. بعيدًا عن حضور الفراعنة، وهناك في جنوب الميدان يقع قصر جاناكليس ـ ذو المعمار الإسلامي ـ الذي أقف الآن في مبناه، والذي تحول إلى فابريقة دخان، وانتهى به الحال إلى مقر لجامعة أمريكية، بدأت نشاطها بالتبشير الديني وانتهت إلى التبشير السياسي.

ولكن أي تبشير، إذا كان المجتمع يفرض قيمه وقوانينه على المبشِّر؟ أفهم أن تنتشر الوساطة والمحسوبية في الجامعات المصرية، لكن أن يصل الفساد السياسي إلى الجامعة الأمريكية في مصر، لهو شيء مستحيل. أستعيد صوت عميد الجامعة، وهو ينطق «معلِش» بتؤدة ودلال. هل استطاع المصريون أن يروضوا الأمريكيين، أم أن العكس قد حدث؟! إذا رفضتُ دخول الباشا الصغير الامتحان، فقد لا تجدد إدارة الجامعة انتدابي. ألم أفهم تلميحات العميد الناعمة؟

أخرج من الجامعة إلى شارع محمد محمود. أدخل إلى مقهى عصري من سلسلة عالمية، احتل الطابق الثاني من بناية مقابلة. لم أكد أجلس حتى وجدت سامانثا واقفة أمامي.

ـ رأيتك تدخل البناية، فتبعتك. كيف الحال يا سامي؟

اقتحام سامانثا المفاجئ لجلستي، أنساني العميد والشاذلي والرئيس مبارك. حكيت لها عن يحيى واكتشافي لرُوث بنت ريفيرا. أخبرتها عن مؤتمر فيينا، وروبسون الذي أثار اهتمامي. كانت عيناها

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

تضيقان وتتسعان مع كل معلومة أقولها. بدا وجهها في غاية الإثارة والانتشاء، وهي تقول:

ـ ألم أقل لك من قبل؟! أشعر أن أمامنا بحثًا شائقًا عن يحيى وروايته.

ـ لكن عملك يتعلق بكل رواياته، وليس رواية «البيضاء» فقط.

ـ أعلمتني بذلك مسبقًا، لكن تلك الرواية تجذبني بشدة.

ـ كتب عنها نقاد وباحثون كثيرون، هل تعتقدين أنك ستضيفين شيئا؟

ـ نعم، أعتقد.

في اليوم التالي، وعقب انتهاء جلسة السيمنار، جاءت سامانثا إلى غرفة مكتبي. كانت ترتدي فستانًا كحليًّا تصل حافته إلى منتصف الساقين، ذكرني بموضة الخمسينيات من القرن الماضي. خلعت نظارة الشمس التي ارتدتها، كان إطارها ينتهي بجناح طائر صغير على الجانبين. طراز قديم من النظارات، أعتقد أنني شاهدته في أفلام منتصف القرن العشرين. جلست أمامي واضعة ساقًا على ساق، فظهرت كشابة أرستقراطية مهذبة.

ـ سامي، لن تصدقني إذا قلت إنني قضيت يومًا كاملًا، بلا نوم، أطارد شِلة روبسون، وأبحث عن زوجة يحيى المكسيكية!

ـ ولماذا لا أصدقك؟ لقد خضت التجربة من قبل.

ـ لم أكن أعرف أن تاريخ البلد، الذي أحمل جنسيته، مثقل بكل هذه الجراح. أفزعني اضطهاد كل رموز الثقافة العالمية الذين سمعت عنهم؛ شابلن، وبيكاسو، وآرثر ميللر، وإيليا كازان، وصاحبك روبسون.

ـ هل لم تسمعي أو تقرئي من قبل عن المكارثية؟!

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ لا.

تدفقت سامانثا في الحديث عن اكتشافاتها، كان انبهارها شديدًا بتمرد رموز الثقافة العالمية والأمريكية، وتعاطفهم مع معسكر السلام. أشاحت بيديها في عصبية، بينما كانت تسرد محاولات روبسون الفاشلة للخروج من الولايات المتحدة عبر الحدود الكندية. أثارها دفاعه المستمر عن «ستالين» وسياساته، رغم علمه بإعدام اثنين من أصدقائه الفنانين السوفييت على يديه. ظل روبسون حتى بعد وفاة ستالين يدافع عن دكتاتورية الزعيم أمام الجميع، ويرفض إدانته رغم إدانة الشيوعيين السوفييت أنفسهم لجرائمه. كانت سامانثا تحكي لي ـ في استغراب ـ كيف اعترف روبسون بنفسه لابنه بتزعزع إيمانه الداخلي بالستالينية، وتمسكه بالدفاع عنها كواجب أممي رغم ذلك! قررتُ أن أوقف استرسالها البعيد عن موضوع يحيى ورُوث، وأن أرجع قطارها المنفلت إلى القضبان:

ـ عزيزتي، مثلما رأيت بعينيك، كان ذلك عصرًا للمكارثية والستالينية. كلاهما يمثل وجهًا للواقع السياسي آنذاك. واقع بداية الحرب الباردة واندلاع صراع شرس بين القوتين الأعظم في العالم. لقد نبتت رواية «البيضاء» في هذه الظروف.

ـ لكنها تتحدث عن علاقة حب بين مصري وأجنبية تعيش في القاهرة؛ عن اثنيْن يناضلان ضد سلطة تصادر الصحف وتعتقل السياسيين.

ـ نعم، هي ظروف ما بعد الثورة، والنضال من أجل الجلاء. لا يمكن تناول أي عمل فني دون الرجوع إلى الزمن الذي كُتب فيه، وأيضًا إلى العصر الذي يعبر عنه. الزمن وحدة غير قابلة للانقسام جغرافيًا.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

ـ كيف؟!

ـ يحيى ورُوث، أو سانتي، كانا يعيشان فترة الاضطراب الكبير في بداية الخمسينيات. لقد هزَّ زلزال عنيف قواعد المجتمع المصري، وفي نفس الوقت اجتذبت أنظار العالم حركة سلام شابة، نازعتها حركة مضادة داعية للحرب على الشيوعية.

برَّقت عينا سامانثا، وهزت رأسها موافقةً. سألتني في نبرة تردد:

ـ هل يمكنني أن أطلب منك شيئًا؟ اليوم عيد ميلادي، ويسرني أن أدعوك لحضوره في المساء مع أصدقائي.

ـ كل سنة وأنتِ طيبة، ولكن ألا تريْن أنني سأكون عجوزًا بالنسبة إلى شلة أصدقائك؟!

ـ لا، أبدًا. سترى أنهم من الأعمار كافة. أرجوك يا سامي.

قبيل ميعاد الاحتفال، فكرت في هدية أقدمها لها. ما الذي يمكن أن أهديه لشابة مثلها؟ سوار من الفضة، أم قارورة عطر، أم تحفة تقليدية من العاديات التي يبيعونها للسائحين؟ خفت أن تكون هديتي مثارًا للتأويل من جانبها، خصوصًا أنها تفاجئني بتصرفات غريبة لا تليق بعلاقة طالبة بأستاذها. استقرَّ رأيي على أن أقدم لها كتابًا، هذا أليق بهدية أستاذ لطالبة. دخلت متجر الكتب الذي أعرفه جيدًا مذ كنت طالبًا. في البداية، فكرت أن أشتري كتابًا أدبيًّا باللغة العربية يتناول إبداع يحيى، لكنني سرعان ما استبعدت الفكرة. سيبدو الأمر سخيفًا، وكأنه تكليف مدرسي لها. استقرَّ رأيي أن أشتري كتابًا باللغة الإنجليزية، فاتجهت إلى القسم المختص باللغات الأجنبية. صُعِقت من المفاجأة التي تصدرت الرفوف، هل كان ذلك قدرًا مكتوبًا، أم ضربة حظ؟! كتاب من القطع الكبير ذو غلاف بألوان مذهلة، وُضِع بطريقة تجبر الزبائن على التوقف أمامه. كان العنوان واضحًا وبأحرف

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

كبيرة «RIVERA». لو ظللت أبحث مائة عام، ما وجدت مثل هذه الهدية المناسبة.

تصفحت الكتاب، فبهرني ثراء الألوان فيه. تبدو درجات اللون وكأنها انعكاس للطبيعة في المكسيك. الأخضر ليس كأي أخضر نعرفه. لوحة الغلاف تصور امرأة عارية تجثو على ركبتيها، معطية ظهرها للمشاهد. تفرد ذراعيها على آخرهما لتحتضن باقة ضخمة من زنابق عملاقة بيضاء موضوعة في سبت من الخوص. صورة ريفيرا ـ بالأبيض والأسود ـ في شبابه تحتل الغلاف الخلفي. القبعات والملابس البيضاء لرجال المكسيك تملأ اللوحات المتناثرة في الكتاب وسط تكوينات وأشكال بديعة للبيئة المحلية. جدارياته المثيرة للجدل السياسي، كانت أيضًا على الصفحات الداخلية.

وصلت إلى مطعم إستوريل بعد الموعد المحدد بربع ساعة. قدرت أن سامانثا قد تعودت على عادات المصريين، وأن أصدقاءها سيتأخرون كالعادة. لم أجد صعوبة في العثور على المطعم، وجدته في ممر واصل بين شارعين كما وصفته لي. استقبلتني فاردة ذراعيها، حضنتني بقوة، وقبلتني في وجنتيَّ وكأننا صديقان حميمان. عدانا، كان هناك ثلاثة رجال وامرأتان، جلسنا على جانبيْ طاولة مستطيلة. نظرتُ حولي، فوجدت ترتيب الطاولات والمقاعد قد جعل المطعم أقرب إلى عربة قطار. يستند الجالسون بظهورهم على مساند مشتركة تفصل ما بين طاولاتهم، ولكنها تسمح لآذانهم أن تلتقط أحاديث الجيران. ما أقرب المسافة بين فم المتحدث، وأذن السامع الذي أعطاه ظهره! يخترق ممر طويل المطعم من أوله إلى آخره. لم ينقص المشهد، سوى كمساري ليقوم بالخدمة بدلًا من النادل ذي البذلة والبابيون.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

انحشرت بينها وبين ضيف آخر على نفس الأريكة. أخذت هديتها شاكرة، دون أن تفض غلافها. عرفتني بالآخرين: صحفي شاب، ورجل بلا عمل، وشابتيْن تعملان في مراكز حقوق الإنسان، وامرأة متوسطة العمر تدعي أنها ممثلة مسرحية.

طوال جلستنا، كانت سامانثا تضغط بجانبها على جسدي. وضعت ذراعها على مسند المقعد وراء رأسي، ألصقت صدرها الكبير بذراعي، وفخذها بفخذي. حرارة جسدينا جعلت العرق يبلل ما اتحد من ثيابنا. لم يكن ـ قط ـ ضيق المكان سببًا، بل كان ذريعة لالتصاقها أكثر وأكثر بي. ضغطاتها المتكررة بجذعها، والتفاتاتها لتواجهني جعلت ذراعي تفترس مابين ثدييها. أنفاسها الحارة تهُب على وجهي متلاحقة. أشعر بحرج عميق، فأنظر في وجوه الآخرين لأرى ردود فعلهم على تحرشها الواضح، فلا أجد أثرًا. هل تتلاعب بي أمام أصدقائها، أم أنه دافع الرغبة؟ هل من المعقول ألا يلاحظوا تحرشها بي؟!

تكرر خروج سامانثا من جلستها بحجة الذهاب إلى «التواليت»، وفي كل مرة تكاد تجلس على فخذيَّ، تحتك مؤخرتها بي جيئة وذهابًا. أكواب البيرة الباردة لا تطفئ النار التي أشعلتها في جسدي المثخن بجراح الزمن. أشاركهم الحديث باقتضاب، بينما أفكر في المأزق الذي وضعت فيه نفسي. كانت حماقة مني أن أقبل مثل هذه الدعوة. أتحين الفرصة للانصراف، ولكنها لا تجيء. تبدلت الأغاني الغربية التي تنبعث من مكبرات صوت خفية، بينما تطغى على صوتها همهمات وأحاديث الجالسين. دقات بيانو هادئة، وموجات نغم ناعمة بدأت في مداعبة أسماعنا. يأتي صوت فيروز السبعيني، وكأنه من داخلي:

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

عندي ثقة فيك، عندي أمل فيك..

يخفت ضجيج الزبائن، كأنه اتفاق ضمني بالاستماع إلى خفقات قلب ينشُد الإصغاء الشديد. تنظر نحوي سامانثا بطرف عينيها، في تواطؤ مستتر. تنفرج شفتاها في همسة غير مسموعة، كلمة واحدة خمنت بِقِصرِها وضمة شفتيها، أنها «أُحِبك». أي ورطة تلك التي أوردت نفسك فيها، يا سامي! لم ينقذني من أفكاري المتلاحقة سوى تورتة جاء بها النادل إلى طاولتنا، وأغنية أعياد الميلاد التقليدية يرددها أصدقاؤها ونزلاء المطعم. «هابي بيرث داي تو يو»، «هابي بيرث داي تو سامانثا». أطفأتِ الشمعة الوحيدة، وطوقتني بذراعيها، اقتربت برأسها من رأسي. انزلقت قبلتها من وجنتي إلى شفتيَّ في ثانية. هل لاحظ أحد ما حدث؟ لا أعتقد، فالقبلة كانت في لمح البصر، سريعة وعميقة جدًّا في نفس الوقت. حانت الفرصة للانسحاب. غادرت، وتركتها لتكمل سهرتها مع أصدقائها.

ليل شتاء القاهرة فاتن، تشعر فيه بأنك تمتلكها بشوارعها وميادينها. يندر المارة، وتخلو شرايينها من المركبات. يسري فقط الحنين والألفة والهدوء. تُغرِق أعمدة الإنارة الشارع بإضاءة صفراء، تشتد في عرض الشارع وتخفت على الأرصفة. تلقي بنايات وسط البلد بظلالها على الأسفلت، غير آبهة برذاذ ضوء يصيب أدوارها السفلى. الوقت متأخر، تنبعث أضواء خافتة من نوافذ قليلة، بينما أعيش صخب أغنية فيروز داخلي. صخب لهمس حب مترع باللهفة والشوق والرغبة. هل التقط أصدقاؤها صورًا لقبلاتها وأحضانها لي؟ ما الذي يمكن أن أفعله كرد فعل على تحرشها الواضح بي، أمام الجميع؟ أفكر، كان واجبًا عليَّ أن أنهرها في وقتها، أعاتب نفسي وأدينها. لكنني أرجع، فأبرئها وأرأف بحالي. وكيف لي أن أفسد

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

فرحتها بعيد ميلادها؟! الغربيون يحتفون بأعياد ميلادهم، وكأنما يحتفلون بالحياة للمرة الأخيرة. لم أعرف الاحتفال بعيد ميلادي إلا في سنوات الشباب المتأخرة، عندما جئت من الريف إلى القاهرة، وخضعت لعادات أهلها.

يشغلني الآن سؤال، تترنح من السُّكر حروفه أمامي. كيف أتصرف معها بعد سهرة الليلة؟ لابُد من رد فعل عنيف وثائر؛ ليقطع الطريق على تحرشها العاطفي. أردعها كي تعود إلى مقعد الطالبة، وأرجع أنا إلى مكانة الأستاذ. الاحتفاظ بمسافة بيني وبينها، هو ما أصبو إليه. ولكن أليس من الأصوب تجاهل ما حدث الليلة، وأخذه مأخذ الهفوات التي يطلع النهار عليها فتصبح وكأنها لم تكن؟! إذا تطرق الحديث بيني وبينها عن سهرة الليلة، فسأقفز على ذكراها ولن أتوقف. من الآن وصاعدًا، سألتزم الحذر في علاقتي معها، الأمر جد خطير عندما تضع صفيحة البنزين بجوار عود ثقاب مشتعل. سامانثا ليست صفيحة بنزين، ولكن بئر بترول بأكمله يتلمظ منتظرًا الانفجار. أما أنا، فعود ثقاب أضناه الشوق للاشتعال!

أؤوب إلى فراشي. يجفوني النوم، ولا أستطيع مغادرة السرير. ضحكاتها تملأ سمعي، وقبلاتها تشعل ما تحت الرماد. هل كان غفوًا، أم حلم يقظة؟ رأيتني أعانقها، وأغمر جسدها بقبلاتي النهمة. نسيم بليل يداعب جسدي، وخدر لذيذ يغزو مسامي. رائحتها التي التصقت بأنفي، إثر عناق وداعها لي، تغزو أنفاسي. كأنها ترقد بجانبي، تلفنا ملاءة ناعمة واحدة. تداخلت سيقاننا، وتلاصقت أعضاؤنا. أصحو في الفجر، وأكتشف أن رائحة بارفانها تعبق أجواء الغرفة والشراشف. هل رقادها بجانبي، كان حلمًا، أم حقيقة، أم أن جنية عاشرتني في نومي؟!

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

أجد باب الشرفة مفتوحًا، أقوم لأغلقه. تبدو الرائحة كأقوى ما تكون بالقرب منه. أخرج إلى الشرفة، وأكتشف أن أصيصًا كبيرًا وجديدًا في شرفة الجار الملاصقة. في الغبشة أرى شجرة يافعة في الأصيص، أوراقها صغيرة مدببة، وزهورها لا تكاد تُرى بالعين المجردة. أضرب بكفي الأوراق فتنتشر الرائحة حولي. «مِسكُ الليل»، هكذا أجابني الجار فيما بعد. شجيرة يفوح عطرها الباريسي المترف الهادئ في عتمة الليل. سهرتي معها، كانت مِسك ليل فواح، لاتزال رائحته تحاصرني حتى اليوم.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

(٨)

«*كل ما كان يشغلني في تلك الأيام هو انجذابي التلقائي إليها وحرصي على القرب منها، والبقاء لأطول مدة معها وكأنها قطعة موسيقية أو أغنية أحبها وأفضل سماعها دون أن أتلمس لهذا التفضيل أسبابًا*».

(البيضاء)

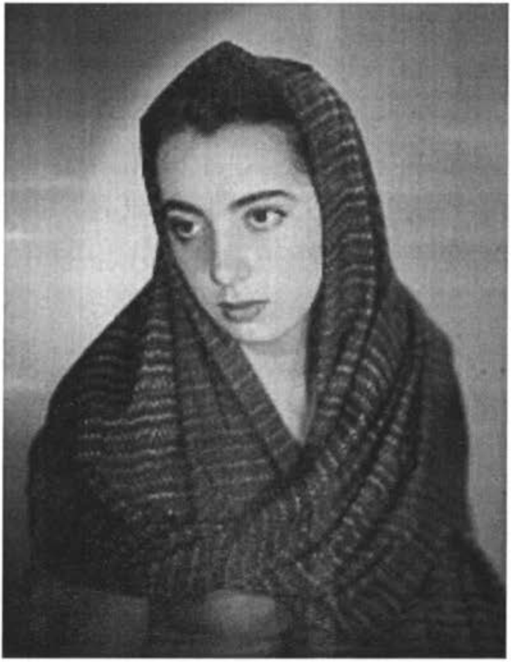

روث ريفيرا في شبابها

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

لا تنسى المرأة أبدًا اللحظة، التي تواتي فيها الشجاعة الرجل ليعرض عليها الزواج. هل كانت شجاعة، أم نزقًا، أم تهورًا؟! لم يستغرق الأمر من يحيى سوى أيام معدودات، كي يتقدم إليَّ بعرض الزواج. وياله من عرضٍ مفاجئٍ خاطف، اتخذ مكانًا وتوقيتًا لا يطرآن على بال أحد!

كنا نخرج معًا إلى المدينة فيما بين جلسات المؤتمر، أو بعد انتهائها في المساء. وانتهى بنا الأمر إلى الزوغان والذهاب من الصباح إلى مقاهي فيينا، بينما واصلنا التسكع في شوارعها المقفرة بعد التاسعة مساء، وداومنا على السهر في باراتها ليلًا. لم تمثل الحدود التي قسمت المدينة حاجزًا أمام جولاتنا العاطفية. كانت شوارع المدينة وميادينها مغطاة بالثلج، بينما برزت التماثيل الكبيرة المتناثرة في كل مكان كنتوءات ضخمة بيضاء بلا ملامح محددة.

لا أنسى الليلة التي لجأنا فيها إلى فناء منزل قديم متهدم في قلب المدينة. اجتاحنا الشوق، فلبينا نداءه. ورغم ملابسنا الشتوية الثقيلة، كنت أشعر بملمس يديه اللتين تسللتا تحت معطفي، لتحتضنا جسدي بقوة. أنفاسه تلفح وجهي، ورذاذ قبلاته ينعش وجهي. جسدانا في حاجة إلى ارتواء، وأصابع يحيى تداعب رقبتي، تندس تحت طيات ردائي الشتوي. كنا في حمى قبلة طويلة واحتضان حميم، حين فاجأنا ضوء قوي أحال الظلام إلى نهار. غشى أعيننا الضوء المبهر، فأغمضناها دون إرادة منا. لحظات قليلة، كانت كافية لتعتاد أعيننا على النور، ولنعرف مصدره. كانت سيارة جيب عسكرية قد دخلت إلى فناء المنزل، وسلطت مصابيحها الأمامية نحونا. قفز من المقعد الأمامي الذي بجوار السائق ضابط فرنسي، وسألنا بابتسامة ماكرة:

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

ـ ماذا تفعلان؟

لم يكن صعبًا أن نفهم سؤاله، لكن الخوف عقد لساننا. كان في المقعد الخلفي للسيارة ثلاثة ضباط؛ أحدهم يرتدي قبعة روسية من الفرو وبالطو رماديًا ثقيلًا؛ وثانيهم يبدو بزي عسكري أسود مميز لضباط مشاة البحرية الأمريكية؛ وثالثهم في زي عسكري الكاكي. خمنت أنه قد يكون بريطانيًا. العلامة الوحيدة التي جمعتهم، هي شارات البوليس الحربي الحمراء الملتفة حول سواعدهم اليسرى. كانت سيارة دورية دولية، من تلك الدوريات التي تجوب وسط المدينة المفتوح للجميع. يبدو أن الفرنسي كان رئيسًا للدورية، ففرنسا تشرف في هذا الشهر على قلب فيينا.

انتبهنا على صوت الأمريكي، يطلب منا وثائقنا الشخصية. أعطيناه جوازيْ السفر الخاصين بنا، فحملق فيهما تحت ضوء مصباح السيارة. وسأل بلكنته المميزة:

ـ لماذا أنتما في فيينا؟

ردَّ يحيى:

ـ نحن مشاركان في مؤتمر أنصار السلام.

ـ إذن، أنتما من الشيوعيين الذين غزوا المدينة.

ضحك الفرنسي، وغمز بعينه، ثم نظر إلى الروسي الذي مازال جالسًا في السيارة، وقال بإنجليزية متلعثمة:

ـ بل هما عاشقان يتبادلان الحب الأممي.

أثار لفظا «الأممية» و«الشيوعية»، المشتركان في كل لغات العالم، انتباه الضابط الروسي، فنزل مترجلًا من السيارة وتبعه الضابط الإنجليزي. اقترب الأخير منا، وسأل:

ـ هل لديكما ممنوعات؟

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

استأذن الإنجليزي القائد الفرنسي في تفتيشنا. أخرج ما في جيوبنا وبدأ بفحصه تحت ضوء مصابيح السيارة. نظر الروسي إلى بطاقة المؤتمر التي كانت في جيبي وأصبحت الآن في يد الإنجليزي، وقطب جبينه قائلًا عبارة غاضبة بالروسية لم نفهمها. تحدث الفرنسي بلغة ألمانية، وردَّ عليه الروسي بكلمات ألمانية متلعثمة. أخذ الفرنسي من الضابط الإنجليزي أوراقنا، وقدمها للروسي. أخذها الروسي، وقدمها إلينا، ثم رفع يده إلى رأسه ليحيينا، وهو يقول:

ـ زدراسفويت مير. يحيا السلام.

لم يكن صعبًا علينا فهم ما قاله، فطوال أيام المؤتمر كان مندوبو الاتحاد السوفيتي وبلدان الكتلة الاشتراكية يرددون هذا الهتاف. انصرف أعضاء الدورية ليصعدوا إلى الجيب، بينما كان الفرنسي يضحك مقهقهًا ويتوجه إلى زملائه مكررًا:

ـ إنه الحب! آه لامور!

دارت السيارة إلى الخلف، وابتعدت. أصبحنا مرة أخرى في الظلام، تثاقلت خطواتنا ونحن نخرج من الفناء. كسر يحيى الصمت بقوله:

ـ حب تحت الوصاية الدولية!

ـ ولماذا لا تقول إنه بحق حب أممي؛ طرفاه يعيشان في بلدين تفصلهما عشرات آلاف الأميال، وشهوده اليوم جيوش أربع دول كبرى؟

التمعت عينا يحيى، وهو ينظر إلى وجهي. أحسست أن خاطرًا ما قد استولى على تفكيره لبرهة. لمحنا سيارة الجيب العسكرية متوقفة على ناصية الشارع، وضباطها يفتشون ثلاثة أشخاص، معهم حقائب سفر. عندما مررنا بجانبهم، رأينا خراطيش سجائر وعلب أدوية في أيدي رجال الدورية، بينما ظهرت علامات الاضطراب على وجوه

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

الأشخاص المجهولين. التفت الفرنسي بجانب وجهه إلينا، وغمز مرة أخرى.

عندما تجاوزناهم بعدة أمتار تسمح لنا بالتحدث دون أن يسمعنا أحد منهم، تنهدت موجهة حديثي إليه:

ـ أحمد الرب؛ لأنهم لم يتصرفوا معنا بهذه الطريقة!

ـ وهل كنت تريدين ـ ياعزيزتي ـ أن يتعاملوا معنا كمهربين في السوق السوداء؟! لم يكن في حوزتنا سوى جوازيْ سفر وبطاقتيْ حضور المؤتمر ونقود قليلة!

ـ معنا يايحيى شيء أهم بكثير من كل ذلك، كانت بحوزتنا «العواطف» التي نهربها عبر الحدود التي تفصل فيننا كل يوم.

ضحك يحيى ضحكته الطفولية، ولثم بشفتيه الباردتين رقبتي التي دفأتها ياقة المعطف الثقيلة.

طوال الطريق إلى الفندق، كنت أفكر: ما الذي دفعني إلى حب هذا المصري الوسيم؟! هل هي المصادفة المحض، أم أن شيئًا في داخلي ينتظره منذ زمن طويل؟ هل كان وراء وقوعي في الحب ـ بهذه السُّرعة ـ سنوات طفولتي وشبابي التي عشتها في كنف والدي، أستمع فيها إلى قصص النضال وقيم الأممية والإنسانية؟! ولكنني قابلت قبل يحيى شبانًا كثيرين، ومن مختلف الجنسيات. ما الذي يجذبني إليه بكل هذه القوة؟ هل هي جرأته وتهوره في مطاردتي، أم تصرفات الرجل الشرقي الذي يدلل المرأة رغم مظهره الأوروبي؟ يا إلهي، كم أنا حائرة في هذا الحب الملتهب الغامض!

في صباح اليوم التالي، كان الجو صحوًا. درجة الحرارة تحت الصفر، ولكن بلا هطول للثلوج. الشوارع بيضاء يغطيها الجليد، ووالدي يصطحبني إلى المؤتمر. فور دخولنا المؤتمر، اقترب منا

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

يحيى معترضًا مسيرنا. ابتسم ابتسامة عريضة، ومدَّ ذراعه ليصافح والدي قائلًا:

ـ صباح الخير يا سينيور ريفيرا!

شلَّتني المفاجأة، لكنه استدار بوجهه ليصافحني ويقول لي أيضًا:

ـ صباح الخير يا رُوث!

اندهش بابا من الرجل الذي يصافح ابنته كصديقة قديمة، لكنه ردَّ عليه بتحية الصباح. انسحب يحيى من أمامنا، واتجه إلى زاوية أخرى من القاعة. لم يسألني بابا عنه؛ لأن العم نيرودا كان قد اقترب منا وتأبط ذراعه؛ ليأخذه إلى جماعة من الرفاق ينتظرونه بالقرب من منصة المؤتمر. تلفت حولي، فوجدت بيدرو جالسًا وبجواره مقعد خالٍ. جلست، فابتدرني:

ـ ما حكايتك مع هذا المصري اللحوح؟!

ـ لا شيء، مجرد صداقة وانجذاب للتعارف، ليس إلا.

فور انتهاء جلسة المؤتمر، التقيت مع يحيى في البهو. أخذني من يدي، كما لو كنت منومة مغناطيسيًّا، ومضى. خرجنا إلى الشارع، ودلفنا منه إلى شوارع أضيق، ثم إلى حارات وأزقة متعرجة. كنا نتكلم في كل شيء، وعن أي شيء. وجدنا نفسينا في شارع ضيق للغاية، ينثني كلما خطونا فيه. تعرجات متواصلة، وحوانيت متواضعة كثيرة على جانبيه. رائحة قلي السمك والبطاطس تفوح من أبوابها. أخبرني يحيى أنه جائع، فدخلنا أحدها. طلبنا بطاطس وسمكا مقليًّا وسجقًا. سألت يحيى، وهو يزدرد قطعة من السجق:

ـ لماذا فاجأتني بمصافحة والدي في الصباح؟

توقف عن المضغ، وظل فمه مفتوحًا للحظات. كأنها لقطة

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

سينمائية تمَّ إيقافها لبرهة. لكنه سرعان ما تجاوز سؤالي غير المتوقع، وواصل المضغ ببطء. نظر في عينيَّ، وأجاب برويَّة:

ـ أردت فقط أن أحييه، وأبلغه أنني صديقك!

لم أعقِّب على ماقاله. عندما خرجنا من الشارع الضيق إلى شارع رحب تصطف الأشجار على جانبيه، صفعت آذاننا جلجلة عربات الترام المترنحة على قضبانها. هتف يحيى راكضًا ليحثني على الجري معه للحاق بالترام.

سألته:

ـ إلى أين؟

ـ لا يهم، المهم أننا سنكون معًا!

ارتجاج عربة الترام القديمة، وازدحامها بالركاب في ساعة الذروة جعلانا نتشبث واقفين بالقضيب المعدني المدلى من السقف الخشبي. اقترب يحيى من وجهي، بينما كان يتطلع من النافذة، وهمس سائلًا:

ـ رُوث، هل تقبلين الزواج بي؟

اندفعت الدماء إلى وجهي، وأحسست بسخونة رهيبة جعلتني أتصبب عرقًا في جو الشتاء البارد. شعرت بأن عشرات الأعين ترقبني في العربة وتنتظر ردي على سؤاله. توقف الترام في إحدى المحطات، وتوقف معه قلبي. لا أعرف بِمَ إذًا أجيب، ولا أستطيع أن أحدس هل سننزل من العربة، أم سنواصل الرحلة على متنها. كان يحيى يثبت نظراته على وجهي، بل على شفتيَّ. ينتظر ردي على اقتراحه. تأملت نظراته التي بدت غارقة مابين الوله والرجاء. عندما بدأ الترام في التحرك مغلقًا أبوابه، همس يحيى ضاغطًا بيده على كفي:

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ هل تتزوجينني يا رُوث؟

أصابني دوار عنيف، وكدت أن أسقط لولا مسارعته لضمي إليه. همست في وهن شديد:

ـ نعم، يا يا حيا، نعم!

كيف التقطت أذناه كلماتي الخفيضة المتلعثمة؟! هل كان يقرأ حركات شفاهي فأدرك موافقتي؟ رفع صوته مبتهجًا، وكأننا وحدنا في العربة:

ـ كم أنا سعيد!

نظر إليه الركاب المتحفظون باستغراب، فأطرق برأسِه إلى أسفل، وهرب بنظراته إلى خارج النافذة؛ ليتفادى نظرات من حولنا. وبعد دقيقة واحدة انقضَّ بشفتيه على شفتيَّ في قبلة حامية قصيرة.

ما الذي جعلني أقبل عرضه بالزواج دون أخذ فرصة للتفكير؟ أهو سحر الشرق، أم قدرته الخارقة على الإغواء وسلب أي إرادة للتمهل من ناحيتي؟ الآن أدرك أن حاجة ماسة للحب بداخلي دفعتني إليه بأقصى سرعة. كنت مسرورة جدًّا بوجودي معه، وأحسست بسعادته لوجوده معي. عندما سألته:

ـ أين سنعيش يا يحيى، في المكسيك، أم في مصر؟

ـ لا يهم، المهم أن نكون معًا. وما المانع أن تجربي الحياة في القاهرة. ستعجبك كثيرًا الحياة في الشرق؛ حيث حكايات ألف ليلة وليلة. ها.. ها.. ها.

ضحكاته تشيع البهجة، ولكن ليست كأي بهجة. هي صاخبة كرقصات السامبا الساخنة.

عندما طلب مني مقابلة والدي على الفور لأخذ موافقته، استمهلته كي أمهد للأمر جيدًا. مفاتحة الضفدع الكبير «سابو-رانا» في زواجي

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ستكون بمثابة صاعقة مفزعة له. كيف سأخبره باعتزامي الحياة بعيدًا عنه، لقد انتظر بصبر شديد عودتي من روما، وبدئي التدريس بمكسيكو سيتي. لا أعرف ما هو وقع قراري بالزواج بيحيى على أمي وشقيقتي، كلاهما تعوَّد على ابتعادي. المكوث في روما عامين قد يساعد على تقبل ارتباطي بيحيى.

حاول «سابو-رانا» أن يثنيني عن فكرة الزواج، قال:

ـ ولماذا لا تمنحين نفسك الفرصة لاختبار عواطفك نحوه؟ لا أمانع أن يصطحبنا في رحلتنا إلى براغ، ستكون فرصة وبمثابة فترة خطبة قصيرة بينكما.

كنت مشتاقة لأن أرتبط به، وأن أنجب منه طفلًا. المرأة عندما تعشق رجلًا بكل قلبها، تتمنى أن تنجب منه طفلًا يشبهه. استطعت أن أنال موافقة والدي بمناورة:

ـ وما المانع أن تكون مصاحبتك إلى براغ بمثابة شهر عسل؟! ستطمئن علينا يا أبي.

في بهو الفندق التقيا. حضر يحيى متأنقًا، مصطحبًا معه رفيقين من الوفد المصري يكبرانه كثيرًا في العمر. أحضر معه باقة من الورود، وبدلًا من أن يهديها إليَّ، سلمها إلى سابو-رانا. نظر والدي إليَّ بطرف عينه كاتمًا ضحكته. بدأ الرجل الأكثر مهابة الحديث، سمعت يحيي يقدمه ويرفق اسمه بلقب «باشا»! بدا الأمر لي كوميديًا، فبدلًا من أن يتحدث إلى والدي، جاء بوسيطين ينوبان عنه في الحديث وهو صامت، تبدو على محياه أمارات الخجل، وكأنه عذراء بتول. ليس هو يحيى الذي أعرفه! كان والدي يسترق النظر إليَّ بطرف عينه، وهو يستمع إليهما. لم يكن أمام بابا بُدٌّ من أن يقطع استرسالهما في الحديث عن العريس المنتظر، ليتوجه مباشرة إلى يحيى قائلًا:

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ حسن، كما فهمت فإنك شيوعي، وطبيب، وأديب واعد. كل ذلك جميل، لكن الذي يهمني هو هل تحب ابنتي حقًّا؟!

ـ بالتأكيد، أعشقها بكل كياني.

تهدج صوته، ولمعت عيناه. كان هو يحيى الذي أعرفه. انفرجت أسارير دييجو، وسأله:

ـ إذا كنت تحبها، فما المانع أن تأتي معها إلى المكسيك لتعيشا هناك؟! سأتكفل بكما.

ـ لو اضطررنا لذلك، فلا مانع على الإطلاق. لكن القاهرة مدينة جميلة، ومصر بلد عريق ستسعد رُوث بالمعيشة فيه. قد يكون الطب مهنتي، وقد أكون يساريًّا. لا تمنعني المهنة والمعتقد أن أعيش في أي مكان، لكن الأدب والكتابة لا يتحققان إلا في مصر.

يهز والدي رأسه متفهمًا، وينظر نحوي. أومئ برأسي إيماءة خفيفة. يسأله والدي مرة أخرى، وهو يضحك:

ـ هل أنت ميسور الحال؟! أقصد هل ستستطيعان الحياة دون ضائقة مادية؟

يجيب يحيى باستفاضة، ويعدِّد ما يتقاضاه من رواتب ومكافآت من جهات عديدة، بينما يبدو والدي غير مهتم بما يقول. يوافق على زواجنا، فتنفرج أسارير يحيى ومرافقيه. يصافح والدي مغتبطًا، فيخرج مرافقه الآخر منديلًا أبيض من جيبه، ويهم بإلقائه على يديهما المتصافحتين. ينتزع يحيى المنديل، وهو يضحك:

ـ لا تؤاخذنا أيها الفنان العظيم، فصديقي يحب المزاح.

يشرح الباشا الموقف لوالدي، قائلًا إنها عادة مصرية يقوم فيها العريس بمصافحة والد العروس تحت منديل أبيض، وهما يقرآن آية

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

من كتاب المسلمين المقدس. وكأنها توكيد للموافقة على الزواج. يضحك سابو-رانا مندهشًا، ويقرر:

ـ سيتزوجان زواجًا مدنيًا، بلا أي نصوص مقدسة. جمعهما الحب والسلام، أجمل ما في الحياة.

قبل انصرافهم، يوجه أبي حديثه إليَّ:

ـ لابد من إرسال برقية إلى والدتك لتخبريها بزواجك. على الأقل بلغيها بالنبأ!

أذهب مع يحيى إلى مكتب التلغراف المركزي في وسط فيينا، فلقد عرفنا أن أي برقية يتم إرسالها من المناطق الأخرى لابدَّ لها أن تصل إلى المكتب المركزي، وأن ذلك وحده يستغرق خمسة أيام. أرسل برقية مطولة إلى المكسيك، ويرسل يحيى برقية لأصدقائه في القاهرة يخبرهم بزواجنا وضرورة إعداد مسكنه لاستقبالنا.

عندما رجعت، كان سابو-رانا يجلس مع أراجون وزوجته إلزا. هنأني الاثنان بالزواج، وأخبرني بابا أنه بعد اصطحابه لنا في رحلة براغ، سيعطينا ما نحتاجه لنفقات شهر العسل في ألمانيا الديمقراطية والمجر. قبلته على وجنتيه، وطرت من السعادة إلى الغرفة. ارتميت على سريري بكامل ملابسي، فردت ذراعيَّ بأقصى ما أستطيع بجانبي، نظرت إلى السقف، فلم أجده. وجدت سماء زرقاء صافية بلا سحب، وشمسًا حنونًا ساطعة. سمعت صوت يحيى يهمس:

ـ أحبك، مرحبا بك في القاهرة.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

(٩)

«وسانتي في يقيني كانت لا يمكن أن تكون مجرد فتاة أو امرأة عادية، كانت تقترب في نظري من ظاهرة شاذة، كائن خارق فوق العادة، كائن أحس ناحيته بأحاسيس لم أحسها قبلًا تجاه أي أنثى أو تجاه أي إنسان آخر».

(البيضاء)

بوستر نحن نحمي الدستور، حسن فؤاد، سبتمبر ١٩٥٢

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

لو أن للسعادة عنوانًا، لكنت أنا. منذ أن قابلت رُوث، وقررت الارتباط بها، وأنا أشعر بسعادة لامتناهية. بحرٌ من سُرور وتوفيق غرقت فيه بكامل ثيابي! موجات من البهجة تجسدت في لقائي مع أبيها ـ الفنان الكبير ـ الذي لم يُبْدِ ممانعة في زواجنا، ثم في اقتراحه بمصاحبتنا له في رحلته إلى براغ، ثم في قضاء أسبوعيْ عسل في ألمانيا والمجر. آه لو كان للسعادة وجه، لقلت إنه وجه رُوث، وهي تضحك قائلة:

ـ يا.. هيا، كم أنا سعيدة معك!

ذهبت مع زملائي إلى فيينا بالطائرة، ورجعت مع رُوث على ظهر باخرة أبحرت من مارسيليا، اسمها محمد علي. طوال أيام الرحلة لم أحس أن مخزون سعادتي قد نقص قيراطًا واحدًا، بل كان يزيد باستمرار. رُكاب سفينة شركة بواخر البوستة الخديوية متنوعون، أغنياء وفقراء، مصريون ومتمصرون وأجانب، باشوات وبهوات ومبعوثون عادوا بالشهادة الكبيرة من برة، خدم وسائقون وطهاة يعملون لدى باشوات وأمراء من الأسرة الملكية يقضون إجازات شتوية للتزحلق على الجليد في أوروبا، راقصات في فرق باليه ورقص أجنبي قادمات للعمل في القاهرة. ورغم انشغالي بمراقبة كل هؤلاء في أول تجربة سفر لي خارج أُم الدنيا، فإن كفي كان يحتوي ـ ليل نهار ـ يد رُوث وأصابعها الرفيعة الدقيقة. أضع ذراعي حول كتفها وننظر عبر السياج المحيط بسطح المركب إلى الأفق، كم كنا ساذجيْن وبريئيْن نحسب أن السعادة فقط أمامنا!

ولكن هل توجد سعادة كاملة؟ سعادتي بالارتباط برُوث لا حدَّ لها، لكن أخبار مصر البعيدة توقظ هواجسي وشكوكي حول استمرار حالة الانتعاش التي أمر بها.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

في أثناء رحلتنا إلى شرق أوروبا، علمت بأنباء اعتقالات للسياسيين في مصر. لم أعرف تحديدًا أسماءهم. وسرعان ما سمعت من راديو لندن أنه صدر قرار بحل الأحزاب السياسية، ومصادرة جميع أموالها، والإعلان عن فترة انتقالية لثلاث سنوات قبل إقامة حكم ديمقراطي سليم. أعقب راديو لندن الخبر بمقتطف بصوت محمد نجيب، أذيع بعد منتصف الليل من إذاعة القاهرة، يقول فيه: «ومنذ اليوم لن أسمح بأي عبث أو إضرار بمصالح الوطن وسأضرب بمنتهى الشدة على كل من يقف في طريق أهدافنا التي صنعتها آلامكم الطويلة».

قبيل سفري إلى فيينا بأيام، أصدر نجيب بيانًا آخر في الساعة الواحدة صباحًا، ينهيه بصوت مبتهج حازم: «وهأنذا أعلن باسم الشعب سقوط الدستور، دستور ١٩٢٣». يلح على ذهني خاطر ساخر أسود، لا أستطيع الفكاك منه. يبدو أن نجيب، والضباط ـ من حوله ـ يختارون دائمًا الساعات الأولى بعد منتصف الليل لإصدار قراراتهم، حين يكون المصريون نيامًا، فتأخذهم على حين غِرة. أشعر بأن موقف تنظيمنا وأنصار السلام من حركة ٢٣ يوليو كان خاطئًا. هاهي الدكتاتورية العسكرية تكشف عن وجهها شيئًا فشيئًا.

كيف لم ألحظ أن حركة الجيش قد بدأت تأكل حلفاءها قبل أعدائها؟! تذكرت وجه دييجو والد رُوث، وهو يسألني في بهو الفندق الذي نزلنا به في براغ:

ـ هل أنت متأكد أنكم غير متجهين إلى الدكتاتورية؟!

ـ لست متأكدًا من أي شيء. مجلس قيادة الحركة يعطي إشارات سياسية متباينة ومتناقضة.

ـ كيف؟

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ يقمع إضرابًا للعمال ويعدم اثنين منهم، وفي نفس الوقت يصدر قانونًا لتوزيع الأرض على الفلاحين المعدمين. يعِد بانتخابات نيابية في الشهر المقبل، ويسقط الدستور قبل موعد الانتخابات بشهرين!

ـ ولكن أنصار السلام المصريين وقفوا ضد أن نأخذ موقفًا من الانقلاب! أنا قلِق على رُوث، الأوضاع لديكم غير مطمئنة على الإطلاق.

ـ بابا لا تقلق، رُوث في أمان معي.

تشد روث بيدها على ذراعي، وتقول بحماس:

ـ اطمئن، أنا أثق به. الوضع ليس خطيرًا كما تتصور. يحيى نفسه، وزملاؤه الصحفيون اليساريون يعملون في مجلة تنطق باسم ضباط الجيش.

تفاجئني رُوث بتذكرها، ما قلته لها بخصوص مشاركتي بالكتابة في مجلة التحرير. يبدو دييجو غير مقتنعٍ بما قالته، ويقول:

ـ ألم تقرأ تقرير سكرتير الحزب الشيوعي البريطاني بالم دات الذي يدين حركة الجيش بعد إعدام العمال في مصر؟ حركة تعادي العمال، هي حركة رجعية بلا شك.

ـ لكن تنظيمنا، وشقيقه التنظيم الشيوعي في السودان، قد ردًّا عليه.

ـ أعلم ذلك، بل قرأت أن تولياتي زعيم الشيوعيين الإيطاليين أيدهما قائلًا: علينا أن نضع في اعتبارنا ونحن ندرس حركة الجنرال نجيب، رأي قادة السلام في مصر.

توقف دييجو عن الحديث، ونظر ناحيتي وناحية رُوث. رفع

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

حاجبيه، واهتز بجسده الضخم على كرسيه، وهو يرفع سبابته محذرًا:

ـ حركة السلام في مصر وضعت نفسها في مأزق، عندما أيدت انقلابًا عسكريًّا، وعندما اختطفت ابنتي رهينة للحب لديها!

ضحكت ضحكة هستيرية، محاولًا الهروب من الفخ الذي نصبه دييجو. لاحظت أن رُوث لم تشاركني الضحك، واكتفت بابتسامة واهنة.

واصل دييجو حديثه:

ـ اسمعني يا صديقي الصغير، لو أحسست بالخطر، فلا تتردد. تعالَ ومعك رُوث إلى بيتي في المكسيك.

ـ شكرا، سيكون اقتراحك دائمًا أمامي.

في ساعة مبكرة من صباح أحد الأيام، سرى همس على سطح السفينة بين ركاب الدرجة الثالثة، وسرعان ما انتقل الهمس إلى القمرات والكبائن والغرف. تحول الهمس إلى همهمة، ثم إلى كلمات واضحة. سرى الخبر من الطبقات الأعلى إلى الأدنى:

ـ ظهر شاطئ الإسكندرية!

تدافع الركاب إلى السطح، واندفعت مع رُوث إلى السياج الذي يفصل سطح السفينة عن البحر. اتجهت الأنظار إلى خط أبيض رفيع لا يمكن تبينه بين فضاءيْن زرقاويْن: بحر وسماء. حبسنا أنفاسنا مع الركاب، ولفنا الصمت والترقُّب. عيوننا معلقة بخط نحسبه لقاءً بين ماء ويابسة. صمتٌ لم يقطعه سوى صيحات طيور النورس المحلقة فوقنا، والتي تنقض على صفحة الماء لتلتقط أرزاقها. ازداد بالتدريج خط الأفق سُمكًا، وكأن حسناء تمسد حاجبها بقلم من كحل. ظهرت قمم عمارات الإسكندرية البيضاء. وفي لحظة واحدة اختفى الصمت

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

بلمسة عصًا سحرية، وانطلق الجميع في صيحات هستيرية بكل اللغات: العربية واليونانية والإيطالية والفرنسية والإنجليزية ولغات لم أتبين جنسيتها. حتى رُوث قبلتني، وتعلقت برقبتي وهي تقول:

ـ إيستا إيخيبتو! إيستا أليخاندريا!

ووجدت نفسي أتمتم، ثم أصرخ:

ـ أُم الدنيا!

وسط الصياح والجلبة، كانت أذني تلتقط نغمات مبهمة. صوت لحن منخفض النبرة، خليط من بهجة وحذر غامض. لم أتبين كنه اللحن، ولا الكلمات التي ظللت متشككًا في وجودها.

فضلنا أن نقضي يومين في الإسكندرية، قبل ذهابنا إلى القاهرة. من نافذة غرفتنا في الطابق الثاني والأخير بفندق دوفيل، يبدو منظر البحر ساحرًا رغم برودة شهر فبراير. شاطئ ستانلي بصخوره، بطوابقه الثلاثة ذات الكبائن المتجاورة الأليفة، يحتضن الخليج ذا الأمواج الهائجة بفعل نوة فاجأتنا. أحتضن رُوث من الخلف، وأقبلها خلف أذنها. ألتصق بها، فتضغط بجسدها تجاهي. ينهمر المطر غزيرًا، فيغسل زجاج النافذة، ومعه روحانا. تنساب مياهه على السطح الخارجى للزجاج، فيغيب منظر الكورنيش عن ناظرينا. لا نستطيع تبين التفاصيل عبر النافذة، يظهر فقط مبنى مطعم سان جيوفاني ككتلة صماء بلا ملامح. يسيل ماء المطر سيلًا على النافذة، وكأنه نهير يجد مجراه. مرة أخرى ينساب اللحن الغامض في روحي، ومعه أحس بسعادة خفية. نرتمي معًا على الفراش، ونسبح معًا في جسد واحد، وروح واحدة.

إذا لم تكن تلك هي السعادة، فماذا تكون؟!

نخرج تحت المطر المتواصل إلى شارع الكورنيش. أستوقف

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

سيارة تاكسي، ونذهب إلى مطعم درويش. نحاسب سائق التاكسي، ونهرول نحو الباب، رافعين ياقتي معطفيْنا. نطلب سمكًا مشويًّا، وحساءً بحريًّا. يلمع أسفلت الكورنيش تحت رذاذ المطر. يدور بائع الصحف بين الموائد التي تزينها ورود حمراء. أضع وردة حمراء خلف أذن رُوث. أشتري جريدة المصري، وأضعها جانبًا دون تصفح حتى لا أفسد لحظة الصفاء التي تجمعني بها. نتناول طعامنا بشهية ملحوظة، بينما يستأنف إيقاع الموسيقى إغوائي في إلحاح.

شعور بالحبور يمتزج بتردد وتساؤلات غامضة عن معنى السعادة!

في طريق عودتنا إلى الفندق، استرقت النظر إلى عناوين الجريدة. فوجدتها تدور حول الإعلان الدستوري المؤقت الجديد، وهيئة التحرير التي اتخذت من مبنى الحرس الملكي بعابدين مقرًّا لها. لفت انتباهي خبر زيارة نجيب وعبد الناصر والبغدادي والسادات لقبر حسن البنا. حلت الحكومة الأحزاب، وأبقت جماعة الإخوان قائمة بحجة أنها جماعة دينية، رغم أن مرشدها الهضيبي يصرح بأنها جماعة سياسية ودينية في آن واحد.

كان لابدَّ لي من الاتصال بأحمد أبو الفتح رئيس تحرير المصري. بحثت في جيوبي عن مفكرة التلفونات التي لا تفارقني، فاكتشفت أنني تركتها في القاهرة قبل سفري إلى فيينا. عصرت ذاكرتي، وطلبت ورقة بيضاء من موظف استقبال الفندق، وكتبت ببطء ٢٤٩٩٤ مصر. انتظرت المكالمة في غرفتي، بينما كانت روث تأخذ دشًّا ساخنًا. دقَّ جرس التلفون، فرفعت السماعة إلى أذني وأنا مرتاب في صحة الرقم الذي طلبته.

مكتبة أحمد

جاءني صوته من بعيد:

ـ ألو..

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ مساء الخير يا أستاذ أحمد، أنا يحيى طه!
ـ أين اختفيت يا يحيى؟! خشينا أن تكون معتقلًا.
ـ أنا في الإسكندرية، سأصل القاهرة غدًا.
ـ مُرّ على المصري، نحن في انتظارك. لديَّ خبر حسن، لقد أفرجوا عن زعيمكم يوسف حلمي منذ يومين!

وبقدر ما صدمني خبر اعتقال حلمي، كانت فرحتي أكبر بنبأ خروجه إلى الحرية. ها هو اللحن المبهم يعود ليدندن داخلي. كم أنا سعيد لأن زميلنا الكبير حلمي طليق!

خرجت روث مرتدية بُرنُسًا أبيض. شعرها مبتل تسيل قطرات الماء منه على وجنتيها، وبشرتها حمراء متوردة بفعل البخار الساخن. قمت من مكاني واحتويتها بذراعيَّ، احتضنتها بقوة وحنان.

تقافزت نغمات السعادة مرة أخرى وتعالت داخلي، وكأنها اهتزازات راقصة.

في أيامنا الأولى بالقاهرة، كان كل اهتمامي منصبًّا على معرفة ردود فعل رُوث. انطباعاتها الأولى، ومايثير اندهاشها، وما يسبب انزعاجها. أرى مصر بعينيها، قبل أن أراها بعينيَّ. قمت بتقديمها لأصدقائي المقربين، ولأخي. لم نذهب إلى قريتي، ولعلي خشيت من رد فعل أمي على هذه الزيجة المتمردة. وعندما سألتني رُوث:

ـ لماذا لا نزور عائلتك في القرية؟

قلت لها:

ـ لا تتعجلي، ستأتي الفرصة. نحتاج أولًا أن تتعرفي على القاهرة.

أخذتها معي إلى كل الأماكن التي أحبها في المدينة، تسكعنا في

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

شوارع القاهرة الخديوية وميادينها، جلسنا في مقاهيها ذات الطابع الأوروبي. أثار فضولها مظهر الجرسونات السُّمر في قفاطينهم البيضاء النظيفة، وطرابيشهم وأحزمتهم الحمراء القانية، وبابتساماتهم ناصعة البياض.

سألتني:

ـ من أين جاءوا؟!

ـ من النوبة والسودان وكينيا، وهم أكثر العاملين في المحلات العامة كياسة في المعاملة.

ـ وما الذي جاء بهم؟

ـ تمددت الدولة المصرية إبان أسرة محمد علي، لتضم لها تلك البلدان وغيرها. وهكذا جاء أبناء تلك المناطق قسرًا، أو طوعًا للبحث عن الرزق.

لاحظت رُوث ابتسامة النادل الذي انحنى انحناءة ملحوظة، وهو يسألنا عن طلباتنا، وقالت بلا تردد:

ـ هل كانت لديكم عبودية يا يحيى؟!

ـ كانت هناك في زمن ما، ولكنها انتهت منذ مائة عام.

هزت رأسها في أسى مرددة:

ـ وراء هذا الجمال والأناقة والابتسام، تاريخ من بؤس ومعاناة واستغلال!

لم أشأ أن أعلق على جملتها الأخيرة، فبعض الحق معها. قررت أن أريها صورة والدي عندما نرجع إلى البيت. والدي الأسمر ذي الأصل السوداني، والذي تزوج فلاحة بيضاء من أصل تركي. كثير من المصريين جاءوا من أصول إفريقية، وكثير منهم وُلِدوا في السودان. انكسرت لدى المصريين، بقدر ما، عقدة اللون والأصل. أخبار بدء

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

المفاوضات حول مصير السودان تملأ الصحف، ويبدو المستقبل ضبابيًّا وغير محسوم لأبناء وادى النيل.

كان يجب أن أنهي جولاتنا النهارية في القاهرة بعد أسبوع من وصولنا. استأنفت عملي الطبي في عيادة الورش، وعدت إلى الكتابة في صحيفة المصري ومجلة التحرير. وبدأت أعي بالتدريج أن القاهرة التي تركتها منذ أسابيع، قد تغيرت أجواؤها تمامًا. لقد شملت الاعتقالات زملاءنا في التنظيم، حتى يوسف حلمي لم ينجُ من الاعتقال. بدأ الضباط يتصارعون فيما بينهم، وتمت مصادرة العديد من الصحف، ومن بينها ذات الطابع اليساري. أغلقوا صحيفة الكاتب لسان حال حركة أنصار السلام المصرية، وأودعوا الصاغ أحمد حمروش أول رئيس لمجلة التحرير في السجن!

رحلت من مصر وبها أحزاب ودستور، ورجعت إليها لأجدها بلا دستور وبلا أحزاب وبلا سياسيين. فقط، تم استثناء جماعة الإخوان من الحل. وظهرت هيئة سياسية ضمَّت المنتفعين والانتهازيين ومسلوبي الوعى تحت لافتة «التحرير».

أصبحت تنبؤات دييجو، التي كنت أحاول دحضها، واقعًا ملموسًا.

أتذكر وجه صديقي فؤاد، وهو جالس على المقهى بشارع الموارادي يرتشف قهوته السادة، ويتحسر على الملصق الذي رسمه وصممه. كان صاحب المقهى قد تكاسل في إزالته من على الجدار المجاور فبقيَ كخيال مآتة أو حلم ضائع.

نظرت مليًّا إلى الملصق، وجه ضابط شاب يعلوه كاب بشارة هلال وثلاث نجوم. الضابط ينظر بثقة إلى الأفق، ومن ورائه قبة

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

البرلمان وطريق مؤدي إليها. أعلى الصورة تبدو جملة «نحن نحمي الدستور» دققت النظر، فوجدت سطورًا من كلمة للواء محمد نجيب تعد بالدستور والديمراطية.

جاء صوت أحمد فؤاد جريحًا:

ـ تصور يا يحيى، مزقوه وأزالوه من على الجدران! الملصق الذي طبعته إدارة الشئون العامة في الجيش!

ابتسم أحمد شوقي، وتحرك بجذعه إلى الأمام، وكأنه يفشي سرًّا:

ـ حظك سعيد. زواجك من المكسيكية، وتأخرك في الوصول أنقذاك من الاعتقال.

ـ كيف؟!

ـ ألم ترَ كيف أغلقوا مقر لجنة أنصار السلام، واعتقلوا يوسف حلمي فور وصوله من فيينا. حتى الشرقاوي ضبطوه وصادروا الكتب التي كان يحملها معه وهو قادم!

لم تفتني نظرة الحزن التي سيطرت على فؤاد. تهدل شاربه الأسود على شفتيه في استكانة. تساءلت:

ـ ما بِك؟!

نظر مليًّا إلى العابرين في الشارع أمامنا، وأجاب:

ـ حمروش مازال في السجن.

ـ لكنهم أفرجوا عن حلمي! هذا معناه، أن خروجه إلى الحرية قريب جدًّا.

ـ وحتى إذا خرج، فإن الأوضاع تنبئ باعتقال أصحاب الآراء الحرة من جديد.

على بعد أمتار قليلة منا كبابجي أبو شقرة، الذي احتفلنا في

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

محله جميعًا بصدور العدد الأول من التحرير. أتذكر ضحكات حمروش وتباهيه بأن توزيع العدد وصل إلى أكثر من مائة وثلاثين ألف نسخة. وعلى بعد ليس أكثر من مئات قليلة من الأمتار تقع حديقة جريدة المصري، التي جلسنا فيها مع حمروش وأبي الفتح والصاوي والشرقاوي وزهدي وأبو العينين وسعد التائه لنناقش إصدار المجلة! أشعر أحيانًا بأن مصير البلد، ومصيري، قد ارتبطا بهذا الحي.

شارع قصر العيني يحتضن مجلس الوزراء والبرلمان معًا دون فصل بين السُّلطات. تتجاور فيه - في وئام - روزاليوسف والمصري وبيوت أغلب شلتنا. في كل شبر فيه تفوح ذكريات الدراسة في قصر العيني. تنطبع في ذاكرتي مشاهد المظاهرات والشغب والمصادمات مع البوليس على أسفلته. حي عجيب تلتقي في أوصاله مصر، بكل مافيها من حيوية وتناقض وتنافر.

ولعل أعجوبته، هي تلك الحجرة التي زرتها مرارًا في إدارة الشئون القانونية لوزارة المعارف. كنت أدلف إلى شارع أمين سامي من ناحية شارع قصر العيني، لأدخل ثاني بناية فيه من الجهة اليسرى. أصعد إلى الطابق الثاني، أدلف إلى حجرة صغيرة تتراص فيها مكاتب أصدقائي الشرقاوي وبهاء الدين وفتحي غانم. وفي ضلعها المواجه للباب يجلس مديرهم الشوباشي الذي يكبرهم بسنوات كثيرة. حجرة يملؤها ضجيج المناقشات الأدبية والفكرية والسياسية أكثر مما يشغلها من مجادلات قانونية!

أتذكر حيرتي - كطالب مستجد - وأنا أصعد إلى الشقة التي كان يسكن فيها زعيم طلبة كلية الطب فؤاد محيي الدين فوق مكتب بريد قصر العينى؛ لأحضر اجتماعًا للتحضير لمظاهرات ٩ فبراير ١٩٤٦. هذا المقهى الذي أجلس عليه الآن، كنت أهرب إليه من الدراسة

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

أيامًا بطولها؛ لألعب الدومينو والورق مع عمال وحرفيين. أحاورهم وألتقط تعبيراتهم ولهجتهم؛ عسى أن أظفر بقصة صادقة عنهم.

أفقت من شرودي على مغادرة فؤاد جلستنا. أخرج شوقي من حقيبته الجلدية ورقة بيضاء وقلمًا، وبدأ يكتب. لاحظت أنه يكتب بيده اليسرى، وكان عهدي به كاتبًا بيمناه!

قلت ضاحكًا:

ـ تركت البلد لأسابيع، وعُدتُ لأجدك أعسر!

قطب ما بين حاجبيه، وأحكم وضع نظارته على أنفه، ثم همس بصوت خفيض:

ـ أكتب مقالًا في نشرة التنظيم السرية. ليتك تتعلم الكتابة بيدك اليسرى؛ فقد تحتاجها.

ـ لماذا؟!

ـ حتى إذا قبضوا عليك، لم يجد خبراء الطب الشرعى إثباتًا ضدك.

قمت واقفًا مصعوقًا من الدهشة والمباغتة:

ـ فأل الله ولا فألك ياشيخ!

في مساء نفس اليوم، حدثت المصادفة التي كشفت لي سرَّ اللحن الغامض الذي يراودني. أصرت رُوث على أن أصحبها لمشاهدة فيلم مصري. حاولت التهرب بحجة أن قيامي بالترجمة سيكون مرهقًا لي، ومزعجًا للمشاهدين الجالسين بالقرب منا. جاءني صوتها يتصنع الغضب متدللًا:

ـ أريد أن أشاهد أفلامكم، فلا تكن بخيلًا وسخيفًا!

اخترت فيلمًا لإسماعيل يس بعنوان «الدنيا لما تضحك»، الفيلم يُعرض بسينما لوكس بشارع عماد الدين. حكيت لرُوث عن الشبه الكبير بين إسماعيل والممثل الكوميدي الفرنسي فرنانْدِل؛ مما

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

جعل البعض يلقبه بفرنانڍِل الشرق. في أثناء عرض الفيلم، جذب انتباهي تردد نفس اللحن الذي يطاردني. لكنه هذه المرة يصدح في قوة ووضوح، ومن ناحية الشاشة. انشل تفكيري وأنا أسمع النغمات المتسارعة، والتي اتضح فيما بعد أن واضعها إسماعيل يس نفسه.

كان يغنيها بصدق؛ مما جعلني أغرق في تفكير عميق:

«كلنا عاوزين سعادة

بس إيه هي السعادة

و لا إيه معنى السعادة؟!

قوللي يا صاحب السعادة

قوللي.. قوللي».

لحن عجيب فيه من البهجة والسخرية والحسرة. خليط فلسفي عميق.

عجيب أمر إسماعيل، يلحن ويمثل ويغني ويتفلسف. يتحدث ويبحث عن السعادة. السعادة التي أشعر بها في لحظات، وتروغ مني في لحظات أخرى. السعادة التي أشعر بها في وجود رُوث، وينبئني حدسي بأنها زائلة.

أحسست بدفعة قوية من كوع رُوث، وهي تهمس:

ـ ياهيا، ترجم ما يقول. لماذا توقفت؟!

أجبت:

ـ لا أستطيع.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

(١٠)

«وكلما كان القطار يتقدم صوب القاهرة كانت غصتي تهدأ، فلم يكن القطار يقطع بي المسافة فقط، كان يقطع أيضًا مسافة نفسية، ويبعدني بسرعة عن ابن القرية المدين لها، إلى ابن المدينة المذهول بأضوائها الضائع فيها الطامح يومًا أن يخضعها ويتحكم فيها».

(البيضاء)

القاهرة يتجاور فيها الحديث، والقديم، والأقدم. طبقات الجيولوجيا تتراص فوق بعضها أفقيًا، أما طبقات تاريخ القاهرة فتتجاور رأسيًا بجانب بعضها بعضًا. فور وصولي، أدركت أنني سأشغف بهذه المدينة القديمة الكبيرة. «ميخيكو» أيضًا مدينة قديمة وكبيرة، لكن القاهرة أقدم منها بأكثر من ثلاثمائة عام. يحتج يحيى على تقديراتي قائلًا: إن عمرها أكثر من ألف العام المحسوبة بكثير. فهي قد ابتلعت في جوفها مدنًا صغيرة بناها الرومان والعرب من قبل. وقعت في غرامها منذ الوهلة الأولى. مهنتي كمهندسة معمارية، وشغفي بالفن كانا السبب. لكل مدينة عرفتها، سحر إغوائها. ميخيكو، روما، فيينا، القاهرة.

للمدن وجه، وبدن، ورائحة.

يقولون في أمثالنا الشعبية: «الوجه مرآة الروح»، لكن القاهرة عجيبة تمتلك ألف وجه وألف روح.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

أصرَّ على أن يصطحبني في ثالث أيامي بالقاهرة إلى أهرامات الجيزة. ملابس الشتاء التي جئت بها من أوروبا ثقيلة مرعبة، وربيع مصر أشد حرارةً من صيف أوروبا. اشتريت ـ فور وصولي القاهرة ـ ثوبين من القطن المصري بأكمام قصيرة، فكانا طوق إنقاذ من الموت غرقًا في بحر العرق. عُلو الأهرامات الرهيب جعلني أفكر في محاولة المصريين القدماء الوصول إلى السماء. عندما أفضيت بما أفكر ليحيى، ضحك قائلًا:

ـ هأنت قد زرت أحد عجائب الدنيا السبع، أضخم أهرامات في العالم.

لم أستطع أن أتجاهل ما يعتقده صحيحًا. اضطررت للتصويب مازحةً:

ـ اسمح لي كمتخصصة في العمارة أن أصحح لك. هرم خوفو هو الأعلى في العالم، لكن هرم «تشولولا» في بلدي هو الأضخم. طول كل ضلع من أضلاعه ٤٥٠ مترًا، ومساحة قاعدته أربعة أضعاف هرم خوفو.

قطب يحيى ما بين حاجبيه، ليظهر اهتمامه بما قلت. قمة الهرم المدببة أوحت لي بمحاولة المصريين القدماء الوصول إلى السماء، في المكسيك لدينا أهرامات مدرجة مسطحة تعلوها معابد. قد يدفن تحت المعابد البعض، لكن أهراماتنا للحياة. عندما دخلت الكاثوليكية إلى وطني مع الغزاة الإسبان، تمَّ بناء كنائس فوق أسطح الأهرامات. لم أشأ أن أشرح فكرتي ليحيى، فقد يسيء فهمها. أهرامات المصريين لدفن الملوك والخاصة، هي أهرامات «موت» قد يجملها البعض ويصفها بالخلود. أحسست تجاه هرم سقارة، الذي ذهبنا إليه فيما بعد، بالألفة. وكأنني أرى هرمًا مكسيكيًّا صغيرًا من بلادي.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

فجأة أمسك يحيى بخصري بكلتا يديه، ثم رفعني على حجر كبير من حجارة سفح أهرام خوفو. اقترب رجل في جلباب بلدي منا، فتحدثا معًا. التفت يحيى لي، وقال:

ـ سنصعد معًا إلى قمة الهرم!

شهقت من الخوف:

ـ أنت مجنون!

ضحك الرجل، فبانت أسنانه المسودة بفعل التدخين. تحدث بالإنجليزية ليطمئنني، ويشرح أن الصعود آمن مادمنا معه وتحت قيادته. انخلع قلبي، ويحيى يرفعني إلى أعلى ليتلقاني بيده الرجل؛ لأصعد إلى حجر آخر يعلو الحجر الذي نقف عليه. كنت ألهث غير مصدقة ما يحدث. مزيج من إحساس بالمغامرة، ورعب هائل، وشوق للصعود إلى السماء. أنظر إلى أعلى فيزداد ضوء الشمس سطوعًا، وتتحول السماء الزرقاء إلى لون أبيض براق. كلما اقتربنا من القمة، تزداد ضربات قلبي مسرعة، ويصم صوتها أذنيَّ. أرى شفتيْ يحيى تنفرجان وتتعانقان، دون أن أفهم ما يقول. يضحك، بينما أنا غارقة في مخاوفي وانفعالاتي الداخلية الصاخبة. عندما وصلنا إلى القمة، شعرت أنني أطلّ على الأرض من على سطح كوكب آخر. «حفناوي»، هكذا اسمه، أخبرني بإنجليزيته أنه يستطيع صعود الهرم ـ لو كان بمفرده ـ في ثماني دقائق، بينما يستغرق الهبوط دقيقتين فقط. نظر يحيى في ساعته، وأكد لي أننا استغرقنا ثماني عشرة دقيقة كي نصعد إلى القمة. فوق القمة كان هناك عمود حديدي مرتفع يرتكز على ثلاثة أعمدة أخرى تسنده في شكل هرمي آخر. اقتربت من العمود، فوجدت مئات التواقيع لسائحين عليه.

نظرت إلى أسفل، فأصابني دوار عنيف. كدت أهوي إلى

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

الأرض، أدركتنى يديْ يحيى القويتان. أخرج منديلًا من جيبه، وفرشه لأجلس عليه. جلسنا على سطح القمة بينما تدلت أقدامنا في الهواء. مساحة السطح قد تتعدى بضع عشرات أمتار مربعة. تتلاحق أنفاس خمسة سائحين آخرين غيرنا، صعدوا مع دليل آخر. أبدأ في استعادة توازني النفسي والبدني، أنظر إلى الأسفل، فأجد بيوتًا كعُلب الكبريت لقرية قريبة تحت أقدامنا. تبدو القاهرة غامضة من بعيد تحت غلالة من هواء محمل بذرات رمال الصحراء. كان «حفناوي» متعجلًا للنزول، حتى يلتقط رزقًا آخر مع سائحين آخرين. يسأله يحيى دقيقتين أخريين، ويطوق عنقي. ينظر بحب في عينيَّ ويسألني:

ـ ما رأيك؟ هل كنت تتوقعين هذه المغامرة؟

ـ أبدًا، لكننا نعيش مغامرة مثيرة منذ لقائنا في فيينا.

يقهقه، ويشير إلى متسلقين آخرين ـ ينتظرون ـ واقفين على أحجار قريبة ـ دورهم في الصعود إلى سطح القمة ـ قائلًا:

ـ هيا يا رُوث، الدليل وآخرون ينتظرون هبوطنا.

أسحب قدميَّ المعلقتين في الفراغ، وأقف مرة أخرى بعيدًا عن الحافة. يقفز حفناوي إلى أسفل. يمسك يحيى بيدي، ويساعدني لأقفز ليتلقفني الدليل. أنظر إلى أسفل، فيصيبني دوار أعنف مما عانيته في الصعود. أوقن أنني سألقى حتفي في هذه المغامرة الملعونة. يصرخ الدليل، فينبهني يحيى أن أعطي ظهري للفراغ، وأنظر فقط إلى حجارة الهرم. نستمر في الهبوط، وكأنني كرة يتقاذفها الاثنان. نصل في النهاية، وأنا في حالة يُرثى لها. ينقُد يحيى حفناوي ورقة بنكنوت كبيرة، لم أتعود بعد على أوراق النقود المصرية. نجلس في الظل على حجر كبير في السفح. يمر أحد الباعة، فيشتري منه

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

يحيى طربوشًا أحمر بزر أزرق، ويضعه على رأسي. أسمع كلمة (باشا)، يقولها بعض المارة وهم يضحكون. يضحك يحيى ويبدو سعيدًا، بينما كنت أستعيد هدوئي وأنفاسي.

بعد أيام، أدرك أن سفر يحيى معي قد امتد، وتجاوز الزمن المسموح لإجازته من العمل. كاد أن يُفصل من عمله، لولا التماسات وطلبات قدمها. ألقى اعتقال رفاقه بظلال حزينة على سعادتنا، قاومنا شبح الكآبة ببهجة الحب. ذرعنا القاهرة جيئة وذهابًا. تجولنا في الحواري الضيقة للقاهرة الفاطمية، أبهرتني المشربيات ومآذن الجوامع. أصوات الآذان تصدح، وكأنها أغنيات أندلسية حزينة. روائح البهارات الشرقية، وأدخنة البخور العبقة، وأبخرة الأطعمة الشرقية، كلها تغزو أنفي. أكاد أرى الروائح المميزة، لا أشمها فقط. أشتري تلك التحف الإسلامية المنمنمة، وقلل الفخار، ولوحات النحاس المطروق.

يصرخ يحيى ملتاعًا:

ـ امتلأ البيت بالحُصر اليدوية والقلل والصحون يا رُوث. قريبا لن نجد لنا مكانًا فيه!

أتجاهل صرخاته، وأستمر في ذهابي إلى القاهرة القديمة، دونه وحدي. لا أشبع من فن تلقائي عبقري للمصريين. جولاتنا في القاهرة الأوروبية أشاعت البهجة في نفسي، لكنها لم تُثْرِ روحي كزياراتي للحسين والسيدة وللأهرامات. بيتنا على الحافة بين المدينة القديمة والأحياء الأوروبية الحديثة. خطوات معدودة، وأجد نفسي بجوار مسجد السيدة زينب. أرقب الدراويش والشحاذين والنساء المتشبثين بقضبان الضريح. طلبت من فؤاد ـ ذات مرة ـ أن أدخل إلى الجامع، فاصطحبني إلى هناك.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ارتديت طرحة خفيفة لإخفاء شعري، ودخلت. أجواء أشبه بالتبرك بالقديسين بين القرويين في المكسيك. عندما رجعت وأخبرت يحيى، اندهش عندما قلت له:

ـ الدين واحد هنا وهناك، لكن له ألف وجه. والوجوه متشابهة رغم اختلاف الألوان.

خطوات أخرى معدودة، لأجد نفسي على شاطئ النهر الممتد الذي يشق مصر من الجنوب إلى الشمال. ركبت معه قاربًا وحدَنا، أمسك المجذافين بذراعيه القويتين، وحرَّكهما ليندفع القارب إلى منتصف النهر. يشير إلى الدفة؛ لأقبض على يدها الطويلة. يبدو شاطئا النيل ـ وقت الغروب ـ ساحرين، تبدأ في اللمعان أضواء شرفات فندق سميراميس، وأنوار حديقة سطحه المعلقة. يترك يحيى مكانه في مقدمة القارب، ويتجه نحوي. يهتز القارب بشدة تحت وقع خطواته. يجلس بجانبي، ويحيط كتفي بذراعه. يشير بإصبعه، ويقول:

ـ هناك قصر السفارة الإنجليزية؛ حيث كان يقطن الحاكم الحقيقي لمصر.

يحرك إصبعه ناحية أخرى:

ـ وهنا درست الطب في الكلية.

يفاجئني، ويوجه إصبعه ناحية وجهي، فأجفل خوفًا من أن يصيب عيني:

ـ وهاهي التي أحببتها.

يتفنن يحيى في إضفاء أجواء مثيرة على قصتنا. يطغى خياله ـ ككاتب ـ في لحظات كثيرة على مواقف اعتيادية، فتبدو مشاهد سينمائية خارقة. أتساءل بداخلي:

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

ـ هل ستحتفظ علاقتنا بالتشويق والإثارة، أم سيعتريها الملل والاعتياد؟

بدأ العمل والانشغال بالأصدقاء يلتهمان أغلب وقته. هموم الصراع السياسي المحتدم تغرقه في تفاصيلها.

لا أنسى ظهيرة اليوم التي جاء فيها من العمل، ليخبرني جذلًا بحصوله على إجازة قصيرة لأيام. استغربت موافقة رؤسائه على الإجازة، ولم يمضِ سوى شهر على رجوعه. ضحك ضحكة طفل صغير، وهو يقول:

ـ ما لا تعرفينه ياعزيزتي، أن بيروقراطيتنا العتيدة، منذ أيام الفراعنة، لا يستعصي عليها شيء. مثلما توجد قوانين وقواعد، خُلقت الثغرات لإيجاد الحلول.

أسرَّ لي أنه وَثَّق وثيقة زواجنا في الدوائر المصرية، وبتاريخ هذا التوثيق يستحق كموظف حكومي محترم إجازة للزواج.

أطار صوابي اقتراحه بالذهاب إلى الأقصر وأسوان. حلم حياتي كان زيارة معابد الفراعنة العظام. الخطوط المعمارية المستقيمة، ورشاقة الأعمدة السامقة، ورحابة الأبهاء، والتماثيل العملاقة. لم تفارقه الكاميرا الكوداك في رحلتنا، كان يختار لي مواضع أقف فيها إلى جانب التماثيل ليصورني، وكنت ألتقط صورًا له بدوري. عندما رجعنا إلى القاهرة واستلمنا الصور بعد طبعها، انقبض قلبي واندهشت. لم أجد صورة واحدة تجمعنا معًا! أفضيت له بملاحظتي قائلة:

ـ أمعقول هذا؟ كيف فاتك أن تسأل أحدهم أن يلتقط صورتنا معًا، كما فعلت في فيينا أمام حمامة بيكاسو؟!

امتقع وجهه، لكنه سرعان ما استعاد ابتسامته. حاول أن يضحك، وهو يقول:

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

- يخاف الناس في بلادنا الحسد، تصويرنا معًا قد يجلبه.

يلح عليَّ سؤال، لا أجد الإجابة عنه. لماذا لم يحرص يحيى على أن يعرفني بأسرته؟ أخذ إجازة، وبدلًا من أن يذهب إلى الريف لزيارتهم، ذهب معي إلى معابد الفراعنة. لم يزرنا أحد منهم في بيتنا سوى أخيه الأصغر؛ الطالب في الجامعة. ذات يوم سألته:

- متى أرى أسرتك؛ والدتك ووالدك وأُخْوتك؟

أجاب بسرعة:

- ليس لديَّ وقت، سنذهب إليهم أو سيأتون في يوم ما.

تُرى هل هم معارضون لزواجه من أجنبية شيوعية كاثوليكية، أم أنه يخشى مواجهتهم بزيجته بأجنبية متبرجة. ذات مرة، طلبت منه أن يريني صورة فوتوغرافية لهم. أحضر صورة قديمة من صوان الملابس؛ الأب أسمر اللون في ملابس إفرنجية؛ والأم بيضاء ذات عينين فاتحتين في جلباب أسود يزيد من جمال ملامحها. الأطفال حولهم، ويحيى يقف ببنطاله القصير واضعًا يديه أمامه. تبدو الأم أبرز مَنْ في الصورة، قوية، ذات ملامح صارمة. الكل يبتسم، إلا هيَ. احتفظت بنظرة محايدة وتعبيرات وجه محيرة.

أصبحت أتجول وحدي لأستكشف شوارع القاهرة، وأكتب إلى ماما وبابا وشقيقتي خطابات طويلة مصحوبة بكروت بوستال تحوي مناظر من القاهرة. القاهرة الأوروبية أقرب إلى باريس وروما. لعله طموح الأسرة الملكية - التي مازالت تحكم رغم طرد فاروق - في محاكاة الحضارة الأوروبية. بنايات ذات طراز النيو-باروك، وقباب فخمة هائلة تعلوها. جسور ذات تصاميم معدنية مدهشة عبر النيل، شوارع وميادين وحدائق خططها المعماري الفرنسي هاوسمان. رغم جمالها، فإنها لا تبهرني مثلما تطيح برأسي قاهرة الفاطميين.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

كنا بحاجة إلى شراء ملاءات جديدة وأغطية، فأصرَّ يحيى على ذهابي معه إلى مخزن كبير بوسط القاهرة. كان المخزن على الحد الفاصل بين قاهرتي الفاطميين والأوروبيين. عندما دخلت المخزن، أدركت على الفور أنه يريد إدهاشي ومغازلة ميولي الفنية المعمارية. مبنى من أربعة طوابق مشيد بكامله من الحديد، مرتفع على أعمدة ضخمة من الحديد، أرضيات طوابقه فولاذية، مسامير ضخمة تربط بين أجزائه المعدنية. كل دور فيه، ماهو إلا ساحة فسيحة لا تقسمها جدران. نسخة طبق الأصل من محل جاليري لافييت الباريسي. وقف يحيى في باحة المخزن، وأشار بكفه إلى أعلى؛ حيث يظلل السقف الزجاجي المعدني كل أدوار المبنى الدائرية:

ـ الذي صمم هذا المبنى، هو من بنى برج إيفل الشهير. جوستاف إيفل.

أبديت اهتمامي، غير مصدقة مايقول. فأضاف مؤكدًا أن إيفل له جسر معدني آخر يربط حي الزمالك بالقاهرة. سأتذكر ماقاله فيما بعد، عندما سأذهب مع فؤاد إلى أحد المعارض التشكيلية في جاليري بالزمالك. سيقف فؤاد في وسط الكوبري مستندًا بذراعيه على سور الكوبري المعدني، ناظرًا إلى الأعمدة الحديدية المائلة المتلاقية أعلاه. يأتي صليل الترام العابر للكوبري، فيدير وجهه نحو النهر. كثير من العشاق يقفون مستندين إلى سور الكوبري العتيق، ووجوههم تنظر أيضًا إلى النيل. يقول فؤاد مبتسمًا:

ـ أتعرفين أيتها الفنانة؟! هذا الجزء الذي نقف فيه متحرك، ينفتح في ساعات معينة كي تمر المراكب والصنادل.

يستمر مبتهجًا:

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ لقد أنقذ هذا الجسر ـ قبل سنوات عديدة ـ من السجن فنانة تشكيلية، رفيقة لنا، وهي ـ في نفس الوقت ـ زوجة رفيق آخر.

ـ كيف؟!

ـ كانا مختفيين من حملة اعتقالات دكتاتورية، طالت المئات. وكان من المفترض أن تقابل زوجها لتأخذ منه لفة منشورات. جاء الزوج مرتديًا ملابس بلدية، وجاءت هي متنكرة. تقابلا، وكانا مراقبين. وفي لحظات ألقى المخبرون السريون القبض عليهما.

ـ حتى الآن هذا طبيعي!

ـ أخطأ ضابط البوليس، فأثبت الساعة الواحدة وخمس دقائق في المحضر كوقت لإلقاء القبض عليهما. كان الكوبري ينفتح في الواحدة ظهرا للسفن الشراعية العابرة، وينغلق أمام العابرين. خطأ الضابط أبطل الضبطية وأقنع النيابة بالإفراج عنهما.

حتى فؤاد، لم ينجُ من الانغماس في العمل السري. يحيى وأصدقاؤه يبدعون في ظروف صعبة. كم كان خميسي صادقًا! خميسي ـ الصحفي والشاعر ـ الذي رأيته في فيينا مع يحيى، قال له:

ـ سأعيش العمر أدافع عن قيثارتي، ولن أجد وقتًا لعزف ألحاني.

أحمد الله، فحتى الآن يجد يحيى وقتًا لكتابة قصصه، والعمل طبيبًا، والانخراط في النضال السياسي.

قصة جوستاف إيفل وعمارته الحديدية أثارت فضولي المعماري. بعثت برسالة إلى أستاذي في تاريخ العمارة الحديثة «فرناندو» في المكسيك، أنبئه بالمفاجأة التي وجدتها بالقاهرة. سيأتي رد منه بعد عدة أسابيع، يعلمني فيه أن كل المعلومات التي عرفتها من يحيى وفؤاد مغلوطة ومشوشة. سيكتب فرناندو:

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

«صغيرتي روث

كيف حالك أيتها المتمردة المسافرة دائمًا؟

مشاريع جسور إمبابة وأبو العلا تم نسبها زورًا إلى إيفل. لا تنسيْ يا عزيزتي أن عمارات الحديد كانت موضة في تلك الفترة وليست مقصورة على العبقري إيفل! الذي بنى أول جسر في إمبابة، بين عامي ١٨٩٠ و١٨٩١ في عهد الخديوي توفيق، مهندس فرنسي آخر هو دافيد ترومبلي. هذا الجسر جرى تفكيكه، واستخدمت مواده في بناء جسر في دمياط، فيما بعد. وهناك جسر ثانٍ جرى تشييده من ١٩١٣ و١٩٢٥، على مبعدة ٣٥ مترًا إلى الشمال من هذا الجسر القديم.

لقد بحثت في مراجعي، ووجدت أن هناك شركتيْن جرت الإشارة إليهما بصدد بناء الجسر هما: مؤسسة بوم وماربون البلجيكية، أولًا، التي قامت بتنفيذ المشروع، ومؤسسة ديدييه وبيليه التي، بسبب تعذر وصول التجهيزات لاندلاع الحرب العالمية الأولى، وضعت حدًّا لمساهمتها في ورشة العمل.

أما جسر أبو العلا، الذي يربط الزمالك بحي بولاق الشعبي، فشيدته بين ١٩٠٨ و١٩١٢ مؤسسة "فايفز - ليل وشنيدر وشركاؤها الفرنسية"، وهو من تصميم المهندس الأميركي وليم شيرزر. أي أن تصميم إيفل له كذبة كبرى.

لا تبتئسي، فجوستاف إيفل له مشاريع حقيقية في مصر غير المزورة التي أنبأتني بها!

في ١٨٦٥، قصد إيفل مصر لتسليم نحو من ٣٠ قاطرة لحساب مؤسسة باولز. وخلال تلك الزيارة، التقى بفرديناند دو ليسيبس الذي كان منهمكًا في حفر قناة السويس. وأثمر اللقاء تعاونًا لم تكن نتيجته تدعو للفخر (فضيحة قناة بنما). أما المشاريع الثلاثة التي تنتسب، حقًّا، إلى إيفل، فهي:

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ١٨٧٣ : قنطرة السلاملك في الجيزة.
ـ١٨٧٧ : المعدية في بور سعيد.
ـ١٨٩٤ ـ١٨٩٧ : جسر نجع حمادي على النيل.

تستطيعين أن تضيفي إليها جسر حديقة الحيوان بالقرب من جزيرة الشاي. المعلومات الضئيلة المتوفرة لديَّ حوله تشير إلى أنه قنطرة حديدية بسيطة للمشاة، جرى بناؤها بناء على طلب إسماعيل باشا لاستكمال منشآت حديقة الحيوان التي جرى افتتاحها في مارس من عام ١٨٩١ .

وللذلك الجسر قصة وجدتها بالمصادفة. في عام ١٨٦٧ ، زار الخديوي معرض العالم الذي أقيم في باريس، وأثارت إعجابه الأعمال الجارية في حدائق باريس العامة، خصوصًا بارك بوت شومون الجديد. وقد لاحظ فيه قنطرة معلقة طولها ٦٤ مترًا مزينة بغلاف من الخشب. وكان صاحب القنطرة هو ـ نفسه ـ جوستاف إيفل. اتخذ الخديوي قراره: سيكون للقاهرة منتزه مثل بوت شومون، وهو الذي أصبح حديقة الحيوان الجديدة في الجيزة، مع صخرتين صناعيتين تصل بينهما قنطرة معلقة. لم يكتفِ الخديوي باستلهام الفكرة من فرنسا بل استعار معها عددًا من المصممين للتنفيذ، ومنهم جوستاف دي لشوفالييه، وبيير بريبه ديشان، المساعد السابق للبارون هوسمان. وفي الركب، أخذوا معهم مهندسًا اسمه جوستاف إيفل، ومعه خبرته في الإنشاءات الحديدية!

لي عتاب عليك يا صغيرتي المعمارية المغامِرة، كيف فاتك أن إيفل بنى قصر أوريزابا الحديدي في المكسيك؟ هل لم تمرّ قط على ذهنك هذه المعلومة؟! عمارة الحديد الزهر انتشرت بعد الثورة الصناعية، وخصوصًا في النصف الثاني من القرن

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

التاسع عشر؛ لرخص الحديد ومتانته. لكنها تراجعت عندما اكتشفنا أن أبنية الحديد تقاوم الضغوط والأحمال، لكنها ضعيفة وهشة تحت التوترات العالية. لا تستطيع مقاومة الحرائق؛ ولذا انقرضت.

رُوث، متى ترجعين؟ الجميع يسألون هنا عنك».

عندما أخبرت يحيى بزيف معلوماته ومعلومات أصدقائه المعمارية، غضب وأصرَّ على ما وقر في ذهنه. انتفضت كرامته الوطنية، وعاتبني غاضبًا:

ـ كيف تجرؤئين على تكذيب ما أعرفه عن تاريخ القاهرة؟ هل قمت أنا بالادعاء بمعرفة المكسيك أكثر منك؟!

ـ لا لم تقم بذلك، ولكن لا تنسَ أنني مهندسة معمارية وهذا تخصصي.

ضحك مقهقها، واحتضنني:

ـ أنت هنا في القاهرة حبيبتي وحسب.

بدأت جولاتي مع يحيى في القاهرة تقل، انشغل بعمله وقصصه ونضاله تحت الأرض، وأحسست ببوادر ملل تتسرب إلى حياتي. لا يبدو أنه مهتم بإنجاب أطفال، أو تكوين أسرة مستقرة. أحيانًا أتساءل: هل هو يؤمن بحياة بوهيمية لا تفرض قيودًا على فنه؟!

ساعدني فؤاد على اقتناء أدوات رسم وألوان زيتية وقماش توال. أفكر في قضاء وقتي في أثناء غياب يحيى خارج البيت. شددت القماش على الإطار الخشبي، وثبته. وقفت أمام حامل اللوحة، أفكر فيما سأرسمه. طال تفكيري وشرودي. هل أنسخ واجهات منازل القاهرة القديمة، أم أستوحي ملامح وجوه المصريين البسطاء؟ هل أرسم نباتات الذرة و الصبار المكسيكية التي اشتقت لرؤيتها؟

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

أخرجت صورة عائلة يحيى من الصوان، وضعتها أعلى اللوحة على اليسار، وبدأت أنظر إليها. رسمت خطوطًا أولية. عندما حضر يحيى، ورأى اللوحة مثبتًا عليها صورة عائلته، ظهرت أمارات غضب مكبوت على وجهه. سألني بصرامة، لم أعهدها منه:

ـ هل استأذنتِ قبل أن تأخذي الصورة؟

ـ لا، ولِم أستأذنكَ في رسمها؟ ظننتكَ ستفرح عندما تراها.

فاجأني رده المقتضب الصادم:

ـ هذه حياتي الخاصة، لا تعبثي بها.

انكمشت روحي، كقط يتكور على نفسه. حياته الخاصة! أي حياة خاصة، ونحن زوجان! تركت أسرتي والمكسيك، وجئت معه. حياتي هي حياته، فلماذا يخبئ أسراره عني؟

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

(١١)

«بأي قوة سحرية تؤثر عليَّ هذه المرأة الصغيرة وتحدث في هذا كله؟ بأي قوة غيبية تفرز في دمي كل تلك الكمية من (الأدرينالين) الذي يجعل قلبي يدق هكذا وينبت العرق من جبهتي وتتهدج له أنفاسي؟ لماذا هي وحدها دونًا عن العالم؟».
(البيضاء)

شددت من قامتي، وأنا أدخل المدرج. قصدت منصة الإلقاء، خطوت خطوات واثقة، ولم أنظر إلى الطلاب الجالسين في انتظاري. وعندما وقفت أمامهم فقط، أدرت نظري بينهم. لم تكن سامانثا موجودة. ألقيت عليهم بتحية الصباح، وبدأت:

«النظرية رمادية، ولكن شجرة الحياة الأبدية خضراء». صمتُّ، واستعرضت وجوههم؛ لأرى وقع الجملة المفاجئ عليهم. اتحدت نظراتهم في حزمة شعاع مصوبة نحوي، وتجمدوا في أماكنهم. «تلك العبارة العبقرية قالها جوته على لسان فاوست، لكن كثيرين من مفكري العالم استخدموها بعده. سأدلو أنا الآخر بدلوي، وأضيف: إن أشكال الإبداع الأدبي وارفة خضراء، لكن أغلب الدراسات النقدية للأسف صحراء جرداء قاحلة. إذا لم يتناول الباحث الدارس العمل الأدبي بطريقة تساعد القراء على اكتشاف بواطنه ومواطن الجمال فيه، فإن دراسته تصبح إطارًا نظريًا بلا معنى. لا أغالي إذا قلت إن الإحاطة بالظروف التاريخية والاجتماعية لما يتناوله النصّ

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

الإبداعي، بل بزمن كتابته أيضًا، هي التي تكمل رؤية الناقد والباحث للنص».

هكذا بدأت محاضرتي للطلاب، بينما كنت أفكر في ظروف كتابة روايته «البيضاء». بعد سنوات من التحدث أمامهم، أجدت إلقاء المحاضرات وذهني منشغل بتقليب واختبار أفكار أخرى لا تمت بصلة بما أقول. أشار يحيى، أكثر من مرة، إلى وقت كتابته لتلك الرواية. لن تنتبه سامانثا لذلك، فهي ستكتفي غالبًا بشراء أو استعارة نسخة من «البيضاء»، ولن تقارن بين طبعات الرواية المختلفة. لن تعرف أنه في أول طبعة مصرية لها، بالكتاب الذهبي، أنبأنا المؤلف في المقدمة بكتابتها في صيف ١٩٥٥، قبل أن تُنشر على حلقات في جريدة الجمهورية عام ١٩٦٠. لن تدرك أن أول صدور للرواية في كتاب، كان في بيروت عام ١٩٧٠! في طبعة أخرى متأخرة من دار الهلال، نجد تاريخًا آخر لكتابتها. يذكر يحيى أنه بدأها في ليلة رأس سنة ١٩٥٦، وهو يعاني من الوحدة والفراق. أنفق من عمره أربع سنوات عليها، ويصف حالته فيشير أنه كتبها في ليلة طويلة مؤرقة امتدت لأعوام.

هل نصدق يحيى في الكتاب الذهبي، أم في طبعة الهلال؟ ولكن هاهي الذاكرة تخدعه مرة أخرى، الرواية نشرت في جريدة الجمهورية على حلقات في الفترة ما بين سبتمبر ونوفمبر ١٩٥٩، وليس خلال عام ١٩٦٠. أميل إلى أنه كتبها بالفعل على مدار أربعة أعوام. فليس معقولًا أن تصدر له رواية أخرى في بداية عام ١٩٥٦، رواية مفعمة بالأمل والتفاؤل والثقة في المستقبل. كيف يتمكن مؤلف أن يكتب روايتين، في الوقت نفسه، وبنفَسين مغايرين، ورؤيتين مختلفتين في أجواء نفسية متناقضة تمامًا؟ تلمع الفكرة كشهاب مَرَّ أمام عينيَّ في

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

سماء المدرج، أين كان يحيى في عامي ١٩٥٤ و١٩٥٥؟ وما علاقة ذلك التوقيت بزواجه بالمكسيكية؟ هل انتهى الزواج قبله، أم بعده؟

تتوقف نظراتي على وجه سامانثا، تجلس في الصف قبل الأخير. لم ألمحها في بداية المحاضرة، لعلها وصلت متأخرة.

«من المستحيل أن ننظر إلى العمل الأدبي دون سياقاته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. حتى الروايات الرومانسية، لا تتمرد على قيود الحياة، قد يتراءى لنا أن مؤلفيها أقاموا حواجز عازلة تحافظ على أجوائها المعقمة. لكن إذا تأملناها بعمق، وجدنا كل السياقات التي ذكرتها تتسرب إليها عبر مسامات العمل الفني، وتظهر بدرجة أو بأخرى بين سطورها».

يبدو عام ١٩٥٤، وأحداثه، مفتاحًا لفهم «البيضاء». أشعر بأن بحث سامانثا سيتعلق بالتاريخ أكثر منه بالأدب. أليس ما أقوله الآن، هو صُلب القضية؟

رُوث بلا شك مفاجأة، وظهورها يساعد على فهم الرواية. لكن الظروف السياسية والاجتماعية في وقت كتابة الرواية لازمة للتناول الموضوعي لها. يعتمد بعض النقاد بالأساس على تاريخ النشر، ويربطونه بحملة الهجوم والقبض على الشيوعيين في ليلة رأس سنة عام ١٩٥٩. يتهمونه بأنه أراد أن يغسل يديه من ماضيه اليساري الفاقع. بحثَ عن الأمان الذي ينشده ككاتب، فطعن رفاقه في ظهورهم بخنجره. لا أستبعد ذلك، ولكن العِبرة أيضًا بفترة الكتابة وظروفها، كما أنه لا يمكن تجاهل الزمن الذي تتحدث عنه أحداثها. تتحدث «البيضاء» عن وطن ينشد التحرر من الاستعمار، فيتذكر يحيى أعمال الكفاح المسلح كأثر من الماضي. يشير إلى اسم حديث لأحد شوارع القاهرة الرئيسية. «التحرير» بدلًا من «الخديوي

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

إسماعيل». إنها فترة ما بعد إعلان الجمهورية في البلاد. سيشهد عاما ١٩٥٣ و١٩٥٤ اضطرابًا سياسيًّا واسعًا، ومطاردة ـ لا هوادة فيها ـ للسياسيين والأحزاب. أجواء قاتمة، ومغامرات عمل سري، وحملات قبض واعتقال، ومصادرة الصحف.

أُنهي محاضرتي كالمعتاد بجملة أحبها: «والله من وراء القصد، وهو عليه السبيل». أنظر إلى ساعة يدي، فأجدني قد أنهيت المحاضرة في تمام الوقت المحدد. إنها خبرة السنين التي تجعل مني ممثلًا يستعيد دوره عن ظهر قلب. أُحدِث تغييرات محدودة في محاضراتي من حين إلى آخر، وأترك لعقلي العنان في أثناء أداء دوري. أسأل طلابي، وأجيب معهم عن أسئلة تثير فضولهم، وتبعد عنهم الملل. لا أسمح لهم بأسئلة تبعدني عن جو المحاضرة، وتعرقل أفكاري الخاصة التي أُوِلِّدها داخلي. وكالعادة، يأتي بعض الطلاب إلى مكتبي عقب المحاضرة للمناقشة.

رأيتها متوارية خلفهم، في بلوزة بيضاء وسروال من الجينز الأزرق. أشرت لها:

ـ آنسة سامانثا، أراكِ غدًا في العاشرة صباحًا. لديَّ موضوع يتعلق ببحثك.

لقب «آنسة» نادر الاستخدام في الجامعة، بين أستاذ وطالبة. ربما قصدت أن أعيد المسافة التي شطبتْها سامانثا في سهرة عيد ميلادها.

كنت قد عثرت على سيرة موجزة لزوجة يحيى المكسيكية، لكنها كُتبت بالإسبانية. ترجمة جوجل المرتبكة حولتها إلى هيروغليفية بحروف عربية. رجعت إلى مذكرات ريفيرا، وبدأت قراءتها من جديد. كنت من قبل قد تأكدت من ذهاب روث مع أبيها إلى فيينا، ووقت لقائها بيحيى. فتشت عن رُوث ومآلها؛ متى انتهى زواجها

بالمصري؟ ومتى ظهرت في المكسيك من جديد؟ وهل تزوجت مرة ثانية؟ اندفعت محمومًا سابحًا في مذكرات الفنان العالمي التي رواها عن حياته، وصببت كل تركيزي على الفترة الأخيرة منها. ما فهمته أن رُوث قد أنجبت في المكسيك طفلًا ذكرًا في عام ١٩٥٦. احتفى ريفيرا بولدها بيدرو؛ فقد أتى في وقت عصيب. جاء حفيده الصبي بعد عامين حزينين عقب وفاة «فريدا كالو» زوجته وحبيبته. دللت الأسرة الطفل ونادوه «سوبيتو» ـ الضفدع الصغير ـ ليجعلوا منه امتدادًا لـ «سابو-رانا» ـ الضفدع الكبير ـ لقب التدليل لدييجو ريفيرا بين أفراد الأسرة والأصدقاء. يرجع ريفيرا ذلك الولع بالضفادع إلى أنه وُلِد في مدينة جواناخواتو المكسيكية، وترجمتها الحرفية: «كثير من الضفادع المغنية في الماء»!

انتبهت أيضًا إلى أن نشاط رُوث العارم في الجامعة وفي الحياة الثقافية والاجتماعية في المكسيك قد بدأ في البروز في عام ١٩٥٨. رحيلها المفاجئ عن الحياة، في سن صغيرة، أثار فضولي. هذه المرأة ـ وفقًا لسيرة حياتها المهنية والعامة ـ أحرزت شهرة كبيرة في بلدها. في فترة عشر سنوات استطاعت أن تفعل الكثير كمعمارية وفنانة وشخصية عامة. أثارت اهتمامي رئاستها للجنة الفنية التي رعت الدورة الأوليمبية التي أقيمت في المكسيك عام ١٩٦٤. هل ماتت في ظروف عادية، أم أن هناك أسرارًا وراء رحيل شخصية بمثل هذا التأثير، وريثة فنان شيوعي شهير، ومعمارية يُشار إليها بالبنان؟!

لم تتأخر سامانثا دقيقة واحدة عن موعدها. في العاشرة تمامًا، سمعت دقات أصابعها على باب المكتب. نظرت تجاه الباب، فوجدت ابتسامتها الصبوح تسبقها:

ـ صباح الخير يا سامي، كانت محاضرتك بالأمس مبهرة.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ ظننتك لست أنت! لم تعد مواعيدك مصرية أو أمريكية، بل ألمانية الصُّنع!

قدمت لها سيرة رُوث باللغة الإسبانية، وأخبرتها بما توصلت إليه من وجود ابن لها في المكسيك. طلبت منها أن تجد ترجمة لهذه السيرة. كنت قد وجدت مواقع كثيرة باللغة الإسبانية تذكر «روث مارين-ريفيرا»، سألتها أن تتصفحها وتطبع ماهو مكتوب فيها، وتجد من يترجمه. لم تشأ سامانثا هذه المرة أيضًا أن تذهب دون أن تفاجئني. طلبت أن نلتقي خارج الجامعة، وألحت مصوبة عينين ولهتين نحوي. أدرت رأسي يمنة ويسرة، قائلًا:

ـ ليس لديَّ وقت هذه الأيام، سنرى فيما بعد.

باغتتني الكلمات التي قلتها. لماذا لم أرفض مواعدتها بشكل واضح ونهائي؟ ألم أكن قد قررت أن أكون حازمًا معها؟ بانت الحيرة وخيبة الأمل على ملامحها. عندما تصافحنا، أمسكت بكفي طويلًا. انتقلت سخونة كفها إلى كفي. تخلصت من يدها بصعوبة. بينما كانت تفتح الباب لتذهب، جاءني صوتها وكأنها تتوعدني:

ـ سنلتقي قريبًا يا سامي.

تحيرني أحوال هذه الفتاة، ماذا تريد من رجل سنوات عمره ضعف عمرها؟ أحيانًا، تبدو تصرفاتها عادية كطالبة نحو أستاذها، وفي أحيان أخرى تظهر كامرأة تطارد رجلًا لإيقاعه في حبائلها.

ما توصلت إليه من أمر يحيى ورُوث، يثير شهيتي للمزيد من الاكتشافات. لم أستطع أن أحتفظ بخبيئتي في جوفي، فأطلعت الدكتور سعيد شرابي عليها في أول مقابلة بيني وبينه. الدكتور سعيد يكبرني بسنوات كثيرة، وهو المشرف على رسالة الدكتوراه التي أنجزتها منذ سنوات طوال.

 مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

جاءني رأيه حاسمًا:

- اسمع أيها التلميذ النجيب، العمل الأدبي والفني مستقل تمامًا عن الظروف التي أنتجته. أقصد أن المتلقي أو الناقد يجب أن يتناوله في إطار ما ظهر منه. هل رأيت مشاهدًا للوحة في معرض فن تشكيلي، يقلبها على وجهها ليرى ما وراءها؟!

لم أستطع موافقته على رأيه، حاولت أن أشرح كيف يتعلق دور الباحث والناقد بإماطة اللثام عن الظروف والخفايا التي تحيط بالعمل الفني، وكيف يمكن أن يساعد ذلك المتلقي على فهم العمل والإحاطة به.

مرة أخرى جاءت ممانعته، مع حركة سبابته النافية الناهية:

- هل رأيت فنانًا يشرح عمله للآخرين؟ بالطبع لا، ولكن هناك بعض الأدباء الأدعياء يقومون بذلك. مهمتنا تفسير العمل الأدبي بما يظهره من علامات، لا بما وراءه مختفٍ. هذا تَزَيُّدٌ غير مفيد.

الدكتور سعيد ذو نفوذ كبير في مدرسة النقد الأدبي، ذكي وواسع الاطلاع. لكنني لست مقتنعًا بما يقول، ولن يفت في عضدي ما قاله.

صرت محمومًا، أقضي ساعات طوالًا أمام شاشة الحاسوب منجذبًا إلى روث وريفيرا! أبحث عن أي تفصيلة عن الزوجة المكسيكية ليحيى. في محاولة محظوظة، ضغطت على أيقونة «صُوَر» في محرك «جوجل»، فعثرت على صور فوتوغرافية لها في شبابها. تأملت وجهها، واكتشفت أن شعرها أسود ولونها أقرب إلى السمار! إذن، كانت كل تصوراتي عنها المستمدة من سانتي كاذبة، بل الحلم الذي رأيتها فيه ذات شعر كستنائي، كان أيضًا خادعًا. بدأت أراجع نفسي؛ لأجد تفسيرًا ما. تذكرتُ أن يحيى - في أحد أحاديثه - ذكر أنه في بعض قصصه القصيرة، يدمج شخصيتين من الواقع في

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

شخصية أدبية واحدة. هل يكون قد أدمج شخصية «اليونانية» التي ذكرها رفاقه مع شخصية «المكسيكية» التي ذكر للسوفيتية أنه استوحى منها «البيضاء»؟ أكثر ما استرعى انتباهي من صور رُوث، كانت صورة لها مع أبيها دييجو. تقف ممسكة بمرآة بينما يقوم والدها برسمها. علمت أن هذه اللوحة هي أغلى وأشهر بورتريهات ريفيرا. يذهلني رقم مهول بمئات آلاف الدولارات. في العقد الأخير أصبحت عائلة ريفيرا محط أنظار العالم. أفلام أنتجتها هوليود عن علاقة دييجو بزوجته فريدا كالو الرسامة الشهيرة، وعشرات الكتب بلغات العالم كافة عن عبقريته الفنية وشخصيته الغريبة. أتأمل اللوحة بألوانها، ملامح رُوث أقرب إلى وجه هندية حمراء، وعيناها مسحوبتان ولكنهما فاتنتان بشكل لا يُقاوم. قد لا أستطيع الحكم بدقة على ملامحها؛ لأن لوحات دييجو تستوحي الشخصية ولا تنقلها كما هيَ. صورها الفوتوغرافية قديمة غير ملونة، وقد تعطي الإضاءة المنخفضة لونًا أغمق لبشرة رُوث. تطير بلُبي صورة فوتوغرافية أُخِذت بشكل فني بواسطة مصورة مكسيكية، وتمَّ اختيارها لتطبع في كتاب لأشهر الصور الفوتوغرافية الفنية للقرن العشرين. تبدو رُوث في الصورة كأُنثى محلقة في فضاء الطبيعة. امرأة مصنوعة من أحاسيس وأفكار وأحلام ورغبات.

بينما كنت غارقًا في أفكاري أمام شاشة الحاسوب في غرفة مكتبي بالبيت، دقَّ جرس الباب فنظرت في ساعة معصمي. العاشرة ليلًا! من الذي سيجيء في هذا الوقت المتأخر؟ لم يتصل بي أحد لينبئني بمجيئه، البواب هو الاحتمال الوحيد. ما الذي جاء به؟ اتجهت إلى باب الشقة، نظرت في العين السحرية قبل أن أفتحه. رأيت وجهها. كانت تنظر خلفها ثم وجهت بصرها صوب الباب. ما الذي جاء

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

بسامانثا في هذا الوقت المتأخر؟! انتبهت مشدوها إلى أنها لا تعرف عنوان منزلي، كيف عرفته؟ من أين أتت به؟ كيف واتتها الجرأة أن تقتحم خصوصيتي، وأن تأتي إلى عريني مهاجمة؟!

دقَّ الجرس بإصرار مرة ثانية، ورأيت ذراعها ممدودة على آخرها نحو زر الجرس. وضعت بسرعة روبًا على بيجامة النوم التي أرتديها. فتحت الباب، فدخلت مندفعة إلى الصالة دون استئذان.

ـ آسفة يا سامي، اضطررت إلى المجيء إليك.

أغلقت الباب مذهولًا من تصرف سامانثا، بينما جلست هي على أقرب كرسي فوتيه واضعة ساقًا على ساق!

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

(١٢)

«وساءلت نفسي إن كنت أحبها حقيقة وأنا أحيا في هذا الجو الملبد المشحون الذي يصبح الحب فيه شيئًا مخلًا يعاب ويستنكر، ساءلت نفسي، ولم أحتج إلى إجابة. كنت كمن يضيق أحيانًا ويرفع بصره ويتساءل: أين السماء؟ والسماء كبيرة ضخمة هائلة ممتدة من أفق لا بداية له ولا نهاية له».

(البيضاء)

أصوات الباعة الجائلين تتسلل إلى شقتنا في الدور الأرضي. أصوات معجونة بالحزن والشجن، ونداءات على خضراوات وفاكهة تبدو كأغنيات غجرية. أصوات تذكرني ببائعات التورتِلّا في المكسيك، وسلالهن المليئة بالفطائر الشهية، ونداءاتهن العذبة في الصباح. أخبرني يحيى أن كل نوع من الفاكهة والخضراوات له نداؤه المميز، أو بالأحرى أغنيته ومواله الخاص. من ناحية باب الشقة، تجتاح الصالة رائحة مميزة لتوابل شرقية، رائحة قلي أقراص الطعمية المصرية المُحَمَّرة في زيت بذرة القطن. يجاور باب مطعم شعبي مدخل العمارة التي نسكنها، ويكاد زحام المشترين يوصد الطريق أمام الداخلين والخارجين من السكان وضيوفهم. أصبحت بعد فترة قصيرة، معروفةً لصاحب المطعم وعماله! عندما أمُرُّ أمامهم يبتسمون ويلقون بالسلام.

في الصباح أجلس وحدي في الشقة، يقتلني الملل والانتظار.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

تأتي أم عمر قبيل الظهيرة مرتين في الأسبوع؛ لتقوم بإعداد الطعام الشرقي الذي نشأ عليه يحيى. تساعدني في التنظيف والتوضيب، وتحاول أن تبادلني الحديث رغم كلماتي العربية النادرة. علَّمتُها أن تقول: «سي» بدلا من «نعم»، و«نوو» بدلا من «لا». وعندما أسمع رنين الصاجات المعدنية التي تذكرني بأصوات الكاستيللو الخشبية لراقصي الفلامنكو، أعرف أن بائع الشراب الوطني ذا اللون البني يَمُرُّ الآن في شارعٍ المبتديان. رأيته عدة مرات، وهو يسير مقوسًا إلى الخلف حاملًا دورقه الزجاجي الكبير، ذي القاعدة النحاسية الصفراء اللامعة والمبسم النحاسي المقوس. على فوهة الدورق قطعة ثلج كبيرة، يسيل منها عرقها، ويتسرب إلى المشروب البُنى ذي المذاق الغريب. جلابيته البيضاء يُشَمِّرها بحزام أحمر على وسطه، وتتدلى من الحزام منشفة حمراء من جانب، ويقبع عدد قليل من أكواب زجاجية رخيصة تحت حزامه من جانب آخر. عندما شاهدته لأول مرة، وأنا أعبر الطريق مع يحيى، خامرني الشك في أنه «ماتادور» يتأهب لينزل حلبة مصارعة الثيران، ويتفنن في جذب أنظار المتفرجين. نطق يحيى اسم هذا المشروب أمامي عدة مرات: برقشوش، أو إرقشوش.. نسيت.. اسمٌ صعبٌ في بلد غريب.

عندما أسمع أصوات الكاستيللو المعدنية المصرية، أعرف أن يحيى سيفتح باب الشقة بعد دقائق، ويدخل وعلى شفتيه ابتسامة مجهدة، ويفتح ذراعيه على آخرهما، ويصيح بصوت خفيض مغمضًا عينيه:

ـ افتقدتك.. افتقدتك كثيرا يا رُوث.

أسرع إليه، ليحتضنني بساعديه القويين، ويضحك بصوت عالٍ هذه المرة غير آبه بأن تصل قهقهاته إلى الجيران.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

قد نجلس إلى مائدة الغذاء، وفي أحيان أخرى يستبد بنا الشوق، فنذهب من فورِنا إلى مخدعنا. نقضي القيلولة في احتضان طويل متبادل. أغفو على صدره بعد أن تخبو ألسنة نيران الغرام، وتخلي مكانها لرِضًا سعيد. يشعل سيجارته، ويترنم بلحن أغنية شرقية. حكى لي يحيى عن العيادة الطبية التي يعمل بها في ورش السكك الحديد. وشكا لي أحيانًا من ضجيج الصفوف الطويلة لعمال وسائقي القطارات. مرضى حقيقيين، ومدعي مرضٍ يطمحون في إجازات. عمل روتيني يذبحه، كما يقول. لكنه يقول دائمًا:

ـ عملٌ يتيح لطبيب كاتب مثلي وقتًا للكتابة والتأمل. لو كنت بمستشفى أو في قصر العيني، ما وجدت وقتًا بين الدراسة التخصصية، والممارسة الطبية للأدب والصحافة والسياسة.

أعد شاي ما بعد القيلولة، بينما يفضل يحيى أن يعدَّ لنفسه فنجان قهوته الذي يحبه. يتكئ في بيجامته المخططة، ذات الياقة والأساور من الساتان الأزرق، على البيك أب ـ الراديو الذي اشتراه بعد حضورنا إلى مصر مباشرة، وينظر في عينيَّ ليسأل:

ـ سنستمع اليوم إلى ريمسكي ـ كورساكوف، أم إلى تشايكوفسكي؟

ـ لا هذا ولا ذاك. سئمت الاستماع إلى ألف ليلة وشهرزاد كل يوم، ضع أسطوانة أوبرا كارمن لبيزيه. أحنُّ إلى إيقاعات أغنية «مصارع الثيران»، و«رقصة كوبية».

يبحث يحيى عن أسطوانة كارمن، يجدها ويضعها. يرفع ذراع البيك أب ويضعها على محيطها الخارجي، فتبدأ في الدوران. تتوالى ضربات أقواس الكمان على الأوتار سريعة متتابعة، وتنساب الموسيقى، وأسرح بخيالي معها.

أسحب سيجارة من علبة السجائر، وأرتد بظهري إلى مسند

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

الفوتيه الوحيد في الصالة، أضع ساقًا على ساق، وأسترخي بكل أعصابي. أَهُمُّ بإشعال لفافة التبغ، فيسبقني يحيى بعود ثقاب أشعله. تقترب عيناه من عينيَّ، وتنظران إليهما في تساؤل وحيرة. أتجاهل نظراته، وأغوص في الحوار الصاخب وشجار الترومبيت مع الكمان والطبول.

هل أصارحه بالملل الذي بدأ يتسرب إلى حياتي اليومية؟

انتظار ووحدة في الصباح، ثم لقاؤه، فسماع للموسيقى أو أحاديث أو زيارات لأصدقائه المقربين وزوجاتهم. لم يعرفني سوى بشوقي وفتحي وفؤاد والبارودي. كل الآخرين الذين رأوني مصادفةً معه، قدمني إليهم بصفتي إيطالية. أكد لي أن مكسيكيتي، واسم أبي الشيوعي الشهير سيسببان المشاكل لحياتنا. زوجة شوقي ممثلة مسرحية مغمورة لا تجيد الإنجليزية، وزوجة فتحي امرأة لم تكمل تعليمها الابتدائي ولكنها تتفجر حيوية ونشاطًا وابتسامًا، وفؤاد فنان تشكيلي وصحفي. فؤاد هو الوحيد بين أصدقاء يحيى الذي يسمع عن أبي، ويعرف موهبته في رسم الجداريات. البارودي زعيمهم السياسى، فقد بصره في السجن بعد لطمة وجهها إليه سجان، وزوجته مصرية من أصل إيطالي. البارودي يسبق في العمر قليلًا يحيى وأصدقاءه، لكنهم يتحدثون معه وكأنه بمثابة والدهم. زوجة البارودي تتحدث معي بالإيطالية والإنجليزية، لكن اهتماماتها جِدُّ بعيدة عن اهتماماتي. «ديدي» منغمسة في اجتماعات ولقاءات، وتمتلك دكانًا صغيرًا لبيع الملابس النسائية في وسط القاهرة.

يقطع تفكيري صوت يحيى الذي يحاول ألا يجعله أعلى من صوت البيك أب؛ فيبدو متناغما مع الأصوات الأوبرالية والموسيقى الحية الصاخبة.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

ـ أتعلمين شيئًا؟!

هذه الجملة السؤال تعني أنه راغب، ومتردد في بدء حديث طويل معي.

ـ أتعلمين؟ سينما مترو تعرض فيلم «ذهب مع الريح» هذا الأسبوع، اعتادت هذه السينما أن تعيد عرض هذا الفيلم كل سنة. هل تريدين أن نذهب لنشاهده معًا؟

ـ ليس لديَّ مانع، رغم أنني شاهدته كثيرًا من قبل.

ـ وأنا أيضا شاهدته من قبل، لكنه تحفة يا رُوث. هيًّا نذهب! سنلحق بحفلة السواريه، بعد أن تسمعي كارمِنَك.

وكأن يحيى يشعر بما ينتابني من زهق! شهور قضيتها في مصر بلا عمل حقيقي، أنا التي تعودت على النشاط المتدفق والعمل الدائب. يذهب يحيى إلى غرفة النوم، ويحضر كتابًا، ثم يجلس على مكتبه في الردهة وينظر فيه. أسترجع مع نغمات الموسيقى شريط حياتي في الجامعة في المكسيك وروما. لم أكن طالبة عادية، تذهب إلى المحاضرات في مواعيدها، وكل همها أن تذاكر لتتفوق وتنجح. كنت مقبلة على الحياة بكل عنفواني، وكل ما فيَّ من حب للفن والإبداع.

يقول بابا بكل فخر:

ـ رُوث ابنتي، هي الأنثى الأولى التي اقتحمت مجال الهندسة المعمارية في البلاد.

وتقول أمي لأختي الكبرى:

ـ هل ترين كيف ترقص رُوث كفراشة؟! انظري إلى قسمات وجهها وهي تمثل! شقيقتك ورثت موهبتي وموهبة أبيها معًا، وتركت لك السياسة والاقتصاد.

أتذكر معلمتي والدين فوكنشتين، وصديقها المخرج الياباني

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

سيكي سانو؟ الأولى علمتني الرقص الحديث في فرقتها، والثاني دربني على التمثيل. حفلات الجامعة شهدت تألقي، وهل هناك من كان والده رسامًا عالميًّا بحجم دييجو ريفيرا، ووالدته ممثلة وكاتبة معروفة مثل لوب مارين، ثم تأتي لترتقي بمواهبه وذوقه والدين الراقصة العالمية، ذات الأصل الأمريكي، التي استوطنت المكسيك؟! يشرف زوجها سيكي سانو بنفسه على إخراج مسرحية أقوم بالتمثيل فيها في دور لا هو بطولة، ولا ثانوي. يستدعيني إليه سانو بأبوة بالغة بعد البروفة، ليسأل عن صحة والدي.

أعرف من زوجته والدين، أنه هو من ترجم نشيد الأممية لأول مرة إلى اليابانية، فأسألها:

ـ وما الذي دفعك معه إلى الهجرة إلى المكسيك؟

فترد بتنهيدة يرتفع فيها صدرها:

ـ الحب يا ابنتي، والفن، والثورة الشيوعية.

هل كانت قصة والدين فوكنشتين وسانو اللذين جمعهما الحب من أبعد زاويتين في الكوكب في مؤخرة رأسي، عندما التقيتِ مع يحيى في فيينا؟ الفن والثورة والحب، ياله من هدف ثلاثي الأبعاد. أيهم يأتي أولًا، أو أخيرًا؟ هل يبدو تلازمهم أبديًّا ولحظيًّا في الوقت نفسه؟!

وردة فواحة أنت يا رُوث، لا يمكن أن يحتكر أريجها شخص واحد وقعت في غرامه، فتنسيْ أباكِ وعائلتك وعملك وفنك. وردة حمراء كالورود المغروزة في شعور المكسيكيات، كالزهور الطائرة في الهواء لتهدى للماتادور البطل الشعبى المنتصر في حلبات مصارعة الثيران. تقضين وقتك في القاهرة بلا عمل، على هامش الحياة. تحبينه وهو يحبك، ولكن إلى متى ستقاومين الحنين إلى وطنك وعائلتك

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

وأبيك وعملك؟! نعم، عملك الذي استلمته للتو، منذ أشهر، في كلية العمارة بمعهد البوليتكنيك بمكسيكو سيتي. كيف تركتِ وراءك طلابًا جاءوا ليستمعوا لمحاضرات أول معمارية في المكسيك؟! مكثتِ في روما عامين لتدرسي تخطيط المناطق الحضرية والمدن. تحصلين على دبلومة الدراسات العليا، ثم تضحين بماضٍ ومستقبل من أجل نزوة عشق محمومة!

تتذكرين وجه أبيك المندهش لقرارك بالزواج بيحيى. وبقلب الفنان المحب، لا بعقلية استحواذ الأب، لا يقف أمام رغبتك وحبك. احتضنك كما يفعل دائمًا، ونظر في عينيك مليًّا، ثم قال:

ـ حبيبتي، أعلم جيدًا أنك عاطفية مثلي، لا تستطيعين مقاومة رغباتك ومشاعرك. لن أعارضك، خوضي تجربتك معه. كبرتِ يا رُوث، واشتد جناحاكِ، وليس من حقي أن أمنعك من التحليق في السماء!

اتجه صوب نافذة غرفة الفندق التي كنا نقيم فيها في فيينا. أزاح ستارة الدانتيلا الرقيقة جانبًا، ونظر عبر زجاجها. أخفى وجهه، ودموعًا أبت أن تنفرط أمامي. مازلت أتذكر ضوء النافذة الذي يشع من حول جسده الضخم المترهل، ورأسه الكبير المنحني إلى الأمام. جاء صوته ملتاعًا:

ـ هل هو الشخص الذي رأيته معك أكثر من مرة في المؤتمر؟

ـ نعم، هو المصري الذي اعترض طريقنا ليحييك.

رغم مرضه الخبيث، أدرك بابا أنني غارقة لأذنيَّ في الحب. لا أحد في الدنيا يستسلم للحب، كما يفعل دييجو ريفيرا. تزوج ثلاث نساء تباعًا، وأحب عشرات النساء. أخذ كفي بين يديه الضخمتين الرخوتين، ونظر إلى أسفل متأملًا نقوش سجادة فارسية تغطى أرضية الغرفة:

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

- رُوث! لا أعرف ما سيبقى أمامي من سنوات، وصحة فريدا تتدهور بشكل كبير. لم يبقَ من ذريتي سواك، أنت وجوادلوب. أنت الوحيدة التي تفهمين قيمة ما سنخلفه من ثروة فنية في كويوثان. اقطعي على نفسك وعدًا أن أراكِ لو ساءت الأمور، وأن ترعيْ مرسميْنا ليكونا معرضًا مفتوحا لمن بعدنا.

- أعدك يا بابا.. أعدك.

انتبهت على صوت كارمن وهي تصرخ متألمة من طعنة حبيبها دون خوسيه. مازال يحيى منكبًّا على مكتبه، لكنه يمسك بأوراق بين يديه ويقلب فيها. بدا لي اللحن الختامي للأوبرا مؤثرًا وعنيفًا. صراخ كارمن ودون خوسيه ومصارع الثيران - حبيبها الأخير - أحيا مشهد مقتلها على درجات الإستاد أمام ناظري.

توقفت الموسيقى وظلت الأسطوانة تدور، ارتفعت ذراع البيك أب عن الأسطوانة، فقمت وفصلت عنه الكهرباء وأغلقته. لم ينتبه يحيى على الفور، ظل يقلِّب أوراقه. فوجيء بي أمرُّ من أمامه، فنظر في ساعته، وقال:

- هيًّا بنا فقد نتأخر!

استوقفنا عربة تاكسي، وركبناها. المسافة قصيرة، دفع يحيى ورقة بعشرة قروش. الأضواء تحيط بواجهة السينما الزجاجية، وجمهور على الرصيف ينتظر فتح الأبواب المؤدية إلى صالة العرض. ذهب يحيى، واصطفَّ في طابور شراء التذاكر. انتظرته، جلت ببصري حولي. غطت أفيشات الفيلم جدران السينما، بينما توزعت صور فوتوغرافية للقطات منه في فاترينات زجاجية ملونة. استحوذ على اهتمامي الأفيش الذي يحمل صورة وجه كلارك جيبل، وهو يقترب من وجه فيفيان لي ليقبلها.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

يا إلهي! هذه الصورة لفت كل أنحاء الكرة الأرضية، منذ اثني عشر عامًا، وأصبحت رمزًا للرومانسية والحب الذي لا يموت. في نظراتهما واقتراب وجهيهما شوق وظمأ ينشد الارتواء. أصبح الأفيش أيقونة الحب في جيل ما بعد الحرب، جيل بدت له الحدود بين الدول، لا تمثل حواجز تمنع الالتقاء. الحب واحد، يجمع بين البشر.

عندما أظلمت قاعة العرض، أمسكتْ كفّ يحيى بيدي. بدأ عرض جريدة مصر السينمائية، هكذا كان اسمها مكتوبًا بالإنجليزية. صور وأخبار متتالية للجنرال نجيب بابتسامته المتكلفة، وحوله ضباط في بزاتهم العسكرية، ثم ظهرت صور ومشاهد لأشخاص في قفص اتهام، ومنصة عالية يجلس عليها ثلاثة ضباط يبدون كقضاة. كان صوت المعلق حماسيًّا ومرتفعًا، بينما استعرضت الكاميرا وجوه الضباط جيئة وذهابًا. رئيس المحكمة - مقطب الجبين - ينظر بضيق إلى الحضور، إذا كان القاضي بهذه الصورة، فما بال المتهمين؟! يبدو عضو اليسار غارقًا في أفكار هائمة، ينظر بوجوم في أوراق أمامه. وتقترب الكاميرا في لقطة زووم مفاجئة من عضو اليمين، فيملأ وجهه الشاشة بأكملها. يبدو مبتسمًا للغاية، فتنفرج شفتاه بأقصى ماتستطيع عن أسنان بيضاء شديدة النصوع، في تناقض مع لون وجهه الأسمر الداكن. كان منظره غريبًا في هذه المحكمة العسكرية القاتمة. لقد أعطته أذناه الطويلتان المنتصبتان، وشدقه المشدود إلى شحمتيْ أذنيه هيئة مهرج سيرك في قاعة عزاء.

انتبهت على كفّ يحيى، تضغط بعصبية على يدي وتعتصرها. التفتُّ، فرأيت جانب وجهه، وتلاوين الضوء المنعكس من الشاشة تتتابع عليه. تبرق عيناه من فرط الإثارة والترقب. كانت هناك همهمات تصدر عن المتفرجين، سرعان ما أعقبها صمت رهيب

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

تواكب ـ كما فهمت ـ بإصدار حكم على كهل بالإعدام. مع بدء عرض فيلم «ذهب مع الريح» أخذت قبضته تسترخي، وتستعيد حنوها. في الاستراحة أضيئت الأنوار، فكفَّ عن احتضان يدي. كان باعة المرطبات والحلوى والأيس كريم يمرون بين صفوف مقاعد المتفرجين، ينادون على بضاعتهم بصوت هسيس. اشترينا لوحين من الأيس كريم، وأخذنا في لعقهما. مع بدء الجزء الثاني من الفيلم الطويل، لاحظت أن نهنهات بكاء ومصمصات شفاه تتردد خافتة في القاعة. كان الصراع محتدمًا بين كلارك جيبل وفيفيان لي، هو يحبها ويريد فرض سيطرته عليها، وهي تقاوم رافضة رغم نيران رغبتها. لا ينتهي الصراع الخالد بين المال والسيطرة والحب المُرّ، إلا وفيفيان لي تقف أمام بيتها، وقبضة يدها ممسكة بحفنة تراب. تنساب دموعها، وهي ترى كلارك جيبل راحلًا عنها، ثم تكفكفها وترفع رأسها بعزيمة وعناد، وتقول: «غدًا... يوم آخر»!

بعد العرض، رجعنا إلى المنزل مباشرة. حاولت أن أخرج يحيى من نوبة الصمت التي انتابته

ـ اسمع يا يحيى، صاحب دار السينما عندكم قام باختصار الفيلم لحسابه!

ـ كيف؟!

ـ مدة الفيلم الأصلية أكثر من مائتي دقيقة، ونحن لم نشاهد سوى مائة وخمسين دقيقة منه!

اصطنع الاندهاش، وردَّ بسخرية:

ـ يبدو أنهم لا يكتفون بمنع المقالات والمواد بالصحف، فأصبحوا يختصرون الأفلام السينمائية حتى ننام مبكرًا ونطبق بحق شعار «الاتحاد والنظام والعمل»!

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

ـ يحيى، لا تفسد ليلتنا. أتعرف أن فيفيان لي هذه كادت أن تفقد دورها في الفيلم؟ كانت مرشحة ضمن عدد آخر من الممثلات الأخريات. تسببت جنسيتها البريطانية، ولكنتها الإنجليزية في معارضة تمثيلها دور سكارليت أوهارا. لكنها استطاعت أن تجيد ـ في فترة وجيزة ـ اللكنة الأمريكية بفضل مثابرتها.

حدق في الفراغ، وتحدث كأنه لا يوجه حديثه إلى شخص محدد:

ـ رُوث.. أرى أمامي شبح الدكتاتورية يقترب حثيثًا ليخيم على مصر. شبحًا بلكنة أمريكية أيضًا.

نظر نظرة حزينة ناحيتي، واغتصب ابتسامة مجاملة.

لم أشأ مجادلته في منتصف الليل.

قرب الفجر استيقظت قلقة من نومي. لم يكن في الفراش بجانبي. رأيت ضوء مصباح المكتب يأتي خافتا من الردهة عبر الصالة. خطوت صامتة على أطراف أصابعي، فوجدته محمومًا يكتب بسرعة وانفعال. لمح طيفي، لكنه لم يتحرك، واستمرَّ في الكتابة.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

(١٣)

«وكان يتكلم عن مصر ولكني كنت أحسُّ أن مصر التي يتكلم عنها غير مصر التي أعرفها. كان يتكلم عن الثورة ولكني أحسُّ من أعماقي أن الثورة التي يتكلم عنها غريبة عن نفسي تمامًا، وكأنها ثورة لا يمكن تحقيقها إلا في الكتب، وحتى الكتب التي يحملها كانت في أغلبها فرنسية».

(البيضاء)

بوستر فيلم دهب، ١٩٥٣

فيلم جديد نظيف في عهد نظيف

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

هذه الأيام، يهاجمني الاضطراب والقلق ليل نهار.

البلد على كف عفريت، ورُوث تحسُّ بالملل، يؤرقها وضع عائلتها في المكسيك.

أذهب إلى عملي بعيادة ورش السكة الحديد، فأجد صفوف العمال تنتظر للحصول على الإجازات المرضية ككل يوم. الأمور في المصلحة تحولت إلى فوضى مقننة، بعد أن أصبحت قرارات الضابط مندوب القيادة متناقضة، وأقوى من قرارات الوزير نفسه. انتشر ضباط الثورة في كل الوزارات والمصالح الحكومية كفطر عُشّ الغراب.

أصدرت الإدارة قرارًا باعتبار يوم الجمعة راحة أسبوعية إجبارية للعمال بدون أجر، وكان ذلك يعني نقصانًا فيما يقبضه العمال كل شهر. اكتشف العمال، بحذاقة المصريين، أنهم لو أخذوا يومين إجازة مرضية بدءا من يوم الخميس، فسوف يحسب لهم أجر يوم الجمعة. وهكذا فوجئت يوم الأربعاء بكل عمال الورش يقفون أمام مكتب العيادة. لا مكان لقدم. صفوف طويلة متعرجة من وجوه بائسة تنتظرني وتمتد إلى رصيف الشارع لعشرات الأمتار. ذهبت بلا طائل كل اتصالاتي التلفونية بوكيل الوزارة، ورئيس الإدارة، ومدير القسم الطبي. لا أحد يريد تحمل المسئولية، أو اتخاذ قرار يعيد الأمر إلى نصابه القديم. لم تنجُ غرفة الكشف من الازدحام. لم أستطع حتى تناول فنجان القهوة كعادتي في الصباح. حاول عم مرسي التومرجي إخراج المنتظرين من الحجرة. قدر على البعض، ولم يقدر على الجميع.

سكرتير النقابة، ذو السوالف الطويلة العريضة والشعر الأكرت، دقَّ بقبضته القوية على سطح المكتب:

ـ نريد إجازة. المرض قدر، والإجازة حق.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

ـ ولكنك لست مريضًا، كشفت عليك، ووجدتك معافى.

احتقن وجهه وانتفض كثور هائج، ووقعت علبة السجائر «كرافن أ» من جيب قميصه.

ـ أنت كذاب.

كأنه صوَّب رصاصة إلى صدري، صوت الرصاصة المدوي أعقبه سكون الصدمة، وصمت يعادل صخب ألف مشاجرة. أي سكون، وآلاف الأفكار والمشاعر تضطرب داخلي؟! هذا النقابي الأصفر الذي صنعته الإدارة وتغدق عليه، جاء ليصنع بطولة زائفة على حسابي. سجائر الكرافن المستوردة التي يدخنها، لا أسمح لنفسي بسيجارة واحدة منها، إلا أحيانًا كمكافأة بعد كتابة قصة. احترق صدري بسجائر الكوتاريللى الرفيع، قبل أن أذوق «الماتينيه»! لو أن عاملًا من جماعتنا كان حاضرًا، لدافع عني، وقال لهم من أكون.

لم يقطع هذا السكون إلا صوت صفعة وجهها عم مرسي التومرجي إلى وجه المتمارض الصفيق. وفي لحظة اكتظت الغرفة بالعشرات يُحَجِّزون بين عم مرسي وسكرتير النقابة. أغلبهم لا يرضون بأن يرد الصفعة لعم مرسي كبير السن، الذي يتمتع باحترام ومهابة لديهم. وتحولت همهات الغاضبين إلى هتافات وشعارات ضدي:

ـ يسقط طبيب الورش!

ـ يسقط الظُّلم!

هكذا يصبح عميل الإدارة ثوريًّا طاهر الذيل، وأبقى أنا الثوري نصير العمال متخاذلًا، أقف ضدهم وضد مصالحهم. تذكرت قول شوقي بالأمس، عندما استشرته فيما أتوقعه من متاعب في الغد بسبب قرار الإدارة.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ لا تمنح أحدًا إجازات. اجعلهم يواجهون الإدارة، ويأخذون حقوقهم المسلوبة. اعتبر أن هذا تكليف حزبي، وليس رأيًا ومشورة.

وفي لحظة برقت الفكرة في ذهني، ونضج الموقف كي أحدثهم. رفعت صوتي حتى يسمعني الجميع.

ـ اسمعوا.. لو أعطيتكم جميعًا إجازات، وهذا غير معقول أن توافق عليه الإدارة، فلن تُحلَّ المشكلة. ستنتهي إجازاتكم المقررة بعد أسابيع قليلة، وسيرجع خصم أيام الجمع. ثم أترضون أن أعطيكم جميعًا الإجازات، ثم أُرفد وأُحبس؟! سيأتون بطبيب جديد، وقد يستنجد بالإدارة والجيش والبوليس.

كانت ردودهم التي تبينتها في جلبة الصياح، تفيد بعدم الرضا عن فقدي عملي وسجني مقابل إعطائهم الإجازات. لكنهم مازالوا مصرين على الإجازة.

وانحلَّت المعضلة، عندما جاء وكيل الوزارة بصحبة ضابط كبير من الشرطة، بعد مكالمة هددته فيها بالاتصال بالوزير شخصيًّا أو بمستشاره العسكري، تمَّ الاتفاق على عودة العمال إلى عملهم بدون إجازات، مقابل عدم توقيع خصومات عليهم بسبب تغيبهم عن العمل في ذلك اليوم. وأخذ سكرتير النقابة يطنب ويزيد، ويؤكد أن جهوده الحثيثة وحديثه المتشدد مع وكيل الوزارة، هما اللذان منعاه من إصدار قرار بفصلهم!

يُصِرُّ البارودي على عقد لقاءات دورية معي. التقيت به في مكتبه بميدان الأزهار، بعد أذان صلاة الظهر. كانت النافذة وراءه تكشف عن الميدان ومحطة الترام ذات الأرصفة المتعددة. ظلت النظارة

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

السوداء على عينيه طول اللقاء. كان شوقي حاضرًا ومنشغلًا بكتابة مقال أو بيان، لا أذكر بالضبط.

مدَّ البارودي يده ليستند إلى حافة مكتبه، فاصطدمت بكوب ماء، ودلقته. أخرجت منديلًا من جيبي، وجففت ما اندلق. أحسَّ البارودي بالحرج، فنادى على الساعي، الذي أتى مضطربا ليرفع الكوب. اتجه البارودي ناحيتي وسأل:

ـ كيف أحوالك وأحوال رُوث؟!

ـ جيدة، على مايرام!

ـ رُوث يا يحيى، ستسبب لك مصاعب في حياتك ومستقبلك السياسي.

فوجئت بتدخله الغريب في حياتي الخاصة. تمالكت غضبي، وكبحت نفوري من كلماته، وقررت أن أستدرجه في الحديث:

ـ لماذا؟!

ـ أنت تقدمها للآخرين على أنها إيطالية، ولكن هل تعتقد أن المباحث العامة لا تعرف أنها شيوعية مكسيكية؛ ابنة لأحد زعماء حركة السلام على مستوى العالم؟ ومن ناحية أخرى، تحيط الشبهات بوالدها داخل الحركة الشيوعية. طرده الحزب؛ لآرائه التحريفية. واضح أنه متأثر بآراء صديقه تروتسكي! ومن عجب أنه كان متهمًا بقتل تروتسكي.

تعجبت من قدرة البارودي على الإحاطة بمعلومات أعرف بعضها فقط من رُوث. نعده مثقفًا رفيعًا، ولكن أن يصل إلى المكسيك، تلك هي المفاجأة. لاحظت أن شوقي قد اهتمَّ بحديث البارودي، فنظر من فوق إطار نظارته ناحيتي، وأشاح بوجهه إلى أعلى، كأنه ينصحني بالتجاهل. غمزت بعيني لشوقي، مستغلًّا عمي البارودي.

 telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

لم أشأ ألا أعلق على حديث البارودي، فتساءلت محقًّا:

ـ البوليس من المؤكد أنه يعرف، لكن لماذا رُوث بالذات، وزوجتك هي الأخرى إيطالية؟! صحيح أنها من المتمصرين، ولكن ألم تُهجِّر السلطات الأجانب وتسحب جوازات سفرهم المصرية، وخصوصا الشيوعيين منهم؟

زام البارودي، وبانت على وجهه علامات الضيق.

ـ تقصد ديدي؟! ديدي مصرية، ورفضت أن تهاجر إلى إسرائيل مثل أخيها. لا تخلط الأمور يا يحيى، لقد تزوجت رُوث دون أن تخبر التنظيم، وتستأذنه. وسافرت من فيينا في جولة سياحية إلى أوروبا الشرقية امتدت إلى أسابيع، فتأخرت عن عملك وكدت أن تفقده. أفهم أن الأديب والفنان لهما شطحاتهما، ولكن أن يصل الأمر إلى التسيب والتحلل من الالتزام الحزبي. فهذا أمر آخر!

أدرك شوقي أن الحديث يأخذ منحى غير مأمون، فتدخل قائلًا:

ـ الحقيقة أن يحيى أبرق لنا بزواجه، فقمت أنا وفؤاد بتجهيز شقته في المبتديان لتكون في استقباله مع عروسه رُوث.

ـ هناك فرق يا شوقي بين إبلاغكم كأصدقاء، واستئذان التنظيم. لا تنسَ أن يحيى كان في مؤتمر لأنصار السلام بالخارج. صحيح أن لجنة أنصار السلام تضم مختلف فصائل الوطنيين، لكن يحيى محسوب علينا.

استفزني منطقه المغلوط، وأحسست أن البارودي يمارس ساديته. لقد مثلت رُوث بالفعل تحديًا لزوجته ديدي وصديقاتها. كانت ثقافة رُوث المتنوعة سببًا كبيرًا لغيرتهن، وكانت رفيقاتنا في التنظيم للأسف لا يتمتعن بمثل هذه الثقافة والروح الرحبة للأخريات في حلقات التروتسكيين والفوضويين والسرياليين الملتفة حول التلمساني

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

وحنين ويونان. ستمر الأيام والسنون بعد ذلك، وستترك ديدي زوجها البارودي سجينًا في المعتقل، وترحل، ثم تطلب الطلاق.

قلت له بإصرار:

ـ يا أستاذ، أنا لست صغيرًا كي يقرر لي التنظيم بمن أتزوج، ومن أطلق! أنا كاتب وفنان، مدى تأثير قصة واحدة مني، قد يكون أكبر من مدى عمل التنظيم لشهور! ألا يجعلك تعيد حساباتك خبر وفاة ستالين الذي ملأ الصحف صخبًا في الأيام الأخيرة؟ إلى متى نغلِّب الإحساس بفقد الأب على الرغبة في قتله؟ انتهت مرحلة من تاريخ الاشتراكية تحمل من التناقض أكثر من الانسجام مع المبادئ والمُثل.

وكأن أفعى قد لدغته، انتفض مرتعشًا، والكلمات تقفز من فيه بلا ترتيب. كان لعابه يتراكم في زاويتيْ فمه، فيفيض على شدقيه.

ـ يا نهار أسود! لم تكد تمر أيام قليلة على موت الرجل، ويبدأ المراجعون في محو إنجازاته. ألا تخجل يا يحيى أن تتلفظ بهذا الكلام؟! ستالين الذي أنقذ العالم من براثن الفاشية، ووقف أمام الأمريكان؟! ربما، لم يسعفك نظرك أو وقتك أن تقرأ مقالة الشيخ خالد محمد خالد «طبتَ حيًّا وميتا يا رفيق» في صدر جريدة المصري.

ـ يا أستاذ، أنا لم أنازع في زعامته، وإنجازاته. أنا فقط أرصد المشاعر الممتزجة من لوعة فقدان الزعيم، وإحساس بالراحة من وطأة ظله.

ـ كل ما سيشاع في الأشهر المقبلة عن جرائم مزعومة، واستبداد، وقتل، ماهو إلا إشاعات ستبثها أجهزة الاستخبارات الغربية.

ـ هذا صحيح في الغالب منه، ولكن لا يمكن إنكار حالة عبادة الفرد المبالغ فيها، والتي تحوله إلى إله.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ ألم أقل إن حماك قد أكل عقلك، هو وابنته!

ـ لا دخل للرجل بالموضوع. لماذا إذن ننتقد التنظيم الآخر الشيوعي المنافس لتنظيمنا، والذي ينهى بياناته دائمًا بعبارة «عاش الرفيق خالد ألف عام»؟ ألم نقل إنهم يجعلون من زعيمهم أسطورة تعيش لألف عام؟!

ـ أنت تعرف يايحيى أن هؤلاء الذين يدعون الثورية انتهازيون، وأن تنظيمنا هو التنظيم الشيوعي الثوري الوحيد في مصر. ألا يكفيك أننا الوحيدون من ضمن كل المنظمات اليسارية، الذين شاركنا في ثورة يوليو، وأصبح لدينا من يمثلنا داخل قيادتها.

تعبير «ثورة يوليو»، كان جديدًا وقتها. قامت الثورة، وأطلق القائمون عليها «الحركة المباركة». ورأى كثيرون أنها انقلاب عسكري، فكل الأعراف تؤيد ذلك. أما ثورة!، فقد بدت الكلمة على لسان البارودي كقطعة حلوى مغلفة في ورق سوليفان. في الحقيقة، كان طه حسين أول من أطلق عليها ثورة في مقال له نشر بعد قيامها بأسبوعين. ولكن العالم تعامل معها كانقلاب عسكري. وبالنسبة إليَّ، كنت متعاطفًا مع حركة الجيش عند قيامها. كنت أستعد لإجراء عملية جراحية وأنا في سنة الامتياز، إلا أن زميلًا أخبرني بالبيان الذي أذاعه الجيش في الراديو، تركت ما بيدي وركضت إلى الشارع. ذهبت إلى ميدان عابدين، فوجدت دبابات الجيش تحاصره، والناس في حبور. كان الملك قد تدهورت شعبيته في السنين الأخيرة، وتناثرت الأقاويل بشأن فساده وتحلل عائلته.

تحسس البارودي ساعته. ورغم أنه فقد نظره، فإنه ظلَّ يحمل ساعة في معصمه الأيسر! وكان معنى ذلك أن اللقاء قد انتهى. كنا قد سمعنا أذان العصر من ميكروفون مسجد الأوقاف القريب.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

اتجهت مع شوقي إلى مقهى قريب، وانتحينا في زاوية قريبة من إحدى نوافذه الكبيرة الواسعة.

تغطي المرايا الجدران الداخلية للمقهى، وتلُف أعمدة تتوسطه وتفصل بين طاولاته ومقاعده. تتناثر الملصقات فوق الأعمدة؛ لتعلن عن أنواع مختلفة من المشروبات الروحية، والسجائر، وشاي «الشيخ الشريب». على رفٍّ بالحائط، وفوق المكتب الذي يجلس إليه صاحب المقهى مذياع خشبي كبير ماركة «جروندج»، يصل صوته بدرجات متفاوتة إلى مختلف الزوايا. يأتي صوت المذيع بدر الدين يقدم وصفًا لمباراة كرة قدم، ويتابعه معظم الجالسين بانتباه.

وضع شوقي حقيبة يده الكبيرة على كرسي بجانبنا، فتحها بأناة واهتمام. أخرج منها منشفة الوجه، وصابونة موضوعة داخل ظرف أصفر كبير. ذهب إلى الحمام القريب، وبقيت أنتظره. شوقي، رغم زواجه، يعتبر حقيبة يده بيته المتنقل. بيتًا ممتلئًا بالمقالات، وورق الصحف الدشت الجاهز للكتابة، ومجموعة أقلام، وبيانات التنظيم، وغيارٍ من الملابس الداخلية، وشبشبٍ من المطاط. قلم شوقي لا يُبارى، وكتاباته رشيقة. يكتب في أخبار اليوم ويتعاون مع روز اليوسف، ويساعد على تحرير جريدة أنصار السلام.

بداية صيف، وزجاجتا البيرة المثلجة تنتظران في إغراء رشفاتنا الظمأى.

غمس إصبعه في الرغاوي البيضاء، ثم مرره على حافة الكوب وقال:

ـ لم يعجبني الحديث الذي جرى بينك وبين البارودي.

ـ ولا أنا أيضًا! ولكن هل أنت تناصره فيما قاله؟

ـ لا بالطبع، ولست متفقًا بالكامل مع كل ماقلته أنت.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ كيف؟

ـ وجود رُوث ـ بلا شك ـ يمثل ضغطًا كبيرًا عليك. حياتها في كنف والدها، كانت رغدة بالمقارنة مع ظروف حياتها هنا. دييجو ريفيرا، قد نجهله هنا. لكنه فنان عالمي شهير، ومن المؤكد أنه مليونير شيوعي. أنت رأيت بنفسك كيف يستقبلونه. الأحوال في مصر مضطربة للغاية، أبواب المعتقلات أصبحت دوارة كأبواب الفنادق الزجاجية، لا نعرف متى ندخلها ومتى نخرج منها. باشوات وعمال وصحفيون وشيوعيون ووفديون وإخوان يقبعون داخلها. قرار من مجلس قيادة الثورة يبهجنا، فيردفه قرار آخر يحبطنا ويثير المخاوف.

ـ لكن أموري المادية تحسنت كثيرًا هذا العام مع ظهور رُوث في حياتي. تسعة عشر جنيها من وظيفتي بوزارة الصحة، وأربعون جنيها من جريدة المصري باتفاق مع أحمد أبو الفتح، وعشرة جنيهات من مستوصف أذهب إليه أربعة أيام في الأسبوع لمدة ساعتين. سبعون جنيهًا في الشهر، هم ثروة لا يستهان بها.

كنت أعرف بدوري أن أحوال شوقي المادية في تحسن بسبب موهبته الصحفية، ونشاطه الدائب. كان هو وفؤاد صديقين مخلصين، ظلَّا يهيآن مسكني قبل قدومي مع رُوث حتى يليق بها. اشتريا الستائر، وأخفيا عيوب الجدران المتآكلة بالطلاء، ثم حاولا إسعادي باستقبال يليق بعروسين شابين موسرين.

تجرعت نصف كأسي مرة واحدة، ولم أكد أنزله من فمي، حتى سمعت طبلًا وزمرًا وصياحًا في الشارع. نظرت عبر النافذة القريبة منا، فوجدت موسيقيين بائسين يرتدون زى فرقة حسب الله، ببذلاتهم الصفراء ذات الأزرار النحاسية اللامعة، وقبعاتهم الحمراء. يحيطون بهرم خشبي يتحرك على عجلات، ويدفعه رجلان بأذرعهما. يغطي

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

الهرم العديد من أفيشات فيلم «دهب». أنور وجدي يعزف على آلة الأكورديون، وبجانبه الطفلة المعجزة فيروز. الاثنان في ملابس المتشردين يبتسمان.

اندفع صبية إلى المقهى يوزعون أوراقًا صغيرة، تنبئ بأن الفيلم يُعرض على شاشات دور سينما ميامي وسهير وكوزمو والشرق. أعلى الأفيشات، كانت هناك ملصقات مستطيلة فوق الهرم الخشبي مكتوبًا عليها بالأزرق والأحمر.

فيلم جديد نظيف في عهد نظيف

أومأت برأسي ناحية الجلبة السائرة على قدميها، وقلت لشوقي:

ـ حتى أنور وجدي يؤيد العهد الجديد، ويمالئ الضباط!

ابتسم، وعبث بمحتويات الحقيبة من جديد، وأخرج صحيفة منها، ودفعها ناحيتي. أشار إلى خبر طويل في الصفحة الأولى، وضحك.

قرأت بإمعان:

(شهد بالأمس اللواء نجيب اجتماع اللجنة الموسيقية العليا التي ضمت كلًّا من وزير المعارف والإرشاد القومي وأم كلثوم ورياض السنباطي ومحمد القصبجي وعبد الحليم علي، وألقى خلال هذا الاجتماع كلمة، حثهم فيها على الارتفاع بمستوى الأغاني، وندد بالأغنيات «الخليعة»، ثم أكدَّ رئيس مجلس قيادة الثورة على أن مصر بحاجة إلى المزيد من الموسيقى الحماسية التي تهذب النفس وتشيع فيها القوة. ثم توجه إلى أم كلثوم قائلًا: «إنني أضع عليك آمالًا عريضة في الارتقاء بمستوى الأغاني في الفترة القادمة». ولم

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ينصرف اللواء نجيب إلا بعدما حصل على وعد منها بهذا، هي ومن حضر من الموسيقيين).

رفع شوقي نظارته الطبية، وأراحها على جبهته. قطب بين حاجبيه، ونظر في جدية إليَّ.

ـ من الواضح أن هناك صراعات داخل ضباط الجيش. هناك من يؤيد الرجوع إلى الديمقراطية بعد تطهير الأحزاب، وهناك من يريد انفراد الجيش بالحكم. تنظيمنا شارك في الثورة، ولن يضع نفسه في خندق واحد مع الإقطاع والباشوات ضدها.

ـ ومن قال لك إنني أقف ضدها؟ أنا ابن فلاح، يعرف قيمة قانون الإصلاح الزراعي وتوزيع الأراضي على الفلاحين المعدمين. يستفزني أن تكون أجرة الحمار في اليوم أكثر من أجرة النفر في الترحيلة. نحن يا شوقي جيل تمرد على كل الأحزاب القديمة، جيل انجذب إلى أفكار ورؤى لا تشايع ديمقراطية الطرابيش. الشيوعيون والاشتراكيون والإخوان والطليعة الوفدية؛ كل هؤلاء سحبوا البساط من تحت أقدام القيادات الحزبية القديمة.

بالفعل لم أكنَ من دراويش الديمقراطية، لكن إعدام خميس والبقري في كفر الدوار في سبتمبر الماضى، دق مائة ناقوس إنذار في رأسي. انتبهت على أغنية عبد الوهاب الجديدة الآتية من المذياع، الذي قام صاحب المقهى برفع صوته.

«كليوباترااا

أي حلم من لياليك الحساانِ

طاف بالموج فغاانى وتغنى الشاطئانِ

وهفا كل فؤادٍ وشدا كلُّ لسانِ

هذه فاتنة الدنيا وحسناء الزماانِ».

ليَّن الطرب ملامح شوقي الحادة، واسترخى في جلسته بتأثير البيرة المثلجة. شوقي صاحب صوت جميل، كم من مرة أحيا أمسيات شلة الطلبة بأغاني عبد الوهاب. كان يهز رأسه، وكنت منبسط الأسارير. رشفت رشفة من كأسي، وسألت:

ـ ألم تلاحظ أن عبد الوهاب لم يكن ضمن اللجنة الموسيقية العُليا؟

رفع حاجبيه، ولم يرُد. كان واضحًا انسجامه مع الأغنية. أشعل سيجارة، ونفث دخانها ببطء ودلال.

«ليلنا خمر وأشواق تغني حولنا
وشراع سابح في النور يرعى ظلنا
ليلنا خمرٌ
ليلنا خمرٌ
ليلنااااا... خمرٌ».

أغمض شوقي عينيه، وترنم بصوت خفيض. أنزل نظارته إلى أرنبة أنفه.

ـ يحيى، ألم يقل اللواء نجيب: لا للأغاني الخليعة، نعم للأناشيد الحماسية؟

ـ أي خلاعة في نظم علي محمود طه؟!

ـ طبعًا خلاعة، ألم يقل: «خمرٌ»، ومدَّها حتى آخر الليل؟!

صوت عبد الوهاب، كعصا موسى التي ابتلعت كل الأصوات، أجبر الجالسين على خفض أصواتهم والحديث في همس.

نبهني شوقي في مزاح إلى أن عبد الوهاب نقيب الموسيقيين يستطيع أن يغني كما يشاء، بحماس أو برومانسية أو بميوعة. أما غيره، فلا!

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

قلت له:

- إذن، فوجود أم كلثوم في اللجنة الموسيقية محاولة من الضباط الأحرار لاسترضائها بعد تعيين عبد الوهاب نقيبًا للموسيقيين، وإنهاء رئاستها للنقابة التي أنشأتها وترأستها لسبع دورات نقابية متتالية.

ردَّ موافقًا:

- نعم، لقد أرعبتهم «السِّت» عندما قام مسئولهم في الإذاعة بمنع أغانيها؛ بذريعة أنها غنت لفاروق وفؤاد. أعلنت عن عزمها اعتزال الغناء نهائيًّا، فذهب نجيب وعبد الناصر وعبد الحكيم عامر لاسترضائها.

- صحيح، ناس يخافون ولا يختشون! كانت ستقوم ثورة شعب ضد ثورة الجيش!

قهقه شوقي، وتعجبت من بلاغة ما قلته رغم مزاحي.

نظرت إلى ساعتي، فوجدتها السادسة مساء.

- تأخرت يا شوقي على رُوث. هيًّا بنا.

كنا قد شربنا أربع زجاجات بيرة، فأعطينا عامل المقهى حسابه، وخرجنا.

سلكت شارع الفلكي سيرًا على الأقدام. وفي الطريق اتفقت مع محل للسلع المنزلية على شراء ثلاجة خشبية لمسكننا.

وضعت المفتاح في باب الشقة وأدرته، لكنه لم يفتح.

في أثناء وقوفي مستغربًا ما حدث، انفتح الباب. كانت عيناها محتقنتين ومنتفختين. دخلتُ، وأغلقتُ الباب ورائي.

اندفعت رُوث في صياح متواصل:

- كيف تطاوعك نفسك على أن تتأخر عن موعدك، وتتركني قلقة عليك؟! وحيدة في بلد غريب، لا أعرف لغته، ولا أحد فيه!

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

أنا لا أستحق كل هذا يا يحيى. ألا تدرك كم خفت عليك في هذه الظروف؟! لا تلفون عندنا، وحتى لو كان لدينا تلفون، فبمن أتصل به لأسأل عنك؟

أدركت كم تعذبت المسكينة، فبدأت أهدئ من روعها. كانت ضلوعها تنتفض، وهي بين ذراعيَّ. تواصل نشيجها في عصبية وانفعال زائد.

لم أستطع بالطبع أن أصارحها بالحقيقة، وأننى كنت على المقهى مع شوقي نتحدث ونستمع إلى عبد الوهاب. اضطررت للكذب.

ـ اهدئي يا عزيزتي. اهدئي، لقد نقلنا راقية زوجة شوقي إلى المستشفى بسبب نزيف حاد. كانت بين الحياة والموت.

بدأت تهدأ، فأخذتها بين أحضاني. أوسدت رأسها الصغير على صدري، وبدأت بدوري أتأمل ما حدث. أَلَّفتُ قصة، لكن بلا متعة حقيقية. كنت مستاءً من نفسي ومن أكاذيبي، وفي نفس الوقت منزعجًا من رد فعلها.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

(١٤)

«أرهفت أذني، ولكني لم أسمع صوتًا، غير أني كنت متأكدًا أني سمعت الجرس يدق.. فقمت، وقبل أن أصل إلى الباب بأمتار كنت قد لمحت خلف زجاجه شبحًا..هي..أقسم كانت هي..رأسها الصغير، خيالها النحيف كانا مرتسمَين على زجاج الباب..حتى ابتسامتها أقسم إني رأيت ظلها على الزجاج».
(البيضاء)

خرجت رُوث دافعة باب الشقة بكل قوتها. ظللت لدقيقتين واقفًا بلا حراك في الصالة. إلى أين تذهب هذه العنيدة؟ أرعبني السؤال، ودفعني إلى الخروج مسرعًا بالبيجامة إلى الشارع. نظرت يمنة في اتجاه السيدة ويسرة في اتجاه شارع قصر العيني، فلم ألمحها. يندر المارون وقت ما بعد الظهيرة. خطوات قليلة قطعتها في شارع المبتديان، سألت لمعي بائع الصحف الواقف قرب مزلقان قطار حلوان:

ـ ألم ترَ زوجتي؟!

نظر إليَّ متعجبًا، وهزَّ رأسه نافيًا. هو يعرفها بالتأكيد، كأجنبية تعيش في المسكن القريب. أدركت غرابة سؤالي وتصرفي. نظرت إلى قدميَّ فوجدتني حافيًا إلا من شبشب منزلي. رجعت مسرعًا إلى الشقة. ارتديت كامل ملابسي، وجلست على طاولة الطعام في الصالة. باب غرفة النوم مفتوح، ومصباحها مضيء في عز النهار.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ما الذي حدث بيننا؟ لم تكن أول مرة ينشب الشجار بيننا، لكنها الصفعة الأولى التي تلقتها من كفي ! لم أستطع تمالك غضبي. انتابتني نوبة ندم عنيفة على ما اقترفته، وبدأ وجهها يطارد نظراتي الضائعة التي تمسح جدران الصالة والشقة. كأنني أول مرة أنظر إلى هذه الحيطان التي قام الرفاق بتبييضها؛ لأجل العروس التي أحضرتها. تأملت لمسات رُوث الفنية التي حولت الشقة الصغيرة البائسة إلى عُشٍّ غرام حميم. ملأت رُوث أركان الشقة بقلل الفخار المصري، وفرشت الحصير في ممراتها. هذه أول مرة تخرج غاضبة من البيت! إلى أين تذهب، وهي غريبة في مدينة لا تجيد لغة أهلها، ولا تعرف دروبها؟ كم كنت غبيًا وقاسيًا يا يحيى؛ إذ آذيت من تحب وتعشق!

أخذت الأفكار تذهب بي إلى كل صوب، تُرى إلى من لجأت رُوث؟ هي لا تعرف عن قرب سوى شوقي والبارودي وفؤاد وفتحي سالم، لكنها لا تعرف الطريق إليهم. هل ذهبت إلى مقر المجلة القريب التي يعمل بها فؤاد؟ هي على بعد شارعين من بيتنا، في شارع محمد سعيد. ارتبت في وجود تفاهم وتواطؤ بينهما. ألم ألحظ كيف تتألق عيونهما وهما يستمتعان بالحديث عن لوحات وجداريات أبيها وصديقيه بيكاسو وسيكيروس؟! فؤاد نفسه، لا يخفي انبهاره منذ اللحظة الأولى، التي عرف فيها أنها ابنة دييجو ريفيرا.

كم مرة همس لي:

ـ يحيى.. أنت لا تعرف قيمة الكنز الذي يعيش معك، ويبيت في منزلك!

هل يفعلها فؤاد المنبهر برُوث وعائلتها؟ ثُم ألا يشي ما تحكيه رُوث عن أبيها، ومغامراته العاطفية التي لا يردعها زواج أو عُرف عن

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

حياة متهتكة تجري في عروقها؟ ألم تحكِ لي عن الحياة الحرة التي يعيشونها في أوساط الفنانين والأدباء في المكسيك؟ أتذكر ملامحها المحايدة وهي تروي خيانة أبيها لزوجته الرسامة فريدا كالو مع شقيقة زوجته. تلك الحادثة التي تسببت في طلاقهما وانفصالهما لمدة عام، ثم زواجهما من جديد مرة أخرى! هل أخطأتُ بتورطي في زواج مختلط بين ثقافتين للحياة؟

لن، ولم يغادرني الفلاح القروي الذي يعيش تحت جلدي. أكتشف تدريجيًّا الفرق بيننا وبينهم. حتى الموضوعات المفضلة لأدبنا وأدبهم مختلفة. تمثل الخطيئة مشكلة رئيسية لقصصنا ومسرحنا، أما هم فتشغلهم موضوعات الشرف والأمانة والإخلاص. يبدو أنني ذهبت بعيدًا، مشاجرتي مع رُوث شوشت على أفكاري، فاختلطت عليَّ الأمور. مشاجرة عادية بين زوجين أخذت ـ للعجب ـ أبعادًا ثقافية!

يهزني خاطر مرعب، هل ذهبتْ رُوث إلى حديقة الجريدة الواقعة في منتصف المسافة بيننا وبين ميدان الإسماعيلية؟ هي تعرف أن شلة الزملاء لا تلتئم إلا في المساء، ثم إنها لم تجلس مرة واحدة في حديقة جريدة المصري. في إحدى المرات مررنا بجوار السور الحديدي لحديقة الجريدة، وكانت هناك جلسة المساء المعتادة التي تضمُّ حفني باشا محمود مع بعض الكتاب وأصحاب الجريدة. يومها أشرت بيدي إلى ماوراء النباتات التي تسلقت على زخارف السور الحديدي، قائلًا:

ـ هنا يجلس عقل جريدتنا، وأحيانًا أكون معهم!

من غير المعقول أن يدفعها غضبها إلى أن تشكوني لزملائي في الجريدة!

أحاول تذكر نظرات عينيها المكسورة والحانقة لحظة هروبها من الشقة. أخذ اندفاعها ونظرات عينيها المذعورة هيئة قط جريح انسلَّ من زاوية حاصره فيها مطاردوه. هل هي تمثل، أم أنها بريئة فعلًا؟

كم ساعةً مرت عليَّ وأنا مشلول في مقعدي؟ نظرت إلى ساعة الحائط التي أصرت على تثبيتها، ليرى عقاربها كلُّ من يزورنا، فلا يطيل بلا سبب. ابتسمت وتذكرت صوتها الرقيق الحازم:

ـ يحيى.. الزمن له ثمن إلا في بلادكم. جميل أن ننساه عند الضرورة، ولكن أيضا علينا ألا نسقطه نهائيًّا من حساباتنا!

بدأت أفقد الأمل في رجوعها. وضعت كفيَّ على وجهي، وأغمضت عينيَّ أفكر في كل الاحتمالات التي قد تطرأ على ذهن رُوث. أفقت على صوت خبطات واهنة على باب الشقة. تحركت متباطئًا لأفتحه. وجدتها أمامي، انفلتت من بين ذراعيَّ المفتوحتيْن لتدلف بسرعة إلى الصالة. تطلعتْ نحوي بعينين دامعتين قائلة بصوت واثق:

ـ أحبك..أحبك، فلماذا تعذبني؟

أخذتها في حضني وقبلتها في مفرق شعرها، فاستسلمت كطائر مستكين مهيض الجناح.

سمعت صوتي يتردد:

ـ آسف..آسف ياحبيبتي.. لن تتكرر أبدًا.

ليلتها تبادلنا الحب كما لم نفعل من قبل. التصقت بي خائفة. لاذت بجسدي من مصير غامض وحاضر مشوش. مصير وحاضر أستشعرهما، لكنني غير قادر على استبصارهما. لم يكن التفكير مهمًّا قط ساعتها، غرقنا في اللذة، واستمعت إليها تترنم بأغنية إسبانية

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

حزينة، بها من الشجن والعذوبة ما جعلنى أبكي في صمت. أبكي من السعادة في انتظار المجهول.

في الصباح تسللت من مخدعنا علىٍ أطراف أصابعي، لم أرد أن أوقظها. بدا وجهها النائم مسالمًا ومعذّبًا.

أشعر أن قصتنا اقتربت من نهايتها. أذهب إلى المطبخ، وأضع كنكة القهوة فوق السبرتاية. أجد جريدة المصري كالمعتاد على الأرض، دفعها لمعي بائع الصحف تحت باب الشقة. لن أوقظها لنفطر معًا كالمعتاد. أخرج مسرعًا، وأغلق الباب. أتردد برهة، ثم أخرج المفتاح من جيبي، وأديره في ثقب الباب مرتين. هذا أسلم لي ولها، في أثناء غيابي.

فرغت من عملي في عيادة الوِرَش قبيل الظهيرة. كنت أفحص المرضى بنصف بالٍ واهتمام قليل. مشكلاتي مع رُوث تشغل تفكيري. اتصلت بصديقي أحمد سيف النصر، وواعدته على اللقاء ببار ومطعم فندق وندسور بوسط البلد. سيف النصر جراح تخرج في قصر العيني قبلي ببضع سنوات، أثق دائما في رأيه، وألتمس أحيانًا مشورته. كان عاطفًا على تنظيمنا، ثم اعتزل مباشرة السياسة منذ سنوات.

كنت جالسًا ووجهي إلى الباب، عندما أقبل بوجهه الممتلئ وصلعته التي تناثرت عليها قطرات عرق بفعل حرارة بداية الصيف، سبقت حديثه ابتسامة معتادة ذات طابع طفولي.

ـ خيرًا يا يحيى. حظك جيد؛ لأنك وجدتني غير مشغول بعملية جراحية في هذا الوقت.

ـ كل خير!

ـ لا تقل لي إنك تريد الحديث في السياسة. البلد فيها حكم

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

عسكري ومحاكم واعتقالات وتعذيب. انجُ بنفسك من الطوفان القادم.

ـ وهل يأتي طوفان بعد كل ذلك؟!

ـ نعم، سوف يأتي. كل ما رأيناه خلال الشهور الماضية، لن يمثل ذرة مما هو قادم.

مال سيف النصر بجذعه إلى الأمام، وأخفض صوته، وطفق يحدثني عن التعذيب الذي تعرض له البكباشي حسني الدمنهوري ضابط المدفعية.

أعقب ذلك بضحكة قصيرة:

ـ الثورة تأكل نفسها، والضباط مختلفون فيما بينهم.

تساءلت بصدق، وأنا في حيرة:

ـ ولكن هل سينفذون فيه حكم الإعدام الذي أصدرته عليه محكمة عسكرية؟

ـ يفترسون بعضهم بعضًا، ولكنهم لن يعدموه. ينفون بعضهم إلى أسوان وبيروت وسويسرا، ويحددون إقامة البعض الآخر في أماكن قصية، بل يعتقلون ويسجنون زملاءهم. لكنهم لن ينفذوا أي إعدامات.

ـ لماذا؟! وكيف تيقنت من ذلك؟ صراع السُّلطة لا يُبقي حسابًا لدم!

أغبط دائمًا سيف النصر على طريقة حديثه المتعالية، وإيماءاته التي تضفي عليه هيئة الرجل العليم بكل الخبايا. ورغم أن بضع سنوات تفصل بين عمرينا، فإنه يبدو بعقله المنظم البارد ـ بالنسبة إليَّ ـ شيخًا مجربًا. علاقاته الاجتماعية الواسعة بفضل مهنته كجراح في مستشفى كبير من جانب، وصِلات عائلته الأرستقراطية العريقة

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

من جانب آخر جعلاه يطلع على أسرار وخفايا كثيرة. أستطيع القول إن سيف النصر أُذن كبيرة على ما يجرى في قمة المجتمع والحُكم. كم من مرة تساءلت: لماذا لا يقود تنظيمنا رجل مثل سيف النصر؟

ـ يحيى، أين ذهبت؟ اسمع، هؤلاء الضباط لا يقدرون على إعدام ضابط واحد، يخافون أن يأتي الدور عليهم. قد ينفذون أحكام إعدام بحق سياسيين وعمال وأناس عاديين، مثلما فعلوا مع خميس والبقري.

هززت رأسي موافقًا:

ـ لعله أشبه باتفاق جنتلمان فيما بينهم!

أفرغ سيف النصر كوب البيرة في جوفه دفعة واحدة، وتأمل الثُّريا المعلقة في سقف البار فوق منضدتنا. كانت الثُّريات تضيء عتمة البار بمصابيح صغيرة، تطل من أفرع قرون الأيائل والوعول. جال بعينين مفتوحتين على آخرهما بجدران البار المبطنة بألواح خشب مطلية بلون بني داكن أقرب إلى السواد، ثم نظر إلى الكراسي التي قُدَّت من كتل خشبية صماء. نظر في المرآة الأثرية الكبيرة التي بجانبنا، وأخرج مشطا صغيرًا من جيب بنطاله الخلفي، ثم سوَّى شعيرات قليلة في صلعته أبت ألا تقف. اطمأن إلى هيئته، ثم التفت إليَّ قائلًا:

ـ هل يستمر كل هذا الجمال في حياتنا؟

جاء سؤاله مفاجئًا، وخارج سياق حديثنا. أبديت دهشتي، فلم يرُدّ. صوَّب سؤالًا، كما لو كان رمحًا إلى صدري:

ـ هل ما زلتم تأملون في أحزاب وبرلمان وديمقراطية؟

ـ وما المانع؟!

ـ المانع كبير ياصديقي. لست شيوعيًّا مثلكم، ولكنني فهمت الماركسية جيدًا. في مصر جاءت سُلطة جديدة، بكل أفكارها

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

وارتباطاتها التي ستختلف بالتأكيد عما قبلها. انتهت ديمقراطية فاروق والباشوات وكبار الملاك، وجاء أبناء البرجوازية الوسطى والصغيرة ليحكموا. هؤلاء لا تهمهم صورة البرلمان أو الأحزاب أو حتى الديمقراطية.

هممت أن أتحدث عن نضال الشعب من أجل الديمقراطية، وضد دكتاتورية صدقي منذ سنوات. لم يستمع سوى لجملتين مني، وأشار بسبابته ممانعًا:

ـ ما يَهُمّ الفلاحين الآن هو الإصلاح الزراعي، وما يَهُمّ الناس اليوم هو أخذ حقوقهم من طبقة الباشوات وكبار الملاك والأجانب، وما يَهُمّ الشعب هو جلاء قوات الاحتلال في منطقة قناة السويس. انسَ هدف الثورة في حياة ديمقراطية سليمة، كُن واقعيًّا! من سيُصِرُّ على أن يحتفظ بحقه في التفكير، وليس فقط في الحديث، سيعاني في السنوات القادمة. لا تبتئس هذا نصيب أمثالنا!

سيف النصر اليوم أكثر تألقًا من المعتاد. هل تعطيه ممارسة الطب، والبعد عن مباشرة السياسة تلك النظرة المتسعة للمشهد، وهذه الرؤية الثاقبة لما تحت سطح الأحداث المتتابعة؟

ـ يحيى، لا وقت لي. لماذا أردت أن تراني؟

حكيت له عن رحلتي إلى فيينا، وزواجي من رُوث. لم أغفل أصلها وفصلها، ثم تناولت المشكلات التي بدأت تظهر بيننا. سردت له كل ما أشعر به من أحاسيس متضاربة تجاهها. كانت نظراته إليَّ تتأرجح بينِ الإعجاب وعدم التصديق. استولت الدهشة على وجهه كاملًا، وظلَّ فمه مفتوحًا طوال حديثي. أخذ سيجارة من علبتي، وهو الذي لا يدخن. أشعلتها له. أخذ نفسًا، فاضطربت أنفاسه، وسعل، واحمرت عيناه. تمهل برهة، وقال:

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

ـ كان لابد لي أن أخمن أن وراء غيبتك الطويلة حكاية كبيرة. قصة، لا يمكن أن يصدقها أحد. رواية لا يقدر على كتابتها والعيش فيها سواك. طوال عمرك، وأنت تبحث عن التفرد والاستثناء والقصص غير المكررة.

أطفأ السيجارة بكاملها في المنفضة أمامنا، فالتوت بطولها وكأنها راقصة باليه تنحني تحية للجمهور. أدهشني ما تراءى لي، فقررت تذكره حتى أستخدمه في قصة أكتبها.

ـ يحيي، مرة أخرى تسرح بعيدًا عني! يا صديقي العزيز ما بينك وبين زوجتك بحر متلاطم من التناقضات. ثقافتان مختلفتان، وشخصيتان متناقضتان، وظروف سياسية واجتماعية مضطربة.

ـ ولكننا أصحاب فكر واحد ونضال مشترك، ألم يجمعنا مؤتمر يناصر تحرر المستعمرات، وينادي بالسلام لكل العالم؟!

ابتسم ابتسامة واسعة، أظهرت ضرسًا ذهبيًا في جانب فمه، وابتدرني:

ـ متى تدرِك أن الماركسية هناك غير الماركسية هنا؟ أفهم أن يكون الجميع مناضلين، ولكن هناك فوارق بين جنود المعسكر الواحد. ثم إنك وحدك نوع فريد لا يتكرر. موهبتك بالنسبة إليك هي كل شيء، وقبل كل شيء.

ـ كيف؟! أنت نفسك تصفني بالانخراط في النضال السياسي اليومي، هل نسيت مشاغباتي ومظاهرات الكُلية؟ لماذا تتجاهل نشاطي في دعم كتائب الفدائيين في القناة؟ لست هذا الإنسان الأناني الذي تصفه.

ـ لا تغضب! لم أرَ أحدًا يعشق موهبته، مثلما تعشقها أنت. أنت تفكر دائمًا فيما يشغلك، مع نفسك وفي خلوتك، في رواحك ومجيئك. بالطبع لم تجد زوجتك مكانًا لها في تفكيرك.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

كنت أتوقع منه أن يصارحني بما أحاول إنكاره. ولكن هذا الاختراق المباشر لكل التحصينات، التي أحطت بها نفسي، لم أحسب له حسابًا. واصل صديقي حديثه، وكأنه يستكشف قارة رُوث المجهولة:

ـ فتاتك المكسيكية قد تكون فنانة، ووريثة عائلة فنانين وكتاب. لكنها تنشد استقرارًا وهدوءًا. حديثك عن أواني الفخار وأبسطة الحصر، التي كدست بها منزلك، يعنى أنها ترغب في أطفال تلدهم منك. ليست بوهيمية كوالدها، هي فتاة تحلم بما تحلم به أي امرأة عادية. مناضلة وفنانة نعم، لكنها امرأة بكل غرائز ورغبات النساء.

أذهلتني قدرته على تحليل الموقف الحادث ما بيني وبين رُوث، كما لو أنه يدلي بتقرير سياسي، أو يقوم بتقدير موقف أمام رفاق في التنظيم في لحظة حاسمة.

صفعت أذني دقات الساعة الكبيرة الموضوعة في أحد الأركان. هذه الساعة، أحد معالم المكان، تأخذ هيئة صوان خشبي عتيق كبير، بينما يتحرك بندولها الضخم جيئة وذهابًا. نظرت إلى عقاربها، فراعني أن الثانية قد أدركتنا. تذكرت أننى أغلقت الباب بالمفتاح على رُوث، وأيقنت اقتراب موعد بائع الثلج الذي يمر علينا يوميًّا، لنشتري منه نصف لوح، نضعه في الحجرة العلوية من الثلاجة الخشبية.

هممت بالوقوف، فوضع كفه على ذراعي مستمهلًا، قال في نغمة تقريرية، وهو يقف بدوره:

ـ يحيى، يبدو أن قصتك مع المكسيكية، قد اقتربت نهايتها. تستطيع أن تعتبرها تجربة خصبة من تجاربك العديدة. لا تقف عندها كثيرًا، ارتحْ من المعاناة باستلهامها في قصة!

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

خرجت مندفعًا من باب الفندق، واستوقفت سيارة تاكسي متوجهًا للبيت.

نظرت من خلال نافذة التاكسي إلى محال وشوارع «نُص البلد» التي أمُر بها. مازالت المحال بأسمائها الأجنبية وحروفها اللاتينية. أغلب المارة يرتدون الملابس الإفرنجية، ومازالت الوجوه الأجنبية تشغل نسبة معتبرة من المترجلين. اقترب مرور عام كامل على حركة الجيش، وازدادت معه جرأة المصريين على الظهور في وسط البلد. رنت في أذني جملة قالها سيف النصر عن ثمن التغيير الاجتماعي والتحرر الوطني. وهنا فهمت ماذا قصد عندما تساءل عن استمرار الجَمال في حياتنا.

يحيرني أحيانًا عشقي لكل ماهو أوروبي من نظام ونظافة وذوق وفن، وفي نفس الوقت أشعر بغربتي عن نمط تفكيرهم. لم أتمنَّ قط أن أكون أوروبيًّا. أريد أن يبقى وسط القاهرة، كما هو، نظيفًا جميلًا مرتبًا. أريده حقًّا غير مسلوب للمصريين فقراء وأغنياء. كانت أسر الموظفين متوسطي الحال تتجول فيه على استحياء، وكأنهم ضيوف عليه! يتأنقون، ويستعدون بأفخر مالديهم للفسحة فيه. مرة، مرتين أو مرات معدودة في العام. سيأتي يوم، سيكون وسط القاهرة لهم. ولكن هل سيحتفظ بنضارته كما هو الآن؟ هل يمكن للحياة أن تكون جميلة وعادلة في نفس الوقت؟ سيف النصر يتشكك، ولكنني ـ خلافًا عنه ـ أعتقد أن ذلك غير مستحيل.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

(١٥)

«وقالت لي بفمها البعيد عني: أنت تفعل كما يفعل أي ذئب يا يحيى. أنت ذئب».

(البيضاء)

كم هو غيور! كم هو حنون! يفقد عقله لأتفه الأسباب. يرتفع صوته مزلزلًا كل كياني، ثم ينخفض فيموء كقط يلتمس القُرب متمسحًا بأعطافي!

خرجت مرعوبة بعد أن لطمني على وجهي. أحسست بمهانة لم أشعر بها من قبل، لست مجرد أنثى توافق على استباحة كرامتها من أجل غواية حب جارف. لديَّ كينونتي وشخصيتي التي لا يعرفها حقًا.

كان كل مايهمني، هو أن أخرج من هذا المكان الذي ضاق في لحظة وأطبق على صدري. لم أتطلع إلى واجهات الحوانيت، اندفعت في الشارع حتى وصلت إلى عمارة الشمس القابضة على ناصية الشارع الكبير. وهناك أمام محل البقالة وقفت حائرة، إلى أين أذهب؟!

غيرته تقتلني، وتشعرني بأنني أخطأت الاختيار. لا أحد لي في هذه المدينة. وجوه المارة تبدو مألوفة وغريبة في آن واحد. سُمرتها شبيهة ببشرة المكسيكيين، لكن ملامح المصريين جِدُّ مختلفة فيما بينهم.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

توقفت عربات الترام، ثم استأنفت مسيرها. محطة الترام قريبة من الناصية، وعلى بعد خطوات قليلة. اتجهت إليها، صعدت إلى أول عربة قادمة. رقمها ليس مهمًّا، ولكن إلى أين أذهب؟ سأستقلها إلى نهاية مسارها، ثم أرجع بها إلى نفس المكان. اقترب محصل التذاكر من مقعدي مبتسمًا. بدأت نفسي تهدأ، وأنا أتطلع، عبر النافذة الكبيرة للعربة، إلى الشوارع والناس والمحال. قبة البرلمان المُعطل ظهرت على يميني، الميدان الكبير ـ كما هو ـ مليء بالحركة والمركبات. على يساري المبنى الضخم الجديد لمجمع المصالح الحكومية. يخترق الترام شوارع ضيقة مليئة بالبشر، والدراجات الهوائية، وعربات الكارو، والحافلات، وسيارات التاكسي. القاهرة مدينة حية تذكرني بوطني. قد تختلف الملامح، لكن الروح واحدة. عرق العمال والفلاحين، أراه قبل أن أشعر برائحته. شعب يكدح طول النهار والمساء.

صعدت إلى العربة سيدة شابة تحمل رضيعًا، ويتعلق بطرف ثوبها طفل صغير. ساعدها المحصل ممسكًا بيد الصغير. انتفض الشاب الجالس بجواري واقفًا؛ لتجلس مكانه. ألقت بتحية، لم أتبينها. جاوبتها بابتسامة. يا إلهي أول ابتسامة منذ أن خرجت غاضبة. أخرجت ثديها لترضع وليدها، فأخذتُ الطفل الصغير ليجلس على ركبتي. كنت قد لاحظت ـ من قبل ـ هذا التصرف المعتاد من المصريين. تعلقت يده الصغيرة بخصلة شعر على جبيني، نهرته أمه فابتسمت وقلت بتلقائية، بلغتي الإسبانية:

ـ لا توجد مشكلة.. اتركيه كما يشاء.

انتبهت إلى دهشتها من لغتي الغريبة. ابتسمتُ وقلت لها بالإنجليزية:

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

- نو بروبلم! لا مشكلة!

قام الراكب الجالس خلفنا بالترجمة، فضحكت الشابة وربتت على كتفي. ازداد انتباهي لما يجري في العربة من صعود ونزول وحركة. تعدد الوقوف في المحطات. اخترقنا ميادين متعددة، تكتظ بأسواق وبشر. بنايات على طراز أوروبي قديم، قباب باريسية ومآذن مشرقية. يتوقف الترام بين محطاته، فينزل السائق مرتديًا قفازات قطنية سميكة ليمسك بسِنجة الترام المنفلت من السلك الممتد فوق القضبان عاليًا. يُحكِم خُفَّ السنجة المشقوق ليحتضن سلك الكهرباء، ثم يرجع قافزًا إلى مقعده ليغلق الباب، وتستأنف عربة الترام المسير. فجأة، وصلنا إلى ميدان كبير، وصاح المحصل: «أباسيا»! عندما وجدني لا أتحرك، اقترب وقال:

- فينيتو.

طوحت برأسي يمنة ويسرة، وأشرت بسبابتي في حركة دائرية تعني الرجوع. أشار إلى عربة ترام واقفة في المقدمة. نزلت، وصعدت إلى العربة التي أشار إليها.

طوال طريق العودة، كنت أفكر في أحوال يحيى. عندما يجلس ليكتب يتحول إلى إنسان آخر، يصرخ ويشوح بيديه نحو كائنات لامرئية. تذكرت لحظة أن اقتربت منه محاولةً مداعبته، انتفض واقفًا وتراجع بظهره. اعترته نظرات رعب وانزعاج، كما لو كان طفلًا يتشبث بلعبته ويخشى أن يسلبها أحد منه. توقفت عن المحاولة، دلفت إلى غرفة النوم وجلست على السرير. بعد دقائق لحق بي واعتذر:

- حبيبتي، اعذريني. نعم، أحبك بشدة، لكن تعطيلي عن الكتابة لا أقبله. رُوث، في اللحظة التي أشعر فيها أنك تعيقين فني سأتركك!

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

صدمتني صراحته الشائكة، فنظرت مباشرة في عينيه. كان يحيى المبتسم الذي عرفته في فيينا! لقد خلع عن وجهه ذلك القناع المتوتر والغاضب الذي قابلني به منذ دقائق. كلماته وضعتني على جمر شك فظيع. هل يجعل الفن الفنان أنانيًّا لهذه الدرجة، فيفضله على حبيبته؟!

عندما يجلس إلى مكتبه الصغير في الردهة بالقرب من باب الشقة، ينسى كل شيء. أشعر بأنه يبني جدارًا سميكًا حول نفسه، سورًا غير مرئي يعزله عني وعن الكون. أصوات مبهمة تصدر من داخله، تنقبض أساريره وتنفرج بلا انتظام. يتنفس السيجارة بعمق، يعبث بشعره رافعًا يده اليسرى. تلاحق نظراته السطور، ويسابقها قلمه في لهاث محموم. يتوقف فجأة لينظر إلى السقف ملتاعًا؛ خوفًا من أن يفارقه إلهامه. يبدو متضرعًا متوسلًا وكأنه يستجدي قوة خفية جبارة. يمضي وقت الكتابة، ويتركه منهوك القوى لينام كطفل متعب بعد نهار طويل. وعندما يستيقظ يبدو وسيمًا فرحًا وحبوبًا كما عشقته.

يحيى طفل كبير، لكنه ليس منبسطًا كما كنت أظن. شخصيته أكثر تعقيدًا، بمرور الوقت أكتشف مغاراتها بصعوبة. ثقافته والتزامه السياسي ذو النزعة التقدمية لم يتمكنا من تغيير طباع الرجل الشرقي المستبد فيه. تأكله الغيرة، كلما ضحكت أو تحدثت مع صديق من أصدقائه. في البداية لم أكن ألاحظ ذلك، بدا فخورًا بتقديمي إلى شوقي وفؤاد وفتحي. لم يستمر الأمر سوى أسابيع، وبدأت أشعر بتضايقه من تصرفاتي وحريتي في الحديث مع أصدقائه.

عندما أتحدث مع فؤاد عن رسومه المصاحبة للقصص المنشورة في الصحف، ألحظ الانزعاج باديًا في عينيه. عندما نتقابل مع شوقي وفتحي وزوجتيهما وفؤاد، يصبح حساسًا لأى حديث عن

والدي. فؤاد يسأل دائمًا عن جداريات أبي الجديدة. أخبرته عن لوحته الضخمة التي رسمها هذا العام على واجهة مسرح «لوس إنسورجنتس» بمكسيكو سيتي، وكيف تغلب علي سطح الواجهة المنبعج وقمتها المقوسة. رسم والدي رأسًا ملثَّمًا مع يديْ فتاة في قفازين حريرين أسودين في الجزء الأوسط من اللوحة، ثم ملأ باقى اللوحة بمشاهد من تاريخ المكسيك بدءًا من مرحلة ما قبل الاستعمار وحتى الوقت الحاضر. تلتقى تلك المشاهد في الجزء الأعلى الأوسط من الواجهة ليعتليها بورتريه لممثل الكوميديا الشعبية المكسيكي العبقري كانتيفلاس، وهو يطلب النقود من الأغنياء ليوزعها على الفقراء. عندما انتهى بابا من الرسم الأوَليّ بأقلام الفحم، ثارت عاصفة هوجاء لسبب تافه! لاحظ أحدهم أن كانتيفلاس يرتدي قلادة بها صورة العذراء! أثيرت ضجة كبيرة، كيف يتم ربط شخصية كوميدية تافهة بشخصية تستوجب التقديس والاحترام كالعذراء؟ ردَّ بابا عليهم بأن الممثل الكوميدي يمثل شعب المكسيك، و«العذراء» هي رمز إيمانهم. الممثل الكوميدي، نفسه، ردَّ قائلًا إنه يرتدي هذه القلادة بالفعل. واصل أبي رسم اللوحة بالألوان، وعندما وصل إلى مكان وجه العذراء، كان قد أصابه الملل من حوارات المغيبين من الأصدقاء والخصوم. غضَّ النظر عن تلوين وجه العذراء وترك القلادة غائمة بلا تفاصيل. أرسل لي قائلًا: «كنت فقدت المتعة، ولم أشعر إلا بقدر ضئيل من رضا النفس».

كان فؤاد والآخرون يسمعون بانبهار، بينما يبدو الضيق على وجه يحيى.

ـ والدك عبقري يا رُوث!

قالها فؤاد، ووافقه الآخرون.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ضحكت راقية زوجة شوقى وقالت:

ـ لدينا هنا عبقري آخر. يحيى، عبقري يرسم بالكلمات والجُمل.

انفرجت أسارير يحيى، وضحك شوقي رافعًا كأسه:

ـ فلنشربْ في صحة يحيى نجمنا الدائم والوحيد.

كنت أتوقع أن يرفع شوقي نخب أبي، كان المنطق يفرض ذلك! في نهاية سهرتنا اقترب مني شوقي وقال:

ـ لا تنزعجي، يحيى منذ أن عرفناه يحب أن يشعر دائمًا بزعامته ونجوميته. أردت فقط أن أستعيده إلى مرحه والمشاركة في جلستنا.

لم تفتني محطة شارعنا.. «المووبتاديان». اسم صعب، لكنني تذكرته عندما صاح به محصل التذاكر. إنه المساء، المحال مضاءة ولافتاتها براقة جميلة، ولكن في وقار. بقالة النيل الأزرق بلافتتها الزرقاء، وصاحبها الشاعر اليوناني الذي حكى لي يحيى عنه. مخبز سميراميس لصاحبه اليوناني الذي يحضر يحيى منه أرغفة الفينو الطويلة ذات القشرة المقرمشة المزدانة بحبوب السمسم. جراجات السيارات في شارعنا ذي الاسم الصعب مضاءة، وأمامها سواسها يتحدثون. سور الكلية الجامعية الحديدى لا يخفي حديقتها البديعة، ومبانيها ذات الشرف الخشبية الواسعة. أقترب من بيتنا، لا أتردد في الطرق على باب الشقة. أجده واقفًا مفتوح الذراعين، كطفل ضائع وجد أخيرا أمه. ابتسامته بعرض الدنيا، وإطراقة ندم بدت، وكأنها محملة بذنوب الخليقة أجمعها.

ـ آسف.. آسف يا حبيبتي. لن تتكرر أبدًا.

يحتويني بذراعيه، فأنظر في عينيه لأتأكد من صدق اعتذاره ووفائه لوعده. أرى فقط فيهما ولع الحب الذي يخفي وراءه أي تفاصيل.

طوال الليل كنت أفكر في الحال الذي وصلنا إليه. لم يعد يطيق

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

أن أتحرك بمفردي خارج البيت، وفي نفس الوقت أصبح يضيق بإلحاحي على مصاحبته في شوارع القاهرة. لم تعد مفاجآتي تبعث فيه السرور. تجوالي في القاهرة القديمة، وشراء الأواني الفخارية وأبسطة الحصير اليدوية، وترددي مع فؤاد على المتاحف والمعارض الفنية في الصباح، كل ذلك تقبله أو تجاهله في البداية. بالتدريج، بدأ غضبه وتذمره يتغلبان على طيبته وتسامحه. حاولت أن أقنعه بأنني لست مجرد أنثى خصِّصت لراحته والتسرية عنه، أنا لم أكن خاملةً في الحياة من قبل. لي دراساتي واهتماماتي وهواياتي وشخصيتي. لست قطعة أثاث متروكة في المنزل، تنتظر أن يتذكرها أحد فيستعملها حسبما شاء! لست جارية من جواري الشرق تجلس بجوار قدميْ سيدها؛ عسى أن يتذكرها في لحظة احتياج أو اعتدال للمزاج.

لطمتُه على وجهي، هي الأولى ولن تكون الأخيرة!

ثارت ثائرته عندما علم أنني ذهبت مع فؤاد صباح اليوم إلى متحف الفن الإسلامي بالقرب من القاهرة القديمة. انتفض مرتعشًا، واتسعت عيناه حتى ظننتهما قد بلعتا وجهه.

ـ كيف تخرجين دون إذن مني؟! ومع من؟ فؤاد الذي يطاردك بهمساته ونظراته!

لدغتني كلماته، فاندفعت بدوري:

ـ ومنذ متى أحتاج إلى تصريح بالخروج إلى الشارع؟!

ـ أنا لم أمنعك من الخروج، ولكنك تقابلين فؤاد من وراء ظهري!

ـ ألم أبلغك منذ يومين أنني أريد الذهاب إلى ذلك المتحف؟ ثم هل وصلت بك الغيرة أن تشُك في صديقك فؤاد؟! أليس هو وشوقي من قاما باستقبالنا عند وصولنا إلى مصر؟ أليس هما من قاما بترتيب الشقة، وقاما بتبييض جدرانها قبل أن نصل إلى القاهرة؟

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

أليسا هما اللذان اشتريا الستائر وقاما بتركيبها لتغطي خشب النوافذ المتهالك؟

ـ هذا أمر، ولقاؤك مع فؤاد بمفردكما أمر آخر.

ـ أي رجل هذا الذي يغار من صديق مقرب، يذهب مع زوجته إلى متحف فني في وضح النهار؟

ـ ومن يدريني أنكما كنتما في المتحف؟

ـ هل وصلت بك الحماقة أن تتهمني بخيانتك؟ ياللك من وغد!

وكأن عقربًا قد لدغه، أمسك كتفي بقوة ولطم وجهي بكل قوته. أفلتُ من قبضته، أزحته جانبًا بكلتا يديَّ، واندفعت إلى باب الشقة. لم أنظر إلى عينيه، بل حتى لم أحاول. كان كل همي أن أخرج لأستنشق الهواء. الآن أتساءل هل أحس ساعتها بالندم، فغشيت عينيْه نظرات الأسى، أم أنه ظلَّ في نوبة غضبه هائجًا كالثور؟

أسمع أصواتًا من ناحية الصالة والمطبخ، فأدرك أنه استيقظ ويعد قهوته. لن أقوم من مخدعي كي نفطر كعادتنا معًا. أحتاج إلى هدنة، وأن أخلو إلى نفسي. يدخل إلى الغرفة، فأغمض عيني لأُمثِل دور النائمة. يرتدي ملابسه بهدوء حتى لا يوقظني. أشعر بلثمة شفتيه الدافئتين على جبهتي الباردة، أقاوم رغبتي في تقبيله. أنصت إلى صوت انغلاق الباب، وأنتبه على صوت دوران مفتاح في الكالون! أزيح الغطاء عني، وأركض ناحية الباب. أمسك بالأُكرة وأديرها، فلا ينفتح الباب. هذه أول مرة يفعلها. هل جُنَّ يحيى؟!

أنا سجينة بالفعل، وليس بالمجاز. تنهمر الدموع من عيني، وأمنع نفسي من الصراخ.

أفتح النوافذ، وأرى الناس يخطون في الشارع. يتصايحون ويضحكون ويتحدثون. يتشاجرون، ويقفزون ليستقلوا الحافلات

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

إلى أعمالهم. أرتشف قهوتي، وأنظر من خلال نافذة شقتنا المرتفعة قليلًا عن مستوى الطريق. لو كان لدينا هاتف، لكنت اتصلت بزوجة شوقي أو فتحي. أنتبه إلى أن يحيى لم يفكر في إدخال تلفون إلى منزلنا. هل هي الغيرة، أم خشيته من التجسس البوليسي على محادثاته مع رفاقه كما قال؟

تتعاقب أمامي وجوه والدي ووالدتي وشقيقتي. أرى أيضًا بوضوح وجوه الأصدقاء والصديقات، زملائي وزميلاتي في العمل، طلابي الذين تركتهم في منتصف العام الدراسي. أحسُّ بحنين جارف إلى المكسيك وأهلي.

يأتي صوت بابا في حزم ورجاء:

ـ صبرًا يا رُوث، تماسكي وقفي لبضع دقائق أخرى. انظري إلى المرآة.

ـ سابو-رانا، أشعة الشمس بدأت تؤذي عيني!

ـ تحمَّلي يا عزيزتي، سيكون هذا البورتريه أعظم لوحاتي.

تظهر اللوحة كغيمة بلا تفاصيل أمامي. يتسع إطارها، وتتحدد ملامحها تدريجيًّا. تختفي ملامح شقة المبتديان، وأجد نفسي داخل اللوحة، أقبض على المرآة البيضاوية بكلتا يديَّ، وألتفت لأنظر إلى عينيْ والدي. يهز رأسه في أسى، ويتحسر قائلًا:

ـ لماذا ذهبت يارُوث؟ كنت أتوقع أن تقابلك المصاعب هناك، ولكن ليس إلى هذا الحد.

ما الذي حدث؛ كي يتحول يحيى الوديع الرومانسي إلى ذلك الوحش الكاسر؟! لن أنسى الأمسية التي قدمني فيها لأصدقائه بعد نهاية المؤتمر في فيينا. خميسي صاحب الجثة الضخمة، كاتب القصة الذي يسبغ رعايته عليه، ويوسف المارد صاحب الصوت الأجش،

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

سكرتير اللجنة المصرية لأنصار السلام. كان خميسي مبتهجًا، يطلق النكات ويضحك بصوت عالٍ. أما يوسف زعيمهم، ففوجئت به يغني ويصفق بيديه كموسيقيٍّ محترف ليقود جوقة الأصدقاء احتفاءً بارتباطي بيحيى، بينما جلست زميلتهما إنجي الفنانة التشكيلية مبتسمة في ثوب باريسى أنيق، ككونتيسة تهز ساقها التي وضعتها على الساق الأخرى. كان يحيى فخورًا بي، وبدا كأنه يريد أن يعرف العالم، كل الناس، ارتباطنا وزواجنا المرتقب.

هل أثرت الأحداث السياسية المتعاقبة على أعصاب يحيى، فلم يعد يتحمل أي شيء؟ أي شيء، حتى الحب الجارف الذي جمعنا؟

أتذكر وجهه المرَبدَّ، وهو يخبرني باعتقال زميليه يوسف والخميسي.

ـ هل تتصورين؟ يحققون معهما، ويسألونهما عن مؤتمر السلام في فيينا. وكأن مناصرة السلام، هي الأخرى أصبحت تُهمة!

ولكن هل جَدَّ جديد في هذا الأمر؟ عندما وصلنا إلى مصر فوجئنا بحل لجنة أنصار السلام وإغلاق مقرها وجريدتها. كانت الأمور واضحة منذ البداية، فلماذا أصبح يحيى عصبيًّ ومخيفًا الآن؟

كنت في المطبخ أقلِي بعض شرائح البطاطا على موقد الكيروسين، عندما أحسست بمن يدير المفتاح في باب الشقة. حضر يحيى مبكرًا عن موعده المعتاد. دخل إلى المطبخ، وأحاطني بذراعيه، والتصق بي من الخلف. قبلني في رقبتي وقال:

ـ أحبك.

سألته بصوت غاضب:

ـ لماذا أغلقت عليَّ باب الشقة بالمفتاح؟

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

- أنا؟!

- نعم، أنت!

- أنا، أنا.. آه ربما أصابني السهو ونسيت. عذرًا، لم أنتبه ياعزيزتي. ربما حدث ذلك بحكم عادتي، كعازب قبل زواجنا.

- لكنك لم تفعلها طوال الشهور الماضية.

- أنا آسف يا حبيبتي. خطأ مطبعي لن أكرره.

سمعت صوتي يخرج هادئًا وحازمًا، وكأنه يصدر من شخص بجانبي:

- يحيى، أنت ذئب..تتصرف كذئب!

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

(١٦)

«واللحظة رهيبة فاصلة. حقيقة فاصلة، فإحساس مبهم غامض وكأنه الحاسة السادسة، قارئة المستقبل، ومدركة البعد الآتي في أي وضع حاضر، كانت تهيب بي أن تلك اللحظة سوف يكون لها أعظم الأثر في علاقتنا، سوف تحدد مصير تلك العلاقة».

(البيضاء)

جلست قبالتها، وأنا أتفحصها مليًّا. ترتدي قميصًا أحمر، أزراره العليا مفتوحة لتظهر منبت نهديها. فوق القميص بلوفر أزرق من الصوف، يشبه الجاكت. بنطالها الجينز أيضا أزرق. صبغت أظافر يديها وقدميها بالأحمر الفاقع، بينما كانت شفتاها مصبوغة بنفس اللون. أنزلت ساقها المعلقة على الساق الأخرى، كانت ترتدي صندلًا جلديًّا بنيًّا، لا يناسب أبدًا برودة ليل الشتاء. وضعت يديها بين فخذيها، وصوبت نظراتها نحوي قائلة:

ـ آسفة على الحضور بلا موعد مسبق.

ـ لكن.. كيف عرفت عنوان منزلي؟!

ـ من دليل التلفونات الموجود على النِّت.

كدت أخبرها بأن ما فعلته سخافة وقلة ذوق منقطعة النظير، كيف لطالبة أن تدهم منزل أستاذها، قرب منتصف الليل، بلا سابق استئذان أو تنبيه؟ دارت سامانثا بنظراتها في أرجاء الصالة، ثم سألت:

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ هل تعيش هنا وحدك يا سامي؟

أي تمثيلية رخيصة تقوم بها هذه الفتاة الأمريكية! تتصرف وكأنها لا تعرف أنني أعزب. يهتم الطلاب بحياة أساتذتهم، ويشبعون فضولهم بالتنقيب عن أسرارهم العائلية. لقد سألت بالتأكيد عني، وعرفت كل شيء من زملائها. لم أجب عن سؤالها، فقد كانت الإجابة المنطقية سافرة.

التقطت حقيبة يدها الكبيرة من الأرض. نفر ثدياها من فتحة قميصها، وهي تثني جذعها لتشد الحقيبة من أذنيها. استدارة الثديين جعلتني مستثارًا، تجتاحني نوبة اشتهاء جامحة. أخرجت سامانثا من حقيبتها لاب توب صغيرًا وعدة أوراق، لهثْتُ وهي تخبرني:

ـ قمت بعمل شاق في اقتفاء أثر رُوث، لم أستطع أن أصبر دون أن أخبرك عن مفاجآتي. قررت المجيء، والمغامرة.

ـ أي مغامرة.

ـ مغامرة أن تظن بي الظنون.

ضحكتُ، وطمأنتها بأنني لم أظن، أو أشك، أو حتى أتكدر من ظهورها المفاجئ. كانت ترتشف رشفات سريعة من كوب الشاي الساخن الذي أعددته لها، وهي تتحدث بشغف عن اكتشافاتها. قالت لي إنها قامت بعملية بحث كبيرة عن رُوث في المواقع الإلكترونية ذات اللغة الإسبانية، وإنها استخدمت طالبة إسبانية في الجامعة لتقوم بالترجمة. ما توصلت له سامانثا كان مثيرًا بحق، رُوث أنجبت في أكتوبر عام ١٩٥٤ ابنة أطلقت عليها رُوث ماريا. توصلت سامانثا إلى أن هذه المعلومة حاسمة في بحثها؛ لأنها قد تعني أن رُوث قد غادرت مصر بعد أو قبل حملها بتلك الابنة. أبرزت ورقة مكتوبًا فيها أن رُوث لها ابنة وابن من زواج أول، وابن

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

من زواج ثانٍ. الزواج الأول مجهول في هذه السيرة، بينما زواجها الثاني مؤرخ في عام ١٩٥٩. الزواج الثاني كان من فنان تشكيلي مكسيكي بارز، هو رافاييل كورنييل، و أثمر طفلًا اسمه خوان وُلِد في عام ١٩٦١. اقتربت رُوث من مقعدي، ووضعت «اللاب توب» الصغير على مسند المقعد. ارتكزت بركبتيها على الأرض، وأشعلت شاشة الحاسوب. وجهت الشاشة نحوي، وفتحت أحد الملفات الموجودة على سطح المكتب، فظهرت أيقونات صور مختلفة. نقرتْ إحداها، فظهرت صورة امرأة في نهاية الثلاثينيات من العمر، يحتضنها من الخلف رجل في نفس العمر، الاثنان يرتديان ملابس فلكلورية. بدا وكأنهما يتأهبان لأداء رقصة ما. نظرت بإمعان إلى ملامح المرأة، فوجدتها تشبه تلك التي رأيتها لملامح روث الشابة التي وجدتها في صور على شبكة المعلومات. لا تبدو ملامح السعادة على وجهها، نظرتها محايدة وتعبيرات وجهها صامتة!

اعترضت صمتي سامانثا قائلة:

- أليس محتملًا أن تكون الابنة الأولى لها هي بنت يحيى، وقد ولدتها في المكسيك؟

- ربما، لكن الاحتمال الأكبر أن تكون ابنة الزواج الأول، أو فلنكن أكثر دقة ونقول الذي يعده المكسيكيون أولًا، والذي أثمر طفلًا أيضا بعد عام ونصف العام من ميلاد رُوث الصغيرة.

شعرت بأنفاس سامانثا الحارة تلامس وجهي، وهي تقترب برأسها من صدري، لتنظر إلى الشاشة التي أمامي. نقرت أيقونة أخرى، فظهرت امرأة تتكلم بالإنجليزية. همست، ولمست بأصابعها ساعدي لتجذب انتباهي:

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ هذه هي الابنة الأخرى لدييجو ريفيرا، جوادلوب تتحدث عن عائلة أبيها.

أصغت بانتباه إلى السيدة المسنة التي تتحدث في شريط الفيديو. كان واضحًا أنها أستاذة بالجامعة وعضو بالبرلمان المكسيكي. عددتِ الورثة الشرعيين لجدها الفنان الشهير، وجاءت على ذكر حفيدته الصغيرة رُوث ماريا. قالت عنها إنها أهم مثمنة وخبيرة في إثبات الأعمال الأصلية لوالدها دييجو ريفيرا، وزوجته فريدا كالو. انتبهت إلى جملة قالتها عن وفاة شقيقتها رُوث.

قلت لسامنثا:

ـ لقد ماتت رُوث التي نبحث عنها، لم تعش كثيرًا. اثنان وأربعون عامًا كانت كافية لأن تتزوج ثلاث مرات، وتنجب ثلاثة أطفال، وتملأ الدنيا نشاطًا.

ـ نعم، نسيتُ أن أخبرك بأنها توفيت بسبب إصابتها بالسرطان. ولكن لماذا تصرُّ على أنها تزوجت بيحيى؟

ـ لا أعتقد أن المجتمع المصري في بداية الخمسينيات كان يسمح بإقامة شابة أجنبية مع شاب مصري في مسكن يجمعهما دون زواج. ثم ألا يكفي بوح يحيى نفسه إلى السوفيتية، ومقال صديقه المقرب عن هذا الزواج؟

ـ أنت على حق، ولكن ليس في يدينا دليل واضح على هذه الزيجة.

فكرت فيما قالته سامانثا عن الدليل، فرأيت أن التأكد من هذا الزواج المجهول لن يتأتى إلا عبر الاتصال بذوي يحيى أو روث. في بلدنا قد يصبح السؤال عن هكذا موضوع جارحًا للأسرة، وقد يعتبرونه تطفلًا في شأنٍ عائلي. يحيى نفسه لم يفصح عنه ـ في حياته ـ

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

لأحد من النقاد أو الصحفيين المصريين، وعائلته لم تشر إليه من قريب أو من بعيد. كانت سامانثا تعرض صور رُوث التي حصلت عليها، وكنت قد اطلعت على معظمها بمجهودي الخاص. فضلت أن أشاهد صامتًا ما تعرضه، حتى لا أحبطها ولا أبخسها عملها. كنت أفكر في مجيئها المفاجئ، وما يعنيه. لم أعطها رقم هاتفي المحمول، فمن المنطقي ألا تتصل بي. لكنها عرفت عنواني من دليل التلفونات، ألم يكن ممكنًا أن تتصل على تلفون المنزل؟!

وقفت سامانثا، فظننت أنها ذاهبة. أحضرت أوراقًا من حقيبتها، ثم عادت لتجلس على الأرض مستندة بيديها إلى مسند مقعدي. كان واضحًا أنها لم تقرأ بعناية الأوراق المترجمة عن رُوث، لم تكن الصفحات مرتبة. أدركت أن سامانثا جاءت متعجلة، ولِمَ الاستعجال؟ لم يمضِ على آخر لقاء بيننا سوى يومين فقط. أفردتُ ورقة مطوية بين الأوراق، وقرأت فيها أن زواج رُوث الأول (المكسيكي) قد تمَّ في عام ١٩٥٤ من المعماري «بيدرو ألفارادو كاستانون»، وأن لديهما ولدًا وبنتًا. زواجًا لم يستمر طويلًا، ثلاث أو أربع سنوات. نبهت تلميذتي النجيبة إلى ما احتوته الورقة، فنظرت فيها، وقالت معتذرة:

- آسفة يا سامي، لم أراجع الأوراق المترجمة جيدًا. كنت متعجلة.

دقَّ جرس تلفونها المحمول، نغمته كانت لأغنية شعبية من الأغاني المبتذلة لهذه الأيام. نظرت إلى شاشته، واعتلت وجهها علامات اضطراب غير محددة. تحدثت في التلفون بعيدًا عني بالقرب من شباك الصالة. فهمتُ من بعض الكلمات التي التقطتها أذني، أن صديقًا لها قد أُلقيَ القبض عليه. أنهت المكالمة، واتجهت صوبي ساهمة. جلست نفس جلستها السابقة، لكنها أمسكت ساعدي بكلتا يديها:

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ سامي أنا في ورطة، أرجو مساعدتك.

ـ أي ورطة، وكيف أساعدك؟

اقتربت حتى لامس صدرها ذراعي، وقالت في لهفة:

ـ الشرطة تطاردني، وقد تقبض عليَّ الليلة. هل يمكنني النوم لديك الليلة؟

صدمتني المفاجأة، فانتفضت واقفًا:

ـ أي شرطة، ولماذا؟ أنت أمريكية، وبالتأكيد سيخافون من التعرض لك دون إذن سفارة بلدك.

نظرت سامانثا إليَّ في توسل ورجاء، لأول مرة أرى في حياتي مثل هذه النظرات. مزيج من التوسل والفزع والاستجداء. تهدج صوتها، وهي تطلب مني أن تبقى للمبيت معي في هذه الليلة. احتضنت ذراعي، وقالت في رجاء:

ـ سامي، أرجوك. هذه الليلة فقط.

كنت غاضبًا، فالآن فقط عرفت سبب مداهمتها المفاجئة لحياتي الهادئة. ماذا فعلتْ لتطاردها الشرطة؟ تجيء لتختبئ لديَّ، وتورطني معها! تحدثت بحزم، بينما كانت تحتضن بكل جسدها ذراعي مستنجدة:

ـ أخبريني بكل شيء أولًا.

تلعثمت في البداية. حكت عن مظاهرة دعت لها حركة كفاية وحركات أخرى تنادي بالتغيير في ميدان التحرير. في هذه المرة، قامت السلطات بفضِّها في غِلظة غير مسبوقة. تحولت شوارع منطقة وسط البلد إلى ساحة لمعركة غير متكافئة. تعرض أساتذة جامعات وكهول وناشطون سياسيون للسحل من قبل رجال الشرطة والمخبرين. تمَّ استخدام القنابل المسيلة للدموع والعصي الكهربية،

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

وسالت دماء بعض المتظاهرين لتلوث ملابسهم وتعطي منظر القمع مؤثرات بصرية. قامت قوات فضِّ المظاهرات بإلقاء القبض على عشرات المتظاهرين، وتعرضت سامانثا للتفتيش، وعندما أبرزت جواز سفرها الأمريكي، ذهبوا بها إلى ناصية التقاء شارع طلعت حرب بشارع البستان. اطلع مدير أمن العاصمة على الجواز، وناوله لضابط في ملابس مدنية. الأخير أعطاها الجواز وقال:

ـ سترين ما سنفعله بك يا بنت القحبة!

تركوها تذهب، لكنها تخاف أن يتعقبوها ويلقوا القبض عليها. بكت، وشمرت عن ساقيها لتريني الكدمات التي أصابتها جراء ركلات البيادات الثقيلة لجنود الأمن المركزي. كنت مذهولًا، وأنا أستمع إليها. ما الذي يجعلها تعرض نفسها للخطر، وهي مواطنة أمريكية؟ ما الذي أتى بها لتتظاهر مع شعب بائس تعوَّد على القهر من حكامه؟ تعيش حياة مرفهة، وتتركها لتسكن في حواري السيدة زينب. أي فتاة، بل أي امرأة هذه!

تركت مكاني، وتحررت من قبضة يديها لأشعل شاشة التلفزيون الذي لا يبعد سوى خطوات قليلة. أدرت مؤشر قنوات «الساتلايت» على باقة القنوات الإخبارية. كانت القنوات تبث في نشراتها نبأ المظاهرة المقموعة. كان هناك اعتصام في نقابة الصحفيين لسياسيين ومتظاهرين يطالبون بإطلاق سراح المعتقلين. عشرات المشاهد يتم عرضها بين فينة وأخرى لعمليات القبض والاعتقال. انتبهت على مشهد مؤثر لأحد المعتقلين يبدو في الخمسينيات من عمره، يطل من باب سيارة ترحيلات زرقاء كبيرة. قميصه مقطوع، وتظهر آثار ضربات على وجهه، بينما يرفع إصبعيه بعلامة النصر أمام الكاميرات وهو يبتسم. أقترب أكثر من الشاشة، يبدو وجهه أليفًا. إنه هو، بشحمه

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ولحمه. لم تضللني صلعته، وآثار السنين المطبوعة على وجهه. إنه هو، حمدي صديق المدرسة الثانوية والجامعة. اجتذبته مظاهرات السياسة ودوامة العمل العام، بينما انكببت أنا على التفوق في دراستي. نعم، هو حمدي. يعيدون نفس اللقطة عدة مرات. انتبهت على سامانثا تقف ورائي، وتشاهد نشرات الأخبار باهتمام بالغ. تذيع القنوات تصريحًا لمتحدث باسم الإدارة الأمريكية يدين ما تعرض له المتظاهرون في القاهرة في هذا اليوم.

أنظر إلى سامانثا، وأسألها:

ـ هل أنت جائعة؟

ـ نعم، لم أذقْ شيئًا منذ الصباح. أرجوك، أريد أن أبيت لديك هذه الليلة.

ـ أولًا، سأُعِدُّ لك شيئًا تأكلينه.

أذهب إلى المطبخ، وأضع براد الشاي على الموقد. أفتح الثلاجة، وأضع جبنا وزيتونًا وشرائح لانشون وما تبقى من علبة فول مدمس في عدة صحون. أسلق أربع بيضات، وأقشرهم. ما الذي تفعله يا سامي؟ مضت على منزلك سنوات، ولم يدخله ضيوف لتطعمهم. وها هي الأمريكية تفاجئك بنزواتها، فتتحرك وتشمِّر عن ساعديك لتطعمها! ماذا لو سمحت لها بالبقاء هذه الليلة؟ ما الذي سيحدث بينكما؟! لم أجب على رجائها، ولم أبدِ موافقة أو ممانعة. أردت أن أعطي نفسي فرصة للتفكير. أنت محتاج لشبابها كي يروي أرضك الظمأى التي كادت تبور من غيبة النساء. ولكن الفرق في العمر ونمط الحياة بينكما قد يؤديان بك إلى التهلكة. لم أتورط ـ طوال عمري ـ في أي نشاطات سياسية معارضة للسلطات الحاكمة، وجاءت هي لتضعني

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

في بؤرة صدام سياسي دون إرادتي. كان في مقدورك أن تختار طريق صديقك حمدي الذي يهين كهولته في مصادمات مع الشرطة في الشوارع، لكنك كنت عاقلًا وفضلت الحياة الهادئة المثمرة. قد يبدو تعبير «مثمرة» مستفزًا، ولكن أليست كتبك ومقالاتك وأبحاثك والاحترام المهني، الذي تحظى به، إنجازًا مستحقًا؟ البعض يعتبر العائلة والأولاد ثمار حياته، أما أنت فتعرف جيدًا أن الزواج والعائلة والأولاد قد تكون ثمرتي معطوبة. ثمارك ـ يا سامي ـ صنعتها بيديك، لا تستطيع إرادة أحد آخر أن تفسدها.

أحسست بوقع أقدام خلفي. جاء صوتها مطمئنًا، وهي تدخل المطبخ:

ـ سامي، لقد أفرجوا عن المتظاهرين المعتقلين. التلفزيون يعلن ذلك.

قلت لنفسي: «جاء الفرج»، الإفراج عن زملائها وأصدقائها سيمنحني المبرر لرفض طلبها بالمبيت عندي. لا أستطيع المغامرة بوضعي المهني ومستقبلي الجامعي من أجل نزوة عاطفية مع فتاة أمريكية تتعاطى السياسة، وقد تكون واحدة من الجواسيس الذين أصبحوا أكثر من سكان هذا البلد. أحضرت صينية كبيرة ووضعت عليها الأطباق وبراد الشاي، واتجهت نحو صالة الاستقبال. حاولت سامانثا أن تحمل الصينية، لكنني رفضت. لاحظت علامات الحبور والابتهاج على وجهها. تذكرت والدتي الريفية عندما كانت تحمل صينية الطعام، وتضعها على الطبلية لنا، ابتسمت مجترًا الذكرى الرطبة في صحرائي.

كانت جائعة فعلًا، أتت بشهية مفتوحة على العشاء. كنت أرقبها سعيدًا، بينما أوزع نظراتي بين الأوراق التي أحضرتها وبين شاشة

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

التلفزيون التي تعيد لقطات أحداث اليوم. وجه حمدي، وكفه التي تحمل علامة النصر يتألقان تحت أضواء الكاميرات. يضيء تساؤل داخل عقلي: «هل حمدي سعيد فعلًا؟!».

من الأوراق ألاحظ أن رُوث تغيبت عن نشاطها المهني العملي طوال عام ١٩٥٣، تبدأ في الظهور عندما تلد ابنتها في النصف الثاني من عام ١٩٥٤. أدرك أن معرفة وقت رحيلها عن مصر لن يتأتى إلا بالبحث في الظروف السياسية التي اكتنفت عامي ١٩٥٣ و١٩٥٤. حركة أنصار السلام المصرية، هي أحد مفاتيح الإجابة عن كل التساؤلات التي تدور في ذهني. أين كان يحيى ورُوث في خضم تلك الأحداث السياسية المضطربة؟ أتذكر أنني قرأت لأحد أصدقائه ـ في مقال بالهلال عقب وفاته ـ يقول فيه إنه زار منزله في المبتديان في أثناء يناير ١٩٥٤؛ حيث وجده يعيش وحيدا. ينتظرني وينتظر سامانثا استقصاء وعمل كبيران.

بعد أن فرغت من عشائها، تأتي سامانثا لتأخذ مكانها بجواري، واضعة ركبتيها على الأرض ومستندة بجذعها إلى مسند مقعدي. أمسكت بساعدي، وقالت:

ـ شكرا جزيلًا، لن أنسى صنيعك أبدًا.

عيناها الراضيتان لم تمنعاني من إخبارها برفضي مكوثها في منزلي. التفتُّ إليها قائلًا:

ـ لم يعد هناك مبرر لخوفك، لقد تمَّ الإفراج عن المتظاهرين. تستطيعين الذهاب إلى بيتك في أمان.

انطفأ بريق عينيها على الفور، وتلاشى حبور وجهها. ردت في استعطاف، هو أقرب إلى استسلام وتسليم بهزيمة:

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

ـ لكنني متأكدة أنهم سيتعقبونني. لقد التقط ضابط المباحث ذو الزي المدني صورة لجواز سفري بكاميرا هاتفه المحمول. هددني وسبني، رأيت نظرات متوحشة في عينيه.

ـ لا داعي للخوف، ألم يرضخ مبارك لبيتكم الأبيض وأفرج عن المتظاهرين؟ عزيزتي، أنتم حماية!

لم تفهم الفتاة الكلمة الأخيرة التي قلتها، ومن أين لها أن تعرف تلك الكلمة التي سمعها أجدادنا وآباؤنا عن الأجانب الذين يعيشون في مصر تحت مظلة الاحتلال الإنجليزي، ويتمتعون بنظام امتيازات خاصة؟ أخذتُ الأوراق التي أحضرتها. نظرت إلى ساعتي، فوجدتها الواحدة صباحًا. أخبرت سامانثا أنني سأوصلها إلى ميدان السيدة، ومن هناك تستطيع الوصول إلى شقتها على الأقدام. أردت أن أبدو رجلًا متحضرا لا يترك امرأة قبيل الفجر تبحث في شوارع المدينة عن وسيلة مواصلات، وفي نفس الوقت أدركت أن ركوبها سيارتي حتى الميدان لن يعرضني للخطر. في الغالب، هم سيراقبون منزلها والأماكن المحيطة به.

أوقفت السيارة في شارع صغير متفرع من الميدان، أدرت المفتاح فانطفأ المحرك. كان هناك قليل من المارة، بينما اختفى ضجيج النهار المعتاد. ساد صمت عميق، وهي تتأهب للنزول من السيارة. كان همسها يرن في السكون، فيبدو له صدى رخيم:

ـ شكرا يا سامي على كل شيء.

اقتربت مني، فاقتربت. ظننت أنها ستقبلني على وجنتيَّ، لكنَّ شفتيْها انقضتا على شفتيَّ في قبلة سريعة. وضعت كفها على كفي، وأغمضت عينيها، ثم هزت رأسها إلى أسفل وهي تبتسم. فتحت

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

باب السيارة، ونزلت. ظللتُ دقائق ساكنًا لا أدير المحرك، أنظر إلى قامتها من الخلف وهي تبتعد. تذكرت حديث يحيى عن سانتي في «البيضاء»، وخطواتها التي تشبه «مشية شيتا». سامانثا تخطو كأي أنثى شرقية. تهز ردفيها في وقار، وتعلق الحقيبة على كتفها لتتأرجح هي الأخرى مع خطواتها. اختفت سامانثا عن نظري، فتحسست شفتي السفلى بأناملي، ثم أدرت المفتاح.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

(١٧)

«لماذا تبكي هذا البكاء المتصل المرير وكأنها في جنازة أو مساقة للذبح؟ لماذا لا أحسُّ أنها في هيام عاطفي مثلما أنا هائم؟ لماذا تقابل انفعالي العظيم بذلك الانكماش المطلق؟».

(البيضاء)

الاكتشاف مُتعة لا تضاهيها أي لذة في الحياة، والدهشة رفيقة اكتشافاتنا منذ كنا أطفالًا. أي قصة، هي اكتشاف جديد لي لحظة كتابتها. في كل مرة أمسك القلم، تتجدد المُتعة والاندهاش. لن يصيبني الملل من التنقيب عن المثير الجديد داخلي وحولي. العاطفة، والجنس، والسياسة، والدين، والأدب، بل الحياة كلها، ماهى إلا مجموعة اكتشافات متصلة في عُمرى.

زواجي برُوث، هو اكتشاف آخر لعلاقتي بالمرأة. المرأة مخلوق أعشقه وأنجذب إليه، وفي الوقت نفسه أخشى على نفسي وموهبتي منه. في بداية علاقتنا كنت محمومًا بها، غارقًا في بحر اكتشافات لا نهاية لها. مع مرور الأيام ذهبت سكرة الحُمى، وبقيت أُلفة الاعتياد. ومع التعود يموت تدريجيًّا أي إحساس بالدهشة. وبدأت أشعر بأن الطفل داخلي يكاد يموت، ذلك المتلصص بفضول على الحياة!

أتساءل أحيانًا: هل يمكن أن يستمر حب بين رجل وامرأة لفترة

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

أكثر من عام؟ في الأيام والشهور الأولى ينجذب الحبيبان إلى بعضهما بقوة خارقة، وسرعان ما يبرد الحماس ومعه الشهوة.

موقفي من «الثورة» يشبه علاقتي مع رُوث. فرق واحد بينهما، وهو أن ترحيبي بحركة الضباط لم يستمر أكثر من شهر. حادثة إضراب كفر الدوار وضعت ألف حاجز بيني وبينها. كنت أتقبل موقف تنظيمنا بعقلي، بينما أرفضه بحدسي وقلبي. ولعله كان اكتشافًا آخر بالنسبة إليَّ، عندما أدركت أن المواءمة والانتظار ينزويان؛ ليفسحا مكانًا أوسع للاحتجاج والمعارضة. شتان بين صباح مبكر وجدت نفسي فيه ـ في قصر العيني أنزع زي الجراحين من على جسدي، وأندفع راكضًا إلى ميدان عابدين تاركًا زميلًا لي يأخذ مكاني بعد أن سمعت بنبأ الانقلاب، وبين الأيام التي نعيشها الآن وتكتم فيها أنفاسنا القيود والرقابة العسكرية والمباحث العامة.

بداية صيف قائظ في القاهرة تزيد من صعوبة الاستغراق في تأملاتي، تطن مروحة السقف في غرفة مكتب رئيس تحرير جريدة المصري، بينما يشير أبو الفتح بإصبعه إلى الصفحة الأخيرة في الجريدة قائلًا:

ـ قصتك المنشورة بالأمس، تسببت في غضب نجيب!

كنت بالطبع أتوقع غضب ضباط القيادة، فالقصة تتحدث عن جنود هجانة يفرضون الخوف على الفلاحين، و سكان قرية يقاومون الخوف والتسلط. تصنعت البراءة فسألت:

ـ لماذا أغضبته؟

ـ لأن الجريدة وُضِعت في مأزق للمرة الثانية بسبب حساسية علاقتنا مع السودانيين هذه الأيام.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

لم أفهم في البداية ماذا يقصد. أفهمني أن ما أغضب نجيب هو الإشارة إلى كتيبة الهجانة المكونة من ذوي الأصول السودانية ونزاعهم مع الفلاحين المصريين، ثم أومأ إلى أن الرقيب القابع في جريدتنا لم يفطن إلى ماتحتويه القصة فسمح بنشرها.

أشعل أبو الفتح سيجارًا، وأخذ نفسًا عميقًا، ثم ضحك قائلًا:

ـ لا تبتئس! حظك أفضل من الشرقاوي الذي اعتقلوه بسبب روايته «الأرض» التي نشرها ـ بعد قيام الحركة ـ على صفحات جريدتنا أيضًا، ولنفس التهمة. اذهب إلى مدير التحرير مرسي الشافعي في غرفته، وسيأخذك إلى من توسط في إخراج الشرقاوي.

تصيبني الدهشة بالوجوم. لا يفهمون مغزى القصة التي تندد بالدكتاتورية، ويتوقفون أمام الظاهر على السطح. ومع الدهشة، اكتشفت حدود فهمهم، وذكاءهم المحدود. يأخذني مدير التحرير مرسي في سيارته، بعد اتصال تلفوني أجراه.

أسأله محتارًا:

ـ إلى أين؟!

ـ لا تتعجل، ستعرف بعد قليل.

تخترق السيارة وسط القاهرة. تمر بميدان باب الحديد، وتسير في شارع الملكة نازلي. أقع في حيرة، ولا أستطيع تخمين إلى أين نحن ذاهبان. نصل إلى ميدان العباسية، ومنه إلى شارع الخليفة المأمون. أظن أننا نتجه إلى مقر قيادة الجيش في كوبري القبة، لكننا نتجاوزه. المستشفى العسكري على يميننا، وأمامه بعض المترددين من الجنود وأسرهم. قبل أن نصل إلى ميدان روكسي، نتجه يمينًا ونقف أمام مبنى فيلا تحيط به حراسة من الشرطة العسكرية.

يسألنا ضابط الحراسة عن وجهتنا، فيقول له مرسي:

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ البكباشي جمال عبد الناصر ينتظرنا!

توقظ المفاجأة كل حواسي، فتنتصب قرون استشعاري، ويتفجر داخلي حب الاستطلاع والاكتشاف. نطرق بابًا في الطابق الأرضي، فيفتح لنا جمال مرتديًا بيجامته ذات الخطوط الزرقاء، وحول عنقه منشفة. يبدأ مرسي في سرد وقائع نشر قصتي، ويبدي خشيته مما تردد عن احتمال اعتقالي. أضيف ـ من عندي ـ تفسيرًا للقصة يضعها في صف مهاجمة الإقطاع وعسفه في الريف. ينصت عبد الناصر بصبر شديد، وهو لا ينظر تجاهي. وفي لحظة ينقض بعينيْ صقر جارح نحوي، يثبت نظراته على عينيَّ وكأنه يسألني:

ـ هل تقصد هذا بالفعل، أم أنك تقصد شيئًا آخر؟

لم يكن أمامي سوى تجاهل نظراته التي تحاول اختراق جمجمتي؛ لتعرف ما أفكر فيه. نظرت إلى مرسي الذي أخذ منه ضمانًا بعدم التعرض لي.

نخرج من عنده، فينبهني مرسي:

ـ ألم ترَ المسدس الذي كان يحمله، ويخفيه تحت جاكتة البيجاما؟

ـ لا!

ـ غريب. كيف فاتك، وأنت الأديب المدقق؟!

يخبرني مرسي بأن عبد الناصر قد انتقل منذ فترة قريبة إلى هذا المنزل الذي يشغله مع حسين الشافعي وحمدي عاشور. ويتمتم:

ـ الضباط يتوجسون من بعضهم بعضًا، ويخشون أن تدور عجلة الانقلابات في مصر كما هو الحال في سوريا.

أشعر بأن شخصية جمال الصموت الحذرة المتآمرة نقيض لكل ما أحب وأومن به. أنا إنسان صريح فوضوي، لا أخفي أفكاري

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

ومشاعري. كنت أشاهده حريصًا على الحضور إلى حديقة الجريدة، مع عبد الحكيم عامر وصلاح سالم، في كل مساء في الأشهر الأولى التي أعقبت الحركة. لكنه انقطع في الفترة الأخيرة عن زيارة المصري، وقيل إن سبب ذلك جفوة بينه وبين أبي الفتح والوفد.

عندما وصلنا إلى مقر المصري بشارع قصر العيني، ذهبت إلى أبي الفتح في غرفة مكتبه، وحكيت له ما حدث. ضيَّق مابين عينيه، وردَّ على تساؤلاتي حول عبد الناصر وانقطاع زياراته للمصري قائلًا:

ـ كان بحاجة إلى «الوفد» وإلينا، وعندما لم يعد محتاجًا لقوتنا باعنا. هل فهمت يا يحيى؟

ـ وهل سيسكت النحاس والوفد على حل الأحزاب؟

ـ النحاس نفسه يقول: «الجيش مثل وابور الزلط. لا شيء يقف أمامه إلا ما هو أقوى منه.. وهذه القوة هي قوة شعب مؤمن بالديمقراطية والدستور». مادام الشعب لم يدرك بعد خطورة الدكتاتورية الناشئة، فلن يستطيع السياسيون مواجهتها.

أدركت أن منطق النحاس، رغم وجاهته الشكلية، متهافت ولا يصمد أمام أي نقاش موضوعي. وهل سيدرك الشعب خطورة الدكتاتورية دون مبادرة السياسيين؟ قوة الشعب الأسطورية لن تنطلق فجأة، دون تحضير واستدعاء. وكان ذلك ـ بالنسبة إليَّ ـ اكتشافًا آخر لعجز النحاس والوفد أمام الدكتاتورية الشابة!

أعود إلى البيت، فأجد فؤادًا يجلس في الصالة. أخفي تعجبي أمامه، حتى لا أبدو غيورًا. رُوث في المطبخ تعد شايًا أو قهوة. لا يبدو حضوري مفاجئًا له.

ابتدرني فؤاد قائلًا:

ـ كنت مارًّا بالقرب من هنا، وقررت أن أزوركما.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

تجاهلت الرد عليه. كنت مغتاظًا منه ومن رُوث. طوال جلستنا معًا، كنت أشاركهما الحديث بكلمات قليلة.

بعد مغادرته، سألتها بغضب:

ـ ما الذي جعلك تسمحين له بدخول البيت في غيابي؟!

اتسعت عيناها، وارتفع حاجباها في دهشة:

ـ ما الذي تفكر فيه يا يحيى؟ هل أنت مجنون؟!

ـ لست مجنونًا، لكنه هو الذي لا يراعي حرمات بيوت الآخرين.

ـ ولماذا إذن لم تعاتبه بدلًا من أن تتشاجر معي؟ حسنًا، سأجيب بدلًا عنك؛ لأنك ببساطة تخاف أن يشيع بين جماعتكم أنك غيور ومتخلف.

وصمي بالتخلف أطار صوابي، فصرخت في وجهها:

ـ لست متخلفًا، ألا يمكن أن تبدأ الخيانة بفنجان قهوة؟

في لحظات تحول وجه رُوث إلى سِحنة قِطة متوحشة، تنتفض لتنشب مخالبها في وجهي. أفلتُّ بأعجوبة من مخالبها، وتراجعت إلى الخلف. كانت تصرخ بأعلى صوتها:

ـ كيف تجرؤ؟ كيف واتتك الجرأة يا يحيى أن تتهمني بالخيانة؟ أنت ذئب.. ذئب.

كان صراخها يصل إلى الشارع عبر الشباك، ويهز المنوَر الداخلي وطوابق العمارة. عشرات الآذان تصغي لشجارنا، في الشارع والشقق التي فوقنا. توقفت الحياة من حولنا، ليلفنا فضول الآخرين. أحسست بكل ذلك، أو هكذا تصورت.

وفي لحظة توقَّف الغليان داخلي، وانتابني هدوء لا يشبه أي هدوء. كان يشبه خمود ما بعد إنهاك بدني عنيف. تكورت رُوث، وبدأت تنهنه بصوت عالٍ. كان كل جسدها يهتز بعنف، وكنت

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

بدوري مشلولًا، لا أعرف كيف أتصرف. وجاءت الخطوة التالية منها، قامت ووجهها مغرق بالدموع، وذهبت إلى الحمام. تسمرت جالسًا في الصالة، وسمعت صوت مياه الدُّش تتدفق بقوة. كنت أفكر، من منا الذي ارتكب الخطأ، ومن عليه أن يعتذر للآخر؟ أنا أم هي؟! استمر غيابها طويلًا، حتى حسبته دهرًا بأكمله. ذهبت بي الظنون إلى احتمالات مخيفة. اقتربت من الحمام، فوجدت بابه مواربًا. ناديت عليها، فلم أسمع سوى نهنهتها. دفعت الباب مترددًا، فوجدتها مقرفصة بكامل ثيابها تحت سيل المياه المندفعة من أعلى، وهي ترتعش. كان مشهدًا مرعبًا ومأساويًا. اندفعت لأحيطها بذراعيَّ، وجذبتها لتقف، أغلقت صنبور الدش. أخذت منشفة كبيرة، وأحطت جسدها به. كانت ترتجف، وخصلات شعرها الأسود ملتصقة بوجهها المبلل، وملابسها المبتلة تقطر ماءً. نظرت إلى عينيها، كانت نظراتها تائهة. هالني ألا أجد تعبيرًا محددًا فيها. لم أجد رعبًا، أو بغضًا، أو حبًّا، أو ضعفًا. أحسست فقط بخواء رهيب. خواء في عينيها أحاط بي وبها، وملأ شقتنا الصغيرة في تلك اللحظة.

واكتشفت أن رُوث قد تغيرت، وأنني الآخر أعاني من تطورات تعصف بي تجاهها. يومها لم نتحدث فيما جرى بيننا، تجاهلنا المشاجرة وأسبابها. لفنا صمت، وأصابنا ما يشبه السكتة الدماغية المؤقتة. كانت تسعل، وظهرت بوادر الزكام عليها. لكنها أصرت على أن نخرج معًا في المساء! حاولت أن أثنيها بحجة مرضها، لكنها صممت وألحت. وبدت رُوث لي لغزًا محيرًا، بإصرارها على الخروج معي في هذا المساء.

خرجنا معًا لنمشي على شاطئ النيل الموازي لقصر العيني، كانت يدها باردة تمسك بذراعي، بينما نسمات حارة تهب من ناحية المنيل

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

علينا. وبين فينة وأخرى كنت ألتفت إليها، وأتصيد نظراتها. ربتُّ على يدها بيدي اليمنى، وقلت:

ـ آسف، لم أقصد قط إهانتك!

ردت بصوت رتيب، وكأنه يصدر من كائن آخر غيرها:

ـ لا عليك، كل شيء على ما يرام.

بعد رجوعنا، كنت أريد أن أستوحي أجواء يومي الطويل المرهق؛ لأكتبها في قصة. ذهبت رُوث لتنام، بينما بقيت مستيقظًا. جلست إلى مكتبي بالردهة، أغمضت عينيَّ وأخفيت وجهي في كفيَّ. كان منظر عينيْ روث المطفأتين يطاردني في العتمة التي صنعتها. استطعت بصعوبة التخلص منه، ذهبت إلى المطبخ وأعددت قهوتي. ومع أول رشفة منها، تذكرت وجه تلك الفتاة الأجنبية التي جاءت إلى قسم الاستقبال حين كنت طبيب امتياز. كان شعرها الأصفر متشعثًا كهالة ضياء حول وجهها. كانت في شبه غيبوبة. أدركت أنها مدمنة، عندما ناظرت ذراعيها فوجدت علامات نغز الإبر تملؤهما. وكان لابد أن أحقنها. أحضرت أمبول المخدر وهممت بفتحه تمهيدا لإفراغه في سرنجة زجاجية، وإذا بها تنتفض من رقدتها وتهجم على يدي. حاولت انتزاع الأمبول بالقوة مني، فوقع في خضم صراعنا على الأرض وانكسر. ارتمت الفتاة على الأرض، وأخرجت لسانها لتلعق السائل المسكوب. كانت شظايا الزجاج المنثور تعلق بلسانها، وهي غير آبهة بالجروح والدماء التي غطته. لم يكن يهمها شيء على وجه الأرض في تلك اللحظة، سوى هذا السائل الثمين. لم أرَ بريقًا لعينين مثلما رأيت عينيها في تلك اللحظة. كان كل تركيزها وتصميمها على أن تلعق كل قطرة سالت على الأرض. تريدها ولو كان ثمن ذلك الموت. في

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

تلك اللحظة اكتشفت بدوري معنى الفناء في العشق والاستغراق في مطاردة الفكرة. وجه تلك الفتاة، الآن، هو الوحيد القادر على طرد نظرات رُوث الفاترة من خيالي. أريد أن أكتب القصة بروح تلك الفتاة وتصميمها وجنونها. كل قصة أكتبها، لابد أن أشعر أنه لا قصة قبلها ولا بعدها.

* * *

في غرفة الصالون بشقة فتحي سالم، بدأ اجتماع مكتب الفنانين والأدباء التابع لتنظيمنا. لم يكن في يوم من الأيام اجتماعًا ثقيل الظل كاجتماعات التنظيمات والأحزاب السرية. كنا نعرف بعضنا بعضًا، نتحدث بأسمائنا الحقيقية، نمزح ونضحك ونتناقش بصوت عالٍ. نافذة الشباك مفتوحة على الآخر؛ لتسمح بنسمات هواء صيفية شحيحة. شُراعة باب الشقة هي الأخرى مواربة، كي تصنع تيارًا هوائيًّا يجفف قطرات العرق التي بللت وجوهنا وملابسنا. أنظر مليًّا إلى وجه فؤاد الجالس بالقرب من باب غرفة الصالون، وأحرص على ألا يلاحظ نظراتي نحوه. تساءلت: هل ظنوني صحيحة حول علاقته برُوث؟ هل يُمكن أن يحدث ذلك؟

يأتي صوت أحد الجالسين مبتهجًا:

ـ صدور مجلة الغد، في وقت أغلقت فيه الصحف التقدمية، يُعد انتصارًا كبيرًا. أحسنت يا فؤاد!

يتنحنح فؤاد، ولا يرد.

يدور الحديث عن العدد الأول، وتتعدد ملاحظات الزملاء. تلتقط أذني عبارات الإشادة بالقصة التي نشرتها بنفس المجلة، فأبتسم وأهزُّ رأسي. أنتبه على سؤال موجه إليَّ:

ـ يحيى، ما رأيك في عدد «الغد»؟

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

آخذ رشفة من كوب الكركديه الأحمر الساقع، وأطيل فيها حتى أستجمع ما أقول.

أجيب في روية:

ـ استطاع فؤاد أن يقدم إطارًا بصريًا جذابًا للمجلة، في كل مرة يثبت لنا أنه صانع البهجة البصرية للصحف والمجلات. النقلة التي أحدثها في إخراج المصري والكاتب والتحرير عملاقة وغير مسبوقة.

ألاحظ نظرات الامتنان في عينيه، فأستمر في الحديث.

ـ مساهمة التقدميين في توجه الثقافة المصرية خلال السنوات الثلاث الأخيرة، يصنع ثقافة عصرية قريبة من الناس. لم يكن عبثًا أن يكون شعار المجلة "الفن في سبيل الحياة".

يقاطعنى أحمد شوقي، ويسأل بإلحاح:

ـ أي مواد العدد أعجبتك؟! اترك الإخراج الصحفي جانبًا، وتحدَّث عن المادة التحريرية!

ـ رغم التميز لمقالات الشرقاوي وكامل الشناوي، فإنني أرى الملحق الذي قام فيه فتحي غانم بترجمة وتلخيص سيرة جورج سادول عن شارلي شابلن، هو المفاجأة. نعم، هو دُرة العدد.

يستمر الحديث، وتتنوع الآراء. يشكو البعض من تأثر عمل المكتب بابتعاد إنجي أفلاطون النشيطة عن التنظيم، وانضمامها لتنظيم يساري منافس. يلتمس فؤاد لها العذر، ويلمح إلى أن موقف جماعتنا المتردد من إعدام خميس والبقري هو السبب. أخذنا وقتًا كبيرًا في مناقشة إجراءات اشتراكنا في مؤتمر بوخارست للشباب العالمي، والذي لم يتبقَّ على موعده سوى أسابيع قليلة. كنت منبهرًا، وأنا أسمع أسماء العدد الكبير من أعضاء الوفد المصري. كانوا

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

يمثلون كل أطياف المجتمع السياسي والثقافي في مصر. كان شوقي يستعرض الأسماء في خيلاء، لكنه توقف فجأة ليقول:

ـ سيكون أحد أعضاء الوفد مفاجأة كُبرى لكم جميعًا!

انهالت عليه الأسئلة بفضول:

ـ مَنْ؟! والنبي، قل لنا اسمه! هل هو فنان، أم صحفي، أم رياضي؟

ابتسم شوقي ابتسامته الهادئة التي خبأت خلفها دهاءً، شاءت نظراته من خلف نظارته الطبية فضحه:

ـ لا لن أقول لكم الاسم، فقط قبل السفر بأيام سأقوله.

في أثناء مغادرتنا الاجتماع، اقترب مني شوقي وقال لي:

ـ سأذهب معك إلى منزلك القريب.

بالقرب من باب الشقة، وعلى ردهة السلم، وقفت زوجة فتحي سالم تودعنا. قالت لي بنبرة عتاب:

ـ لماذا لم تحضر معك رُوث؟ لماذا تركتها وحيدة في البيت؟

رددت هامسًا:

ـ لم أكن أريد أن أورطها في اجتماعاتنا في هذه الظروف.

ظل شوقي صامتًا في أثناء هبوطنا على السلم، وحين خرجنا إلى الشارع أبلغني أنه يحتاجني في مهمة عاجلة. لم أستفسر عن مهمته، وفضلت أن أنتظر حتى وصولنا إلى البيت.

رحبت رُوث بشوقي، وسألته عن زوجته راقية فأخبرها بأنها حامل. تهلل وجهها، وصاحت:

ـ فيليثيتا ثيونيس.. أهنئك من كل قلبي يا شوقي، الأطفال ملح الأرض.

كنا نجلس في الصالة، وأمامنا أكواب شاى ساخنة. فاجأنا شوقي،

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

عندما قام بفك أزرار قميصه وأدخل كفه تحت فانلته القطنية الداخلية. وسط استغرابنا، أخرج ظرفًا ممتلئًا بأوراق، ودفعه نحوي قائلًا:

ـ خذ يا يحيى، هذه أصول لنشرة الجبهة الوطنية يجب أن توصلها غدًا لمن سيوصلها إلى الجهاز الفني ليطبعها!

ارتفع صوت رُوث متعجبًا:

ـ كي إس إستو، ما هذا؟!

تجاهلت سؤالها، ولكن شوقي ردَّ عليها ضاحكًا:

ـ منشورات سرية، كما في الأفلام الثورية.

ضحكت رُوث، وذهبت لتتركنا وحيدين.

ـ هذه أول مرة ترجو مني طلبًا من هذا النوع منذ سنوات!

ـ أنا مراقب في كل خطوة أخطوها هذه الأيام. خذ الأوراق وسلمها غدًا للرفيق عباس في كازينو جزيرة الشاي بحديقة الحيوان في الساعة التاسعة صباحًا.

ـ لكنني لا أعرف عباس الذي تتحدث عنه!

لقنني ما الذي يجب عليَّ فعله؛ ليتمَّ التعارف بيني وبين عباس. كان عليَّ أن أرتدي بدلة الشاركسكين البيضاء، وأضع جريدة المصري أمامي مفتوحة على الطاولة؛ فيتقدم عباس ويعرفني بنفسه. أخذت وعدًا منه ألا يكررها، فنشاطي لا يتعدى مجال مكتب الأدباء والفنانين. جاءني صوته راجيًا:

ـ لن نعطيك تكليفًا يعرضك للخطر بعد ذلك، أعدك بشرفي!

في الموعد المحدد كنت أجلس على مائدة صغيرة بجانب بحيرة البط. الكازينو خالٍ من الزبائن في هذا الوقت المبكر. الأوراق في ظرف أصفر كبير، والظرف داخل الجيب الداخلي الواسع لسترتي البيضاء. الجريدة مفرودة أمامي بحيث تبدو كلمة وشعار «المصري» واضحين. أمامي براد شاي وفنجان كبير من الخزف الأبيض. تدور

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

عيناي لتستطلعا المكان. لا أحد هنا، سوايَ أنا والجرسون. أنظر في ساعة معصمي، فأدرك أن عشر دقائق قد مرت على الموعد. أقرر أن أنصرف إذا مرت خمس دقائق أخرى دون حضور عباس. الانتظار لمدة أكثر من ذلك يعرضني للخطر. أنظر إلى الجريدة محاولًا أن أقرأ شيئًا ليزيل توتري، لكنني أفشل في فهم جملة واحدة!

تظهر سيدة أنيقة في مدخل الكازينو، وتخطو هابطة الدرجات القليلة الفاصلة بين بقية حديقة الحيوان وجزيرة الشاي. أشعر بخيبة أمل، ويزداد توتري. تقترب الحسناء ذات الشعر الأسود، التي تغطي نصف وجهها نظارة شمسية كبيرة. عند اقترابها أحسست بأن قوامها وهيئتها غير غريبين عني. فوجئت بها تتوقف أمامي، وتمد يدها قائلة:

ـ صباح الخير، أنا الرفيق عباس!

أُصعق، لكن يدي تمتد لمصافحتها. صوتها مألوف لديَّ، لكنني لا أستطيع معرفته بسهولة. ملامحها جميلة فاتنة. تنظر حولها لتتأكد من خلو المكان من النادل، وترفع نظارتها الشمسية للحظات، كانت كافية لأن أرفع صوتي:

ـ تحية كاريوكا!

تبتسم ابتسامة واسعة، لا يمكن لابتسامة أي امرأة في الوجود أن تضاهيها. يا الله، أمامي وعلى بعد سنتيمترات قليلة، امرأة فتنت أمة من شاشة السينما. الواقع أجمل بكثير من الخيال. يجيء صوتها ليوقظني من حلم جميل:

ـ لم يخطئ صديقك عندما وصفك، أنت فعلًا رجل وسيم بشكل لافت للنظر.

يزداد ارتباكي، وتضيع الكلمات فوق شفتيَّ. كيف يحدث ذلك،

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

وأنا الذي حسبت نفسي دون جوان يجيد محاورة النساء. لا شك أن ابتسامتي المذهولة تعطي انطباعًا بأنني أبله.

تبتسم، ويبادرني مرة أخرى صوتها الجميل ذو الخنفة الخفيفة من الأنف:

ـ سأشرب شايًا، وأجلس معك ربع ساعة. تصرف بطبيعتك؛ كي نبدو كأي رجل وامرأة على موعد.

أضع يدي في جيب الجاكتة الداخلي، وأهُمُّ بإخراج ظرف الأوراق. تضع كفها على يدي مستمهلة:

ـ ليس الآن، عندما ننتهي ستخرج معي من باب الكازينو؛ حيث تنتظرني شغالتي سيدة. ستعطيني الأوراق لتضعها سيدة في حقيبتها.

انتبهت إلى أنها قالت شغالتي، وليس خادمتي كما هو المعتاد، يبدو أنها تأثرت بأفكار الاشتراكيين.

عندما اقترب النادل منا، فوجئت بها تقول:

ـ سأشرب شايًا مثلك يا حبيبي!

فور ابتعاد النادل، ضحكت قائلة:

ـ لا ترتبك، كله تمثيل في تمثيل.

ضحكت بدوري، وبالتدريج بدأ لساني يتخلص من الشلل الذي أصابه. تجاذبت معها الحديث. وضعت يدها في ساعدي ونحن خارجان من الكازينو، وأخذت سيدة الأوراق مني ودستها في صدرها الضخم.

مفاجآت شوقي معي منذ أيام الجامعة لم تنتهِ.

الآن اكتشفت، ما الذي كان يقصده شوقي في الاجتماع بالمفاجأة الكبرى.

* * *

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

تغزو الزينات شوارع القاهرة. بوابات الفراشة المزخرفة، ومصابيح كهربية ملونة، ولافتات تهنئ بقدوم العيد الأول للثورة. أجواء احتفالية قبل الموعد بأكثر من شهر. تشمر الحكومة عن ساعديها في حملة إعلامية، لا سابق لها. أغانٍ محجوزة مسبقًا، وعزف صحفي جماعي تقوده صحف دار أخبار اليوم، وطوابير لشباب الحرس الوطني وأعضاء هيئة التحرير تجوب الشوارع. حفلات لكبار المطربين تُقام في حديقة الأندلس وعلى شاطئ النيل، تشرف عليها إدارة التوجيه المعنوي بالجيش. اسم وجيه أباظة ـ أحد الضباط الأحرار ـ يتردد كثيرًا كمسئول عن اصطناع البهجة الوطنية.

أحضرت رُوث إلى المنزل حاملًا خشبيًّا وقماش «توال» وألوان زيت وأنواعًا عديدة من الفُرش. تناثرت أدواتها في أرجاء المنزل، فزاحمت كتبي وأوراقي. لاحظت أنها ترسم مشاهد من الطبيعة الصامتة. حقول ذرة شامية، ونباتات صبار، وأناسًا بقبعات مخروطية مكسيكية من القش. عندما سألتها:

ـ لماذا لا ترسمين القاهرة؛ شوارعها وبيوتها وساكنيها؟ أنتِ معمارية، ألا يجذبك معمارها؟!

ابتسمت قائلة:

ـ لا أحترف الرسم، لكنني أحاول قضاء أوقات فراغي الطويلة هنا. يجذبني هنا بيوت القاهرة القديمة ذات الطراز الإسلامي، لكن رسمها يحتاج نفسًا طويلًا وصبرًا لا ينفد. جمالها يكمن في تفاصيلها المنمنمة.

أشعر هذه الأيام أن رُوث تفكر كثيرًا، وأنها بدأت تصمت أكثر مما تتكلم، على غير عادتها. ماترسمه، يشير إلى شعورها بالحنين

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

إلى المكسيك، ولعل ورود خطابات إليها من هناك قد أشعل هذا الحنين.

أجلس إلى مكتبي محاولًا العثور على بداية لقصة جديدة. أكتب جملة أو جملتين، ثم أعود لأشطب ما كتبت. رُوث تجلس أمام لوحتها؛ لتضيف بعض الرتوش. أُقلِب في الأعداد الأخيرة من مجلة روزاليوسف الراقدة على جانب من سطح المكتب. ألتقط المجلة التي كتبت فيها فاطمة اليوسف خطابًا لجمال عبد الناصر، وأتصفحها. أتوقف أمام عباراتها المسددة كطلقات تحذير، ولكنها تصيب الهدف:

«إنك باختصار في حاجة إلى الخلاف تماما كحاجتك إلى الاتحاد. إن كل مجتمع سليم يقوم على هذين العنصرين معا ولا يستغني بأحدهما عن الآخر. وقد قرأت لك غير بعيد حديثا تطالب فيه بالنقد، وبالآراء الحرة النزيهة ولو خالفتك! ولكن أتعتقد أن الرأيَ يمكن أن يكون حرًّا حقًّا وعلى الفكر قيود؟! وإذا فرض وترفقت الرقابة بالناس، واستبدلت حديدها بحرير فكيف يتخلص صاحب الرأي من تأثيرها المعنوي؟! يكفي أن نوجد القيد كمبدأ ليتحسس كل واحد يديه، يكفى أن يشم المفكر رائحة الرقابة وأن يرى بعض الموضوعات مصونة لا تمس؛ ليتكبل فكره وتتردد يده ويصبح أسيرًا بلا قضبان.

إن الناس لابد أن يختلفوا لأنهم مختلفون خلقًا ووضعًا وطبعًا، وقد دعت الظروف إلى إلغاء الأحزاب وإلى تعطيل الكثير من وسائل إبداء الرأي، وقد أصبح للعهد الجديد شعار واحد وألوان واحدة، فلم يبقَ شيء يمكن أن يتنفس فيه النقد وتتجاوب وجهات النظر غير الصحف وأسنة الأقلام وتفكير المواطنين، أنت تخاف من إباحة

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

الحريات أن يستفيد منها الملوثون المغرضون، ولكن صدقني أن هذ النوع من الناس لا يكون لهم خطر إلا في ظل الرقابة وتقييد الحريات. ولا تصدق ما يقال من أن الحرية شيء يباح في وقت ولا يباح في وقت آخر، فإنها الرئة الوحيدة التي يتنفس بها المجتمع ويعيش، والإنسان لا يتنفس في وقت دون آخر، إنه يتنفس حين يأكل وحين ينام وحين يحارب أيضا.

إنك بكل تأكيد تضيق ذرعًا بصحف الصباح حين تطالعها فتجد أنها تكاد تكون طبعة واحدة لا تختلف إلا في العناوين، حتى بعض حوادث الأقاليم المحلية يصدر بها أحيانًا بلاغ رسمي واحد والناس كلهم يحسون ذلك ولا يرتاحون إليه. إن التجربة كلها لا تحتاج إلا إلى الثقة في المصريين، وأنت أول من تجب عليه الثقة في مواطنيه».

أنظر إلى الصفحة المقابلة لمقال فاطمة اليوسف فأجد ردًا لعبد الناصر، فأفهم أن الرقيب المقيم في مجلة روز اليوسف لم يوافق على نشر مقالها، وأن التصريح بالنشر جاء مرفقًا برد جمال. يبدو أنها سياسة جديدة يتبعها الحكام الجدد مع الصحافة. ألم تنشر جريدة المصري بعدها بأيام مقالًا قويًا لأحمد أبو الفتح، عنوانه «نعم... الدستور»، وإلى جواره مقالًا للصاغ صلاح سالم بمانشيت «الباكون..والمتباكون»؟! عندما ذهبت إلى الجريدة صباح صدور ذلك العدد، علمت أن الرقيب لم يجز نشره إلا بعرضه على سالم، وأن الأخير أمر الرقيب بوقف طبع الجريدة حتى يستطيع أن يرد على أبو الفتح بمقال مضاد في العدد نفسه. قبيل الفجر كان صلاح سالم بنفسه في جريدة المصري، ليشرف على نشر مقاله بجوار مقال أبو الفتح. أُخرِج من درج المكتب هذا العدد من الجريدة، وأتأمل

العبارات التي صاغها صلاح، فأجدها سبابًا مقذعًا في حق النحاس والوفد وسراج الدين والدستور والديمقراطية!

يبدو جمال عبد الناصر أكثر تعقلًا ومواربة وتهذيبًا من صلاح سالم.

تحضر رُوث فنجان قهوة، وتضعه أمامي. أمسك بكفها وأقبله امتنانًا. تمسد رأسي بأناملها. أمسك بقلمي وأكتب بمداده الأزرق بخط كبير على ورقة من أوراق الدشت التي أمامي.. ثورة.. دستور.. حرية. فكرة القصة التي أنوي كتابتها في رأسي، ولكن الجملة الأولى منها تمتنع عن الحضور. أعتصر ذاكرتي، آخذ نفسًا طويلًا من السيجارة، وأدلك جبهتي بأناملي بعنف. لا فائدة. أقوم من مقعدي، وأشعل المذياع. أنظر إلى الساعة، تقترب عقاربها من الإشارة إلى الحادية عشرة مساء. تصدح أغنية وموسيقى وسط همهمات وأصوات. أدرك أنه نقل مباشر لإحدى الحفلات. تنتهي الأغنية، ويأتي صوت رخيم ينبئ بالانتقال لسماع نشرة الأخبار. بعد دقات ساعة الجامعة، واللحن المميز لبداية النشرة يعلن المذيع إنهاء الحكم الملكي وقيام الجمهورية. أصبح اللواء نجيب رئيسًا للجمهورية ورئيسًا للوزراء في نفس الوقت. عقب هذا الخبر يأتي نبأ آخر بتعيين عبد الحكيم عامر قائدًا عامًّا للجيش، وترقيته من رتبة الصاغ إلى رتبة اللواء، أربع رتب في قفزة واحدة! الخبر الثالث كان اشتراك ضباط القيادة في الوزارة لأول مرة. يصبح جمال عبد الناصر نائبا لرئيس الوزراء ووزيرًا للداخلية، وعبد اللطيف البغدادي وزيرًا للحربية، وصلاح سالم وزيرًا للإرشاد القومي.

لم يكن إعلان الجمهورية مفاجئًا لي، فمناقشات لجنة الخمسين لوضع الدستور قد تسربت إلى الصحافة، وهناك إجماع على إعلان

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

جمهورية برلمانية. الجديد هو الوزارة الجديدة التي دخلها طموح الضباط، وتعيين ضابط غير مؤهل لقيادة الجيش. هل هو قطع طريق على إعلان دستور جديد، مثلما كانت حركة الجيش استباقًا لثورة شعبية حقيقية؟

أثار انتباه رُوث اقترابي من جهاز الراديو، وانحنائي لإصاخة السمع. صاحت:

ـ يحيى، ما الذي حدث؟

ـ لقد أعلنوا الجمهورية، مصر أصبحت جمهورية.

قلت الجملة الأخيرة مبديًا الابتهاج، رغم أن كل الشواهد تجعل ألف فأر يلعب في عِبي.

ضحكت رُوث:

ـ أهنئكم يا عزيزي، ولكن هل تعلم أن المكسيك يحكمها نظام جمهوري منذ مائة وثلاثين عامًا؟!

لا أشك في أن رُوث قد لاحظت علامات الدهشة التي طفت على وجهي. إنها الدهشة نفسها التي تغلبت عليَّ عندما رأيت غلاف جواز سفرها لأول مرة، وقد كُتب عليه «الولايات المتحدة المكسيكية». وقتها ضحكت كثيرًا على المفارقة، بلد مكافح يناطح جارته الكبرى حتى في اسمها. ما الذي تريد رُوث إيصاله لي؟ هل تسخر من نظام جمهوري لن يضيف إلى واقع ملكي شيئًا، أم أنها تشير من طرف خفي إلى أن الجوهر الاجتماعي والسياسي لأي بلد هو الفيصل، وليس شكل الحكم به؟ يطرق رأسي ما قالته تحية كاريوكا: «ذهب فاروق وجاء ثلاثة عشر من الفواريق».

انتقلت الإذاعة مرة أخرى إلى أجواء الحفل الساهر، وجاء صوت يوسف وهبي:

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ مع ميلاد الجمهورية الجديدة، يولد صوت جديد.

يبدأ لحن محمل بالشجن والحنين أكثر من الفرح والحبور. تلتفت رُوث، وترفع وجهها عن لوحتها لتنظر إليَّ، وتخبرني:

ـ ماما أرسلت لي رسالة، استلمتها اليوم. لقد قررت أن تحضر إلينا في القاهرة.

ما قالته كان مفاجئًا لي. هل ستجيء من المكسيك، هكذا فجأة، دون مقدمات؟ لم تخبرني رُوث من قبل عن نية أمها. هل شكت لها رُوث حالنا، أم أن عائلتها قلقة عليها من الأخبار المنتشرة في العالم عن الاعتقالات والمحاكمات العسكرية في مصر؟

يأتي عبر الراديو صوت رقيق ناعم، كزقزقة عصفور حزين. لا يبدو قويًّا رغم عذوبته وتأثيره الطاغي: «صافينى مرة، وجافينى مرة.. وماتنسانيش كده بالمرة».

تواصل رُوث حديثها، بينما يستمر النغم الشجي في العزف. أخفض من صوت المذياع.

ـ هل تفاجأت يا يحيى؟ أرى أنك لست سعيدًا بمجيئها؟

ـ لا، على النقيض. سيكون جميلًا أن تزورنا!

حاولت أن أضفي البهجة على نبرة صوتي، لكنني فشلت في إخفاء استغرابي. تركت رُوث ما بيديها، واقتربت مني. أخذت كفي المستسلمة بين يديها، ونظرت في عينيَّ:

ـ لماذا لا تريد أن تفهمني؟ أنت تعاني، وأنا أيضًا. أصدقاؤك يدخلون السجون تباعًا، والدكتاتورية لم تعد شبحًا. أصبحنا أكثر عصبية، نتشاجر بعنف. أمامنا مواصلة حياتنا في بلدي. من الذي يرفض أن يكون له أطفال وأسرة صغيرة هانئة؟

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

ظهر إذن الغرض الحقيقي من زيارة الأم، محاولة أخرى للضغط وإجباري على العيش في كنف أبيها الفنان الشهير.

سألتها بدوري:

ـ متى ستجيء؟

ـ لم تبلغني بموعد مجيئها، في الغالب في بداية الخريف حين يهدأ حر الصيف.

يستمر اللحن الشجي والصوت النحيل في الغناء؛ لأكتشف أن هناك عصرًا جديدًا يولد، وزمنًا قديمًا يولي الأدبار. غناء جديدًا يبدأ، وطربًا ثريًا آخر في طريقه للانتهاء. ساسة وزعماء يتوارون، وشبان صغار في زي ضباط يتقدمون! حتى قصتي مع رُوث، بدأت فصلها الثاني، وولّى فصل البداية.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

(١٨)

روث ووالدها ديجو ريفيرا

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

عزيزتي روث

أستوحشك ياتوأم روحي، أتذكر جلساتك في المرسم وأنا أعمل، وآراءك وتعليقاتك المرحة المشاغبة. أحن إلى قفزاتك وأنت طفلة بجانبي على السقالة الخشبية، وأنا أرسم الجدران الشاهقة، هل تذكرين؟!

فاتك أبرز أحداث العام في المكسيك! معرض فريدا في مكسيكو سيتي الذي أقيم في شهر إبريل، وضمَّ لوحاتها بمفردها. أُعجب الجميع بموهبتها الخارقة. حتى أنا، تأثرت كثيرًا عندما تأملت كل لوحاتها التي وُضِعت لأول مرة معًا. جاءت فريدا في سريرها على متن عربة إسعاف لافتتاح المعرض، تعرفين أن ساقها قد تَمَّ بترها منذ شهور. كان مشهدها بطوليًّا بكل معنى الكلمة. جلست هادئة صامتة، فقد سرَّها عدد الحضور الكبير. أعتقد أنها عاجلًا ستدرك أن ذلك المعرض كلمة وداع للحياة.

في هذا الشهر، دخلت فريدا المستشفى ليبتروا ساقها حتى مستوى الركبة، بعد أن ماتت أعصاب ساقها، وأصابتها الغرغرينا. قال الأطباء إنها لو لم تجرِ العملية فستموت من التسمم. وكعادتها، كانت شجاعة. قالت لهم: ابتروها بأسرع ما تستطيعون. هذه الجراحة الرابعة عشرة التي تخضع لها فريدا في مدة ستة عشر عامًا. سقطت فريدا بعد العملية في اكتئاب عميق. لم تعد تريد سماع مغامراتي العاطفية التي كانت تعجبها وتسليها، عندما أرويها لها.

كم من مرة اتصلت بي ممرضتها تلفونيًّا، لتخبرنى أن فريدا تصرخ قائلة إنها تريد أن تموت. كنت أتوقف عن الرسم فورًا وأذهب مسرعًا إليها لأهدئها، وعندما تهدأ أرجع لمواصلة الرسم مرة ثانية

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ولتعويض ساعات العمل التي فقدتها. أحسُّ بتعب شديد، كثير من الليالي أسقط فاقد الوعي، لأجد نفسي نائما على الكرسي، ورأسي معلق في الهواء إلى الخلف.

وفرتُ تمريضًا ومراقبة طبية لفريدا على مدار الساعة، التكاليف بالطبع تضاعفت، ومعها ميزانية الدواء والعلاج لم يعد دخلي من رسم اللوحات يفي بالنفقات، فلجأت إلى تصنيع الألوان المائية لبيعها. لم أعد أستطيع تحمل الوحدة والتفكير في رحيلها.

أفكر أن نهدي بيتنا إلى الحكومة، سيصبح متحفًا، وسيضم مرسمانا الأزرق والأحمر، وسأحتفظ بركن فيه لإقامتي. لا يقدر أحد على الترتيب والإشراف على إدارة هذا المتحف سواك يا رُوث. أنت وريثتي الوحيدة التي سرى الفن في دمائها، شقيقتك الكبرى جوادلوب منغمسة في السياسة والدراسات العليا في القانون والاقتصاد. أنت شقيقة روحي بكل جنونها وفنها وحتى نزواتها. أفتقدك!

أخبرتني والدتك أن أمورك مضطربة مع يحيى، خطابك الأخير إليها مقلق للغاية. تركتك يا رُوث تذهبين وراء عاطفتك التي أوقعتك في أيام قليلة في حبائل المصري، وكنت أدرك أن هوة ثقافية تفصل بين المكسيك ومصر. هم شرقيون بكل مايعني ذلك من عادات وتقاليد محافظة تنظر إلى المرأة كمخلوق تابع للرجل، أما نحن فلا. علمت أنك اكتشفت غيرته القاتلة عليك، وعصبيته الزائدة. أخاف أن أغضبك، ولكن الحقيقة أغلى من غضبك. انتهت قصتك معه، فلماذا لا ترجعين إلى كويوثان والمكسيك؟!

في كل يوم نسمع عن الأوضاع المضطربة في مصر، محاكمات عسكرية وأحكام بالإعدام، واعتقالات بالجملة للشيوعيين. لا قانون،

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ولا قواعد للعبة السياسة. أخشى عليك ـ يا صغيرتي ـ من عسف الحكم العسكري، وعزلة الغربة.

أنتظرك، نحن بحاجة إليك. علمت أن والدتك ستذهب إليك لتضمد جراحك وتساعدك على الرحيل.

قبلاتي

بابا

سابو-رانا

٢٨ أغسطس ١٩٥٣

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

(١٩)

«ولا أعرف كيف حدث هذا بالنسبة لبقية الزملاء في المجلة، ولكني أذكر أني بدأت أحس بالتناقض داخل نفسي أنا. كانت خواطري القديمة، وعدم هضمي لكل تلك الأساليب الأوروبية في العمل الثوري نفسها قد بدأت تعود إلى تفكيري. بل بدا يخطر لي أحيانًا أن كل ذلك العالم السري الذي عشت فيه وقضيت أهم سنوات عمري أخوضه لا يمكن أن يؤدي بنا إلى ثورة حقيقية ننقذ بها بلدنا».

(البيضاء)

روث ريفيرا بعدسة المصورة العالمية لولا الفاريز برافو

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

تمر الأسابيع والأيام على رحيل رُوث، وأنا ممزق بين ليل الوحدة الموحش وأحداث نهار متسارعة يلهث وراءها الجميع. مازالت رائحتها تعانق ملاءات السرير والوسائد، وتسري بقوة في أنفي. أكاد أسمع تردد أنفاسها بجانبي في الهزيع الأخير من الليل. تطارد خيالي عشرات اللحظات التي عشناها معًا. لحظات حلوة، وأخرى مُرة قاسية. تقفز أمامي تعبيرات وجهها المختلفة: ملامحها في مواقف الغضب والخصام، وابتساماتها وضحكاتها في أوقات الرضا والتفاهم.

كم من مرة يفاجئني صوتها:

ـ يا هيا، هل أعد قهوتك؟!

ـ ياهيا، أنت ذئب، لافرق بينك وبين الذئاب! تتصرف كذئب!

ـ ياهيا، لست ضعيفة أقبل منك ماتقبله نساؤكم الشرقيات من الرجال.

وفي كل مرة أدرك أن ما أسمعه سراب ووهم. تحولت حياتي بعد رحيلها إلى صحراء قاحلة بلا قطرات ماء تبلل شفتيَّ المشققتين الظمآنتين. أكاد أجن! أطفئ لهيبي في الكتابة والنشاط السياسي، ولكن هيهات أن تخمد النيران التي تأكل قلبي وكرامتي!

تتسلل أناملي دون إرادة مني إلى داخل درج المكتب، وتخرج صورتها الفنية التي احتفظت بنسخة منها. أتأملها وأغرق في التأمل.

يالها من زهرة برية، تمتزج رقتها بعنفوان الحياة ووحشية الرغبة. تغلق جفونها على حلم ذي ألوان مبهجة كلوحات أبيها، رأسها مطرق إلى الخلف، كتفاها رائعتان كجناحين مقيدين ينشدان التحرر، وفمها يتأهب لقبلة حياة.

تخرج من الصورة، وتترك جذع الشجرة التي تمسك به. تمسك

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

بذراعي وتضع ذراعها الآخر خلف ظهري. نرقص معًا نفس رقصتنا في فيينا. تداعب سمعي الموسيقى الحالمة لأغنية إديث بياف «الحياة باللون الوردي». تنبعث الذكرى متوهجة في خاطري لتملأ النغمات الحالمة مسكني البائس الصغير، وتتجسد المغنية الشقراء التي احتضنت الميكروفون بكلتا يديها. يأتي صوتها، وكأننا ما زلنا في نفس البار الفرنسي الذي دلفنا إليه منذ أكثر من عام.

«عندما يأخذني بين ذراعيه
ويكلمني بصوت خفيض
أرى العالم بلون وردي
يقول لي كلمات حب
كلمات كل الأيام
لكن هذا يفعل بي فِعله».

ندور بين أجساد الراقصين الآخرين، تقودني خطواتها الرشيقة. ترقص بتناغم وتطير بي فوق الرءوس. من أين جاءت بتلك الهارمونية التي تحرك بها جسدها ورأسها؟

أهمس في أذنها:

ـ ترقصين كفراشة، من أين جاءت تلك الاحترافية والموهبة!

تبعد رأسها إلى الخلف، وتبتسم:

ـ ستعرف فيما بعد!

أدنو منها، وأحتضنها. تدور بنا أقدامنا، وتلامس شفتاي بشرتها خلف أذنها. أحس بارتعاشتها، وأطير محلقًا في الفضاء.

تختلط الذكرى بالوهم، ويتجسد خيال رُوث أمامي يراقصني. أقترب منها، فتبتعد. تتشابك أذرعنا في عراك حقيقي، تلتفُّ كفي

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

على عنقها وتضغط على حنجرتها. تصرخ، وتعضّ معصمي بكل ما أوتيت من قوة. تصخب الموسيقى الناعمة، فتبدو لهاثًا.

يزداد غناء الشقراء ذات الثوب الأسود حرارةً:

«*دخلت في قلبي*
حصة من السعادة
التي تعرف سببها
إنه لي
وأنا للحياة كلها
قالها لي
أقسم للحياة كلها».

يدركني أذان الفجر من وراء شيش الشباك، فأنظر عبر فتحاته الضيقة، وأكتشف زوال عتمة الليل. أذهب إلى مخدعي، محاولًا أن أغفو. توقظني خبطات غليظة على باب الشقة الخشبي. أطالع وجه عامل محل الفول الذي بجوار مسكني. يمد يديه بإفطار الصباح المعتاد.

ـ صباح الخير يا دكتور!

أنظر إلى ساعة الحائط المثبتة بجدار الصالة، وأتذكر موعدي مع حلمي عطوة في الثامنة صباحا بمقهى أسترا بميدان الإسماعيلية. أضع بعض لقيمات في فمي، وأنا أرتدي ملابسي على عجل. أطالع مانشيتات الجرائد المعلقة على واجهة أكشاك الصحف في شارع قصر العيني، فأدرك أن مظاهرات الأمس، التي ظهرت فجأة لتطالب بسقوط الديمقراطية والدستور، لم تصل إلى أغراضها. لم تزل قرارات ٥ و٢٥ مارس سارية، إذن مازال هناك أمل في انتصار الديمقراطية والدستور.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

لم يكتظ المقهى بزبائنه بعد. أجد حلمي عطوة، ببدانته وجسده المترهل كبالونة منتفخة، جالسًا بالقرب من إحدى نوافذ المقهى المطلة على شارع محمد محمود. ألقي عليه السلام، وأجلس.

ـ يحيى، طلبوا مني إبلاغك بموعد اجتماع لجنة منطقة القاهرة اليوم في العاشرة صباحًا.

أتعجب من هذا «التنظيم السري»، الذي أصبحت مواعيد اجتماعات لجانه معلومة لأعضائه كافة! أنا بالفعل في لجنة القاهرة منذ شهر نوفمبر الماضي، ولكن من المفترض أن يكون ذلك سرًّا. تبدو مشكلتنا واضحة أمامي الآن، أساليب التنظيم السري الأوروبية لا تصلح لشعبنا. كيف يمكن أن تتحرك سرًّا في بلاد يعلم الجميع فيها ماذا أكلت اليوم، وكيف نمت مع زوجتك؟ نحن شعب ثرثار بطبعه، منفتح على الحياة. أقرر أن أمارس مع عطوة لعبة الإنكار والجهل بما يقول، هكذا تقتضي قواعد التنظيم الستاليني!

ـ لكنني لست عضوا قياديًا بهذه اللجنة، أنا أعمل من خلال مكتب الكُتّاب والفنانين!

ـ حملة القبض الأخيرة على الزملاء لم تترك لنا خيارًا. تكونت لجنة قيادية مؤقتة للتنظيم. أنت تعرف أن أغلب أعضاء ل.م في السجن الحربي. الاجتماع سيكون في شقة أحمد شوقي بشارع سليمان جوهر بالدقي، في الساعة الثانية عشرة ظهرًا.. تعرفها بالطبع؟

ـ أعرفها جيدًا. ولكن من أخبرك بالاجتماع والموعد؟!

ـ الرفيق عامر.

أتابع بنظري رجلًا يركب دراجة هوائية، ويسند بيده اليسرى لوحًا من جريد أقفاص عليه أرغفة خبز مرصوصة، بينما يده اليمنى تمسك بمقود الدراجة. يبدو كلاعب سيرك ماهر يحافظ على اتزانه

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

وسط سيل السيارات المسرعة في الصباح. من المؤكد، أنه سيذهب ببضاعته إلى مطعم للسندوتشات قريب في الميدان، قد يكون محل «إيزافيتش» الشهير أو ذلك المطعم في أول شارع الخديوي إسماعيل. تأخذ الدراجة طريقًا متعرجًا بين السيارات، ويطرأ على ذهني سؤال عفوي. هل تستطيع مصر، مثل هذا الرجل، أن تجد طريقها بين كل هذه الأنواء والعواصف؟!

ـ إلى أين ذهبت في سرحانك يا يحيى؟

يأتي صوت عطوة ليوقظني من تأملاتي. أنظر إليه مبتسمًا، وأحاول أن أجد مدخلًا يصلح لاستئناف حديثنا. لكنه يبادر بسؤالي:

ـ ما أخبار مجموعتك القصصية التي تنوي نشرها؟

ـ أنقحها وألقي نظرة أخيرة عليها، ستصدر عن روزاليوسف في الكتاب الكبير الذهبي. لا أعرف كيف سيتم استقبالها في هذه الأجواء المضطربة.

ـ لا تقلق، سيستقبلونها بترحاب. ألم تقلب الدنيا بقصصك في جريدة المصري؟ ألم تصبح في أقل من عامين أهم وأشهر كاتب قصة في مصر، بينما هناك عمالقة يكتبون منذ سنوات وسنوات؟

خامرني الظن بأن الغيرة تفتك بعطوة، هو أيضًا يكتب، ولكن فقط مقالات سياسية في روزاليوسف. جملته الأخيرة عن العمالقة تثير حنقي. ربما يسبقونني بأعوام وأعوام، لكن العبرة بالموهبة والإنجاز. بلد يعيش فيه اثنان وعشرون مليون إنسان، أغلبيتهم الساحقة من الفلاحين المعدمين، ولا يجد أدبًا حقيقيًا يعبر عن فقرائه. وإذا وُجِد، فإنه لا يعدو مجرد معالجة سطحية، بل سياحية، لفلاحيه! عطوة لا يفهم النقلة الكبيرة التي أحدثتها بقصصي، عندما كشفت عن العالم الروحي والنفسي

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

الحقيقي للفلاح. ابن الريف ذكي وحساس ومتحضر، مثله مثل الأفندي ابن المدينة.

قطعت صمتنا يد الجرسون التي امتدت لوضع فنجانيْ القهوة، وصوته:

ـ المضبوط لمن؟ والسادة لمن؟

أدنيت فنجان القهوة المضبوط من فمي، وهممت بارتشافه. رفعت عيني عن الفنجان، فالتقت نظرتي بنظرة رجل بدين قصير يرتدى بالطو أصفر كالحًا على جلابية بلا لون. الرجل يجلس في ركن قريب، ويتظاهر بالنظر إلى جريدة في يده. ظلَّ الفنجان في يدي، وهمست إلى عطوة دون أن تلتقي أعيننا:

ـ نحن مراقبان يا زميلي العزيز!

تابع عطوة إشارتي الخفية بطرف عيني نحو المخبر، وأبدى عدم اكتراثه:

ـ لا تهتم! ماذا سيقول لمرءوسيه سوى أننا تقابلنا في المقهى. نحن زملاء في مجلة واحدة، ثم إنهم يفتقدون التقنية اللازمة للتنصت على حديثنا في المقهى. هذا إذا لم يكن صاحبنا، قد تعلم لغة حركات الشفاه!

ملاحظة محدثي، التي ألقاها، جعلتني أطلق قهقهة عالية. ضحكت بملء فمي، ونظرت ناحية المخبر الذي أخفى وجهه وراء صفحات الجريدة. لم يتغير مظهر المخبرين منذ عهد القلم المخصوص والبوليس السياسي، رغم أن حكومة الضباط الأحرار قد أنشأت إدارة جديدة تقوم بمهامهما تحت اسم «المباحث العامة»! هذه هي المرة الأولى ـ منذ تخرجي في قصر العيني ـ التي يطلبون فيها مني عملًا مباشرًا سريًا. هل البارودي على علم بمدى احتياجهم

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

لي؟! ولو علم بالموضوع، فكيف سيكون رد فعله وهو الذي يتهمني بالتمرد والهرطقة!

مَدَّ عطوة يده بعلبة سجائر «لاكي سترايك» مفتوحة، التقطت منها سيجارة. أشعلت بدوري عود ثقاب وأشعلت سيجارته وسيجارتي. حاول أن يسبر غوري، فسأل:

ـ كيف يسير حالك بعد رحيل رُوث؟

استغربت سؤاله الذي اقتحمني بلا تمهيد. ويبدو أن صفحة وجهي قد تعكرت، فلاحظ عطوة نفوري.

ـ يحيى، أنت تعلم جيدًا مدى حبي لك ومدى احترامي لك ورُوث. أعرف أنك تعاني آلام الفراق، ولكن ألا تعتقد أن فراقكما كان محتومًا؟ كنتما قارتين مختلفتين تفصلهما عشرات آلاف الأميال، موهبتك تستأثر بك فتتجاهل وجودها! وهي التي كانت دائما محط الأنظار في بلدها بسبب عائلتها.

ـ ربما، ما تقوله صحيح.

نفثت الدُّخان أمامي بعد أن كورت شفتيَّ، فاختفت ملامح عطوة لثوانٍ. عطوة لا يسكن بالقرب مني، فتحي سالم وزوجته كانا يسكنان على بعد مائة متر لا أكثر. ربما زرت فتحي مع روث في مسكنه في حارة درب البهلوان المتفرعة من المبتديان مرتين أو ثلاثًا. لكنني كنت حريصًا على ألا تظهر خلافاتنا ومشاجراتنا أمامهما. هل لجأت رُوث إليه وإلى زوجته، عندما كانت تغادر شقتنا غاضبة؟! ولكن بأي لغة تستطيع أن تتفاهم مع زوجته التي لا تجيد غير العربية؟! وهل أبلغت زوجة فتحي زوجة عطوة بمشاجراتنا؟

نظرت إلى ساعة معصمي، فأدركت أن أمامي ثلاث ساعات قبل الاجتماع. استأذنت عطوة في الانصراف، فخرجنا معًا من المقهى.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

افترقنا، تدحرج هو ناحية شارع قصر العينى، بينما خطوت متثاقلًا إلى اليمين نحو سُرة الميدان. راقبت بطرف عيني المخبر الذي خرج في أثرنا، وأدركت حيرته التي استمرت ثوانيَ. قرر أن يتبع عطوة. دخلت محل الصيرفي الملاصق للمقهى، أكوام اللب الأسمر والفول السوداني مكدسة وراء زجاج الفاترينة، اقتربت من المكتب المرتفع لصاحب الدكان البدين. استأذنت في استخدام التلفون، رفعت السماعة ووضعت قرش صاغ في الفتحة المخصصة أعلى علبة سوداء متصلة بسلك العدة. أغلقت غطاء الفتحة المعدني اللامع، فجاءت الحرارة. أدرت قرص الهاتف أربع مرات في تمهل، بينما كنت أنظر إلى الرصيف مستطلعًا. أخبرت عم مرسي التمرجى بعدم حضوري للعمل، وطلبت منه إبلاغ مدير العيادة بطلبي إجازة عارضة.

التفتُّ، فوجدت رجلًا يرتدي جلبابًا كحليًّا وطربوشًا أحمر مستغرقًا في النظر نحوي. أدركت أن مخبر مقهى أسترا قد سلَّم مراقبتي إلى مخبر آخر. أمامي وقت طويل، قررت أن أتسكع وأتلاعب بمخبر المباحث. دخلت محل تصليح الأحذية المجاور، وجلست على الكرسي المرتفع الدوار أمام ماسح الأحذية. حاول المخبر أن يختفي عن نظري، فأعطى ظهره للمحل. وقف ينظر في اتجاه القاعدة الجرانيتية التي أُعِدت لتمثال الخديوي إسماعيل، وظلت خالية. اهتزاز فردتيْ الحذاء تحت ضربات فرشاة التلميع كان إيذانًا بوقوفي، وإعطاء العامل قرش صاغ. يحاول المخبر ألا يلفت انتباهي، فأضحك في داخلي من غبائه الموروث من «العهد البائد»، والذي لم يعالجه «العهد الجديد».

أعبر شارع سليمان باشا إلى الجانب الآخر من الميدان، وأدخل مقهى إيزافيتش. فضاء المقهى عميق، بينما عرض واجهته محدود.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

صفان من المناضد والكراسي اللامعة النظيفة. صاحب المقهى الصِّربي يجلس وراء مكتب صغير بالقرب من الباب. وبالقرب من الجدار الأيسر فاترينة زجاجية بها طواجن الأرز بالحليب ذات الوجه المحمر «الفورنيه»، وصواني البسبوسة. وراء الفاترينة يقف عامل يحضر ساندوتشات الفول والطعمية، ويناول أطباق الحلو للجرسونات. وبين ظهر العامل والجدار، قِدرة فول نحاسية ضخمة، موضوع فيها مغرفة ذات يد طويلة جدًّا. قلة من الزبائن متناثرة في هذا الوقت المبكر من الصباح. بعضهم يتناول أنواعًا مختلفة من أطباق الفول والطعمية، وآخرون يشربون الشاى والقهوة مع أطباق البسبوسة بالقشدة. يتحرك بخفة بين المناضد اثنان من العمال اليونانيين، وعامل مصري. أختار منضدة قريبة من الباب؛ لأتابع حيرة رجل البوليس السري الواقف في الخارج الذي لا يستطيع الدخول إلى المقهى، وتحمل تكلفة الجلوس فيه.

شمس شهر مارس دافئة ساطعة، تنير أرجاء الميدان. من مكاني أرى مبنى المجمع الحكومي الضخم، ومئات النوافذ الصغيرة تطل من واجهته. ورغم ضخامة المبنى الذي يبدو كقوس من دائرة مفتوحة، فإنه يفشل في احتواء الميدان الكبير.

تمرُّ بذاكرتي أحداث ٢١ فبراير ١٩٤٦ التي شهد الميدان جانبًا منها. تتلاشى من أمام عيني صورة المبنى الحديث، وتنبعث - بدلًا منها - مبانٍ قبيحة لإصطبلات الجيش الإنجليزي. هناك عبر الشارع، وعلى ناصية الطريق المؤدي إلى جسر قصر النيل، مباني «ثكنات» قصر النيل التي كان يشغلها البريطانيون، وأصبح يشغلها الآن الجيش المصري. تتصاعد بالتدريج ضجة أصوات مظاهرة ضخمة

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

قادمة إلى الميدان: «يسقط الاستعمار»، «يسقط عملاء الاستعمار»، «يسقط حكم الباشوات»، «لا ملك إلا الله». يسير المتظاهرون أمامي وسط غبار كثيف تثيره خطواتهم المندفعة. يقود الهتافات شباب محمول على الأكتاف، وشابتان محمولتان على كرسيين من الخيزران مرفوعين على السواعد، أتعرف عليهما: «لطيفة الزيات» و«نجيبة عبد الحميد». يحتل المتظاهرون المساحة ما بين ثكنات قوات الاحتلال وجراجات وإصطبلات الإنجليز. وفجأة تندفع أربع سيارات بريطانية مصفحة من ناحية شارع قصر العيني، لتدهس المتظاهرين تحت عجلاتها. يشتعل الغضب، فيهاجمها الناس ويحرقونها. يخلع الشباب قمصانهم ويغمسونها في بنزين سيارات الإنجليز، ثم يقذفون الثكنات بكرات القماش المشتعلة. تلعلع أصوات الرصاص الحي المصوب من نوافذ الثكنات نحو المتظاهرين. أُبصر أجانب يطلون من شرفات العمارات العالية المطلة على الميدان، يوجهون رصاصاتهم من أسلحتهم الشخصية تجاهنا. يشير متظاهرون بأصابعهم إلى أعلى، فأنتبه على إعلان جريدة «أخبار اليوم» الضخم فوق إحدى العمارات. يسقط قتلى وجرحى. أكاد ألمح ذعر القناصة الذين ظهروا على سطح عمارتيْ «سرباكيس» العاليتين، وهم يصوبون أسلحتهم نحونا. يزيد الهياج، فيشعل المتظاهرون النار في الأكشاك الخشبية أمام الثكنات.

ألمح زميلنا في الكلية عصام جلال يتجه صوب عربة للجيش المصري تقف على ناصية شارع الخديوي إسماعيل، فأتبعه. مكتوب على جانب العربة «الجيش مع الشعب ضد الاستعمار». نسأل الضابط المساعدة فعشرات الشهداء سقطوا. يبكي الضابط أمامنا قائلًا:

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ يا أفندية، ليست معي رصاصة واحدة. لو كانت معي رصاصة، لكنت دافعت عنكم دون سؤال.

تتفرق المظاهرة الضخمة إلى عدة تظاهرات صغيرة تغادر الميدان، ويرفع المتظاهرون قمصان الشهداء المصبوغة بالدم. تشتعل شوارع وأحياء القاهرة بالغضب، وتتلون بأحمر الدم وأسود الحداد. ثلاثة وعشرون شهيدًا ومائة وثلاثة وعشرون جريحا، كما عرفنا في صحف اليوم التالي. يصبغ الأحمر القاني منظر الميدان عبر باب المقهى. أغمض عينيَّ وأفتحهما بعد برهة، فأجد وجه جمعة الأسمر يحجب عني الشارع، ليسألني:

ـ طلباتك يا دكتور؟

يأتي جمعة بكوب الشاي الساخن ومعه صحن به قطعة بسبوسة، وُضِع عليها ملعقة قشدة بيضاء. أتناول قضمة من البسبوسة بشوكة صغيرة، وأتبعها برشفة شاي. لا أرى المخبر عبر الباب، فأرتاح.

* * *

أخرج من مقهى إيزافيتش، فإذا بنفس المخبر ينتظرني بعيدًا عن الباب. أمشي متمهلًا، فيبطئ من سيره ويدور بجسده نصف استدارة، يخطو بجانبه! أضحك في سِري مغتاظًا. أتحرك ناحية محطة الأتوبيسات، فأعبر من أمام فيلا هدى شعراوي ذات الطراز المعماري الإسلامي والمشربيات الخشبية. أبصر زحامًا رهيبًا على رصيف المحطة، أندس بين الواقفين مستغربًا. تتناهى إلى سمعي أحاديثهم وهمهماتهم الغاضبة. إضراب عام يقوم به العاملون في باصات النقل المشترك، بل يرغمون سائقي وعمال الترام على التوقف عن العمل. سمعت بأذني من يقسم إنه رأى

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

سائقي الباصات يضربون سائقي الترام ويقلبون عرباته؛ إذا رفضوا الاستجابة لهم.

حدثت المعجزة. أبصر أتوبيس رقم ١٠ قادمًا، يهدئ من سرعته ليقف. يندفع الناس نحوه متصارعين. أقفز إلى داخله من الباب الأمامي، بينما يصعد إليه المخبر المثابر من الباب الخلفي، ليقف في الجزء المخصص للدرجة الثانية. أنظر ـ وسط الزحام ـ عبر الحاجز الزجاجي الفاصل بين نصفي الحافلة. يمر المحصل عبر ممر يشق الحاجز الزجاجي، وهو يدقّ بقلم الكوبيا على كعب التذاكر الخشبي. أسترق النظر إلى المحصل والسائق، ما الذي جعلهما لا ينساقان لإضراب يطالب بعدم عودة الجيش إلى ثكناته؟ هل هم من جماعتنا؟

أقف في الممر قريبًا من الباب المقابل للسائق، ممسكا بيدي القضيب المعدني الذي يمتد مع شبيه له من أول سقف العربة إلى آخره. تقف بجانبي شابة متأنقة ذات شعر قصير، ترتدي نظارة شمسية، وعلى كتفها حقيبة جلدية. تلتصق فخذها بفخذي، وصدرها بجانبي. ألاحظ أنها لا تبتعد عني، بل تضغط بجسدها اللدن ناحيتي. يمرّ الكمساري فينضغط جسدانا أكثر فأكثر، أشعر بسخونتها، وأشمّ عطر «ثلاث خمسات» المصري يفوح منها. أنظر عبر الحاجز الزجاجي، فتلتقى نظراتي بنظرات المخبر. يدير وجهه ناحية الشارع ببراءة، وكأن لا صلة له بي.

يحتقن وجه الفتاة السمراء، وتظهر قطرات العرق عليه. سخونة الجسدين حولت طقس شهر مارس اللطيف إلى جحيم أغسطس الملتهب. توجه نظراتها نحو الشباك أمامنا. يجلس على المقعد العمودي على الشباك كهل أصلع يقرأ في جريدة، وامرأة أجنبية

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ترتدي قبعة من الخوص الملون بالأخضر. يسيل العرق على وجه الفتاة، فتخرج منديلًا صغيرًا أبيض من حقيبتها، وتجفف وجهها بلمسات متلاحقة. يفلت المنديل من أصابعها فيقع في حِجر الرجل أسفلنا. يزداد ارتباكها. تحين التفاتة من الكهل إلى بقعة القماش الأبيض التي ظهرت في أعلى بنطاله. يفك زر فتحة البنطال ويدفس المنديل داخلها بسرعة، ويزرر بنطاله من جديد. لقد ظنها طرفًا من سرواله الداخلي. أكتم ضحكتي، فتنظر الفتاة ناحيتي في ارتباك، ويحمَّر وجهها.

أنتبه إلى ضرورة الهروب من مُتابعي. أبتعد عن الفتاة، وأشق طريقي وسط الأجساد المتلاصقة، وأقترب من الباب الأمامي. أنظر عبر زجاج النافذة، كما لو أنني أتعرف على ملامح الشارع. يعبر الأتوبيس كوبري الإنجليز، ويتوقف في محطة ميدان بديعة. يغادره بعض الركاب، ويصعد إليه ركاب جدد. في اللحظة الأخيرة أقذف بنفسي خارج الأتوبيس، وهو على وشك التحرك. يبتعد الأتوبيس، وألمح وجه المخبر ملتصقًا بزجاج إحدى النوافذ يفيض غيظًا.

يجذب انتباهي وجه فتاة سمراء في لوحة إعلانات أعلى إحدى العمارات في الميدان. أتأمل الوجه جيدا، يا إلهي كم يشبه وجه رُوث! يشغل الجانب الأيمن من الإعلان كوب تعلو فوهته رغاوٍ بيضاء، ويملؤه سائل أسمر. أقرأ الحروف الكبيرة في الإعلان: سمراء اللون..لذيذة المذاق..ممتازة. بيرة ستلا بايرش (البيرة السمراء).

نجحت في الإفلات من المخبر، ولا أقدر على الفكاك من رُوث وذكراها! أدقق في ملامح وجه فتاة الإعلان مرة أخرى، ألاحظ عقدًا من الزهور يزين جانبًا من شعرها. أنظر جيدًا إلى الإعلان، هناك شبه

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

ما، ولكن ليس بشكل كبير. ما الذي يجعلني أسيرًا لها لهذا الحد؟! حنيني لرُوث لا ينفي إحساسي بالطمأنينة لرحيلها. بقدر ما تهدهدني ذكرياتي معها، بقدر ما أشعر أنها تطاردني في كل مكان، وتفرض عليَّ حصارًا محكمًا.

في أوقات كثيرة كنت أشعر بوجودها يهدد موهبتي. الضجة التي تحدثها، ونشاطها الزائد يبددان يومنا. تتدفق الأفكار في رأسي، فلا يلاحقها قلمي من سرعة تتابعها. كانت رُوث في الفترة الأخيرة تشوِّش على أفكاري. نعم، كانت تزعجني بثرثرتها وتفانينها. أصبحت شقتنا مكتظة بقلل الفخار القناوى وأبسطة الحصير اليدوية. كل يوم تضيف جديدًا منها، حتى أصبحت أضيق بهذا الزحام. لا أستطيع إنكار أن القصص التي كتبتها في الشهور التي عشناها معًا، لفتت بشدة أنظار القراء والنقاد. لكن وجود رُوث بدأ يعيق تفرغي الكامل لفني.

لا أريد أن أظلمها. اضطراب الوضع في مصر، وانغماسي المتزايد في النشاط السياسي، وتدفق القصص في رأسي، كل ذلك جعل من وجودها عبئًا ثقيلًا على كاهلي. ومن جانب آخر، كان إلحاحها على أن أسافر معها إلى بلدها؛ حيث سننعم بالاستقرار والحياة في كنف أبيها وعائلتها، جنونًا وأنانية مفرطة. أسافر إلى المكسيك، وأترك موهبتي ووطني وناسي؟! أنا كالسمكة لا تعيش إلا في الماء، فليذهب هواء المكسيك إلى الجحيم، حتى ولو كان مزدانًا بلوحات وشهرة أبيها وثروته!

أنظر إلى ساعتي، فأدرك أنه لم يبقَ على موعد الاجتماع الحزبي سوى نصف ساعة. أسير ناحية ميدان فيني، يبدو الميدان هادئا رغم وجود ثلاثة مستشفيات فيه. تستوقفني سيدة لتسأل عن مستشفى الدكتور مجدي، فأشير لها ناحية الشارع المتجه إلى الكورنيش.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

الميدان شبه خالٍ إلا من بعض المنتظرين من أهالى المرضى. أتجه إلى كشك السجائر الخشبي القريب من المدخل الجانبي لمستشفى عانوس، وأشتري زجاجة مياه غازية. أرفعها تجاه فمي لأرتشف منها، وألقي نظرة متفحصة على الميدان حتى أتأكد من إفلاتي من المراقبة البوليسية. رجل بملابس بلدية يقف أمام واجهة مستشفى الشبراويشي المقابل، لكنه سرعان ما دلف إلى داخل المستشفى. أنهي ماتبقى من زجاجة الكازوزة دفعة واحدة، وأعطي البائع قرش صاغ ونصف القرش. أتجه إلى شارع سليمان جوهر الهادئ، لا شيء يثير ريبتي، أمر أمام بيت شوقي لآخر الشارع، ثم أرجع بعد تأكدي من أن أحدًا لا يتبع أثري.

يستقبلني شوقي بالبيجامة مبتسمًا. أجد لديه ثلاثة رجال آخرين يجلسون في الصالة، لم أعرف منهم سوى فؤاد فارس. في البداية اتفق الجميع على «أمان» الاجتماع، زيارتنا إلى شوقي لمعاودته في مرضه. كان شوقي بالفعل منهكًا من نزلة برد شديدة، وانتاب أنفه رشح دائم. منظر شوقي بالبيجامة وقدماه الحافيتان في شبشب جلدي، وأنفه المتورم شديد الاحمرار، والمناديل القطنية البيضاء المكرمشة الملقاة بجانبه على الكرسي، كل ذلك أعطى سببًا معقولًا لتبرير اجتماعنا في حالة مداهمة البوليس لنا. لكن ما شغل تفكيري آنذاك، هو المشهد الكوميدي لاجتماع أهم لجنة منطقة لتنظيمنا في مصر؛ لجنة العاصمة القاهرة.

سمعنا صوت خبطات من ناحية باب الشقة. طرقتان خفيفتان ثم طرقة قوية، تبعتهم بعد ثوانٍ من الصمت طرقة خفيفة أخرى. كانت طريقة متفقًا عليها فيما بيننا. قام أحد المجتمعين ليفتح الباب. دخل

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

شخص متوسط القامة ذو شعر أسود كثيف وشارب تمَّ تشذيبه بعناية. قدمه لنا شوقي باسم الزميل عامر، المسئول السياسي للتنظيم. تذكرت أنني قد رأيت من قبل هذا الوافد علينا يلقي شعرًا في إحدى الندوات الأدبية، لكنني لم أتذكر اسمه الحقيقي. أومأ عامر إلى شوقي، وقال:

ـ طلبت من الزميل «دبوس» أن ألتقي بكم حتى نتناقش في الوضع السياسي الراهن، وأجيب عن تساؤلاتكم.

لا أعرف لماذا اختار شوقي هذا الاسم الحركي العجيب! من العادة أن يختار الزملاء أسماء حركية عادية لا تلفت الأنظار؛ كي تبدو أسماء حقيقية تخدع البوليس.

وجدت نفسي منخرطًا في النقاش:

ـ كنت أود من زميلنا المركزي أن يفسر التخبط الذي أصاب قيادتنا، ها هي تصدر في الصباح بيانًا تؤيد فيه نجيب، ثم تتبعه ببيان آخر يؤيد غريمه عبد الناصر.

ظهرت الحيرة على وجه عامر وسط عبارات التأييد والاستحسان من الرفاق الثلاثة الآخرين لما قلت، تابعت حديثي:

ـ منذ أكثر من عام تتلاحق حملات القبض والاعتقال على أعضاء تنظيمنا والتنظيمات اليسارية الأخرى، ونظل نحن ـ دون غيرنا ـ نؤيد الانقلاب. انفردنا دون المنظمات الأخرى بموقف مائع من إعدام العاملين خميس والبقري في إضراب كفر الدوار، ثم أصبحنا نسمع الآن عن بيان السجن الحربي الذي أصدرته القيادة الدائمة داخل المعتقل لتأييد عبد الناصر.

رانت علينا برهة من الصمت، قطعها أحمد شوقي قائلًا:

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ لعلكم قد لاحظتم أن بياناتنا الأخيرة قد تخلت عن التأييد الأعمى لمجلس قيادة الثورة. كل أعضاء لجنتنا المركزية في السجن عدا خليل الذي أفرج عنه لأسبابه الصحية، هم معزولون عما يحدث، ولذلك قد يتخذون مواقف غير صائبة. نحن نقوم باتخاذ الإجراءات التنظيمية والمواقف السياسية التي تهدف إلى الحفاظ على وحدة التنظيم. بيانات وجريدة «الجبهة» تهاجمان النظام القائم بلا هوادة.

عندما ذكر شوقي أن خليل هو الوحيد من القيادة خارج المعتقل، تأكدت أن خليل هو نفسه البارودي. وتذكرت الخبر الذي أسرَّ به شوقي إليَّ منذ أسابيع. خرج الزعيم البارودي من المعتقل، وهو يرفض قيادة التنظيم مفضلًا البقاء على صلة فردية به.

تذكرت جملته القصيرة:

ـ البارودي يا يحيى مُنهك، ومراقب. ابعد عنه.

الشائعات التي انتشرت عقب خروج البارودي من السجن، كانت اتهامات ـ بلا دليل ـ توجه دائما إليه. الخائن، الانتهازي، عميل الرجعية.. إلخ، إلخ. لكن الجديد هذه المرة، ما أثير حول أنهم أخرجوه كي يستخدموه ضد «التيار الثوري الجديد»؛ وكي يوازن المواقف الجديدة للقيادة المؤقتة المعارضة للضباط.

انتبهت على صوت عامر الذي استعاد رباطة جأشه:

ـ الانقسام الذي حدث منذ شهور يؤثر على نشاطنا بشدة أيها الرفاق. و«بيان السجن الحربي»، أتحدى أي أحد منكم أن يقول إنه رآه. سألنا الزملاء في المعتقل ففضل البعض الصمت، ونفى الآخرون علمهم به. المهم الآن تجاوز الانقسام والخلاف الدائر ما بين مجموعتيْ «بدر» و«حميدو». أولوياتنا: الحفاظ على التنظيم

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

وعموده الفقري، واستمرار حد معقول من النشاط، مواصلة العمل مع الوفديين والاشتراكيين من خلال الجبهة الوطنية الديمقراطية.

تواصل النقاش، وغرقت في أفكاري. يا الله، ما هذه الدوامة التي نعيش فيها لأكثر من عام؟ شارك أعضاؤنا في حركة «الضباط الأحرار»، بل لولا مبادرة وشجاعة الضابط يوسف صديق لباء الانقلاب بالفشل، وعُلِّقت رقاب قادته على أعواد المشانق! وها نحن ضائعون ما بين السجون والمطاردة. لاحظت أنه عندما جاء ذكر يوسف صديق ونفيه إلى سويسرا ثم إلى لبنان، اضطرب عامر واختلجت شفتاه. انتهى الاجتماع، وخرج الرفاق فرادى.

بقيت مع شوقي لبعض الوقت، سألته عن أخبار حمل زوجته. أخبرني بأن القيادة أخذت قرارًا بالاختفاء ومواصلة نشاطها في ظروف السرية. تساءلت عن ظروفه وهو صحفي معروف لا يمكنه الاختباء والحصول على ما يقيم أود أسرته. نظر إليَّ من وراء نظارته الطبية نظرة تائهة، وتنهد:

ـ نحن نجمع الاشتراكات والتبرعات، حتى من المعتقلين الذين تصلهم نقود من ذويهم. ساعدني يا يحيى في جمع التبرعات من الفنانين والصحفيين المتعاطفين معنا، لديك أيضًا علاقات وثيقة معهم.

أخرجت محفظة نقودي. أفرغتها وأعطيته ما بها، فأخذ معظم ما فيها وردَّ ثلاثة جنيهات لي. حاولت ألا أقبلهم قائلًا:

ـ أصبحت أعيش وحدي بلا التزامات كبيرة.

أصرَّ على رفضه، وأبلغني أن تحية كاريوكا تبرعت بمائة جنيه. كان يخطط للتعزيل من شقته مساء نفس اليوم، وشكا لي من أن راقية تتذمر من الانتقالات والتعزيل المستمر. كانوا قد اعتقلوه في سبتمبر الماضي لمدة ثلاثة أشهر، وأفرجت عنه النيابة دون أن يُقدم للمحاكمة.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ تستطيع أن تأتي إلى شقتي في أي وقت.

قلتها له، ثم احتضنته وغادرت.

انطلقت عبر شوارع جانبية إلى شاطئ النيل من ناحية الجيزة. مررت على كازينو بديعة. فوجئت بمظاهرات صغيرة تقودها هتافات تعادي الديمقراطية، وتنادي باستمرار الثورة. هذه أول مرة أقابل ذلك النوع من المتظاهرين؛ شبان في زي كمسارية، ورجال بجلاليب بلدية، وطلاب من منظمات شباب هيئة التحرير. طوال الأسابيع الماضية، كانت المظاهرات تسير مطالبة بالديمقراطية ورجوع الجيش إلى ثكناته!

على الناحية الأخرى من الشارع الموازي للنيل، أرى جمهرة أمام قصر الأميرة فوقية. أحاط المتظاهرون بفيلا مجلس الدولة وحديقتها على شاطئ النيل من ناحية الجيزة، وتصاعدت الهتافات: «تسقط الديمقراطية»، «يسقط الدستور». وجوه محتقنة، وحناجر زاعقة في ملابس متواضعة. خليط من عمال ومخبري بوليس. وجدت نفسي أتبعهم إلى داخل الحديقة، انجذبت إلى بؤرة الحدث. ظهر السنهوري بقامته القصيرة وطربوشه بجانب أحد الضباط ليتحدث مع المتظاهرين. في تلك اللحظة، انتبهت إلى وجود صبحي التمرجي في عيادة الجراحة بقصر العيني. كان يرتدي قميصًا أبيض وبنطالا رماديًا، وبدا أكثر صياحًا من الجميع! لاحظت الحيرة والتردد على وجه السنهوري، وهم يبدءون في جذبه من ملابسه ودفعه دفعًا إلى داخل المجلس. شاهدت صبحي يخرج من غرفة مكتب السنهوري في جلبة وصياح بالغين، كان الحبر الأزرق يلوث قميصه الأبيض. اقتربت منه جاذبا ذراعه لأنتحي به جانبا.

سألته:

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

ـ ماذا حدث؟

أجاب:

ـ ألقيت بالمحبرة على أم رأس هذا الخائن الكذاب!

قلت مستنكرًا:

ـ إنه السنهوري شيخ القضاة!

أصدر من أنفه صوتا قبيحا، وقال:

ـ هو يريد وأد الثورة وإرجاع الجيش إلى ثكناته!

استغربت جوابه، وقبل أن أفتح فمي وجدت رجلا قصيرًا ينادي عليه:

مكتبة أحمد

ـ صبحي بيه.. شكرًا انتهت مهمتك!

استمهلت صبحي، وسألته: أين يعمل الآن بعد أن اختفى من قصر العيني؟

أجاب:

ـ أنا صحفي في جريدة «الجمهورية» يا دكتور!

أخطو مرتبكًا بعيدًا عن مكان الأحداث، وأتساءل: هل كانت رُوث محقة عندما تشاجرت معي مطالبة أن نسافر معًا إلى المكسيك؟ هل حدثها حدسها بالمآل الذي ستصير إليه القاهرة؟ انتقل توتري إليها طوال الشهور التي قضيناها معًا، كانت الأحداث والاعتقالات تتسارع متعاقبة، لكن كان هناك أمل دائما في انتصار الشعب والديمقراطية. تذكرت حديثها عندما ألقوا القبض على زميلي فتحي سالم، وجاءت زوجة فتحي تخبرنا بما حدث في السادسة صباحًا.

ـ يحيى، لا يمكن أن نعيش بسلام هنا. كيف يمكن أن نكوِّن أسرة، بها أطفال يملئون حياتنا؟!

وقفت في منتصف كوبري الإنجليز، واستندت بمرفقي على

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

حاجزه المعدني. أمامي من بعيد كوبري عباس، وخلفي كوبري أبو العلا. نظرت عبر النيل إلى شاطئ الجيزة؛ حيث كنت منذ قليل في بؤرة الحدث. أحسست بحزن يغمرني، وشممت رائحة حريق مكتوم، حريق بلا لهب وبلا دخان. ظهر وجهها على سطح الماء، وسمعتها وهي تقول:

ـ ألم أقل لك؟

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

(٢٠)

«كان وجه سانتي حيّا ومبتسما ورائعا، بدا مجرد وجه بين آلاف الوجوه وأخذ نوره يزداد حتى بدأت الوجوه التي حوله تظلم، وظلامها يبهت ويبهت إلى أن أصبحت نفسي سماء ليلية صافية ليس فيها مضيء غير وجه سانتي».

(البيضاء)

أيقظتني الخبطات القوية على باب الشقة بعد منتصف الليل، وأفزعت أيضًا شقيقي عادل. اندفع عادل ليفتح الباب منزعجًا، بينما مكثت ساكنًا في سريري بين تصديق وإنكار. كنت أتوقع مجيئهم منذ وقت طويل. ملأ رجال البوليس غرفة النوم والصالة، خليط بين بذلات الميري السوداء ذات النجوم اللامعة على الأكتاف ومعاطف المخبرين السريين. أزحت غطائي، فاصطدمت بوجه مبتسم لشاب في بذلة بنية اللون وربطة عنق صفراء.

ـ آسف يادكتور، لدينا أمر بالتفتيش. تَصرَّف بهدوء، لا داعي للاعتراض أو المقاومة.

رأيت وجه عادل المذعور في الخلف، بينما كانت وجوههم تحيط بي وتصنع غابة من عيون تحملق، وتكاد تسد الطريق أمامي. عادل المسكين، يدرس في كلية الفنون الجميلة في السنة الثانية، جاء ليسكن معي بعد أن رحلت رُوث. استعدت رباطة جأشي، فقمت

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

من السرير واتجهت إلى الصالة. أدركت أنه لا فائدة من السؤال عن إذن التفتيش والقبض. أيّ إذنٍ أفكر فيه، في بلد يحكمه ضباط؟!

انتشر رجال البوليس كالجراد في أنحاء الشقة. تذكرت أنني وضعت عددين من جريدة التنظيم السرية في دولاب الملابس، وحمدت الله؛ لأنني أخفيت جيدًا التقرير الذي كتبته عن تحرك إعلامي ضد الدكتاتورية. كنت قد كتبته من صورتين بعد مقابلتي لأبي الفتح في بيروت منذ أسبوعين، ورفعته لقيادة التنظيم. احتفظت بصورة منه، وخبأتها في تجويف تمثال نصفي كان ينحته عادل. لاحظت أن رئيسهم الهادئ المبتسم، قد جلس إلى المكتب، وبدأ في تفتيش دقيق لأوراقي المبعثرة التي تحولت إلى أكوام في فوضى. كان يفرز كل الأوراق بدأب وصبر عجيب، يضع المجلات والصحف في جانب، والمقالات في جانب آخر، والقصص يرتبها فوق بعضها! استغرقت في مراقبته، وأحسست ـ للغرابة ـ بامتنان عميق لترتيبه أوراقًا طالما حلمت بتنسيقها وترتيبها. فوجئت بمخبر يقفز فوق المرحاض في الحمام، يتشبث بسلسلة الحديد المدلاة من أعلى فتندفع المياه محدثة ضجة في ذلك الوقت من الليل، ثم يفتح غطاء حديد الزهر لصندوق الطرد. عَمَّ يفتش؟! ابتسمت، وأنحيت باللوم على نفسي؛ لأنه لم يدر بخلدي هذا المخبأ من قبل. عندما قبضوا على فتحي سالم، كان يخبئ الأوراق تحت مائدة السفرة بلاصق متين، فلم يلحظوها.

طلب مني رئيسهم المبتسم ذو الملابس المدنية أن أصحبه لتفتيش غرفة النوم، فأدركت أن المنشورات التي في الصُّوان سيتم اكتشافها بسهولة. كان مخبران يفتشان تحت السرير، وفوق الدولاب. أحدهما فتح مصراع النافذة الخشبي، ونظر وراءه!

فتح الهادئ المبتسم الدولاب، أدخل يديه بين طيات الملابس. أخرج الأوراق، ونظر فيها للحظات، ثم أعادها إلى مكانها. صاح في مرءوسيه:

ـ هل وجدتم شيئًا؟

جاءت الإجابات بلا متتالية، أمرني بصوت حازم:

ـ ارتدِ ملابسك، وخذ معك حقيبة صغيرة بها ما يلزمك. ستقضي وقتًا قصيرًا معنا للتحقيق!

انتابتنى الحيرة والتعجب، فلقد وجد الأوراق وقرأها، لكنه لم يحرزها ويثبتها في التفتيش. هل قرأها، ولم يفهم؟! مستحيل. هل يتواطأ معي بدافع الشفقة أو التعاطف؟ بعد تلك الحادثة بسنوات طويلة، عرفت الإجابة. قابلت الشخص نفسه، وكان يعمل بأمانة تنظيم الاتحاد الاشتراكي العربي. أخذني جانبًا، وسألني ضاحكًا:

ـ هل تتذكرني يا دكتور؟!

ـ نعم، أتذكرك جيدًا. أنت من قبض عليَّ في خريف ١٩٥٤!

ـ كنت أرقب نظرات التعجب في عينيك لعدم مصادرتي وإثبات الأوراق السرية المعادية للثورة في دُولاب ملابسك، وبالكاد استطعت الاحتفاظ بملامح محايدة لامبالية أمام أفراد حملة القبض عليك.

ـ ولماذا قمت بذلك؟!

ـ كنت ضابطًا في جهاز المخابرات الجديد، وزميلًا قديمًا لك في التنظيم قبل أن نوقف نشاط قسم «الأحذية» (الجيش) بأمر من القيادة الحزبية. حتى لو لم أكن زميلًا لك، لكنت فعلت ماقمت به نحوك. كنت معجبًا جدًّا بقصصك في المصري وروز اليوسف!

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

شكرته بابتسامة عرفان، وقلت:

ـ لولاك، لكنت نزيل السجن حتى الآن. قضيت أحد عشر شهرًا قيد الاعتقال، لكن غيري قضى أكثر من أحد عشر عامًا.

نظر إليَّ، وهمس:

ـ هل كان ممكنًا أن نتخيل الأدب العربي بدون يحيى مصطفى طه؟!

في السيارة التي أقلتني إلى مكان الاحتجاز، مرت أمام عينيَّ أحداث عام كامل تقريبًا بعد رحيل رُوث. شريط سينمائي مليء بمشاهد المغامرة والنزق. تذكرت اليوم الكئيب الذي قام فيه رجال البوليس بإغلاق جريدة المصري. كنت خارجًا من مجلة روز اليوسف ومتجهًا إلى شارع قصر العيني. صدمني مشهد رجال الشرطة، وهم يتعلقون بالسور الحديدي لحديقة المصري. يخلعون لافتة الجريدة العملاقة ويرمونها على الأرض، فتتناثر شظايا الخشب. كانت اللافتة على هيئة علم مصر الأخضر ذي الهلال والنجوم الثلاثة. فوق اللافتة، كُتبت كلمة «المصري» بخط رشيق. وتحت العلم كان شعار الجريدة: «الحق فوق القوة والأمة فوق الحكومة» بتوقيع سعد زغلول. وضعوا السلاسل والأقفال على أبواب المصري. وقفت مشدوهًا، أرى حياتي وقصصي وأصدقائي على قارعة الطريق. أُوصدت كل الأبواب أمامي، فزاد حنقي على عصابة الضباط الذين أطاحوا بكل من ناضل لسنوات طويلة من أجل الثورة.

كانت أوامر الرقيب في المصري أن يستخدم الصحفيون في صياغاتهم «الرئيس السابق» بدلًا من «الزعيم» أو «الرئيس الجليل» مصطفى النحاس. بدءوا بمضايقة أبي الفتح فامتنع عن كتابة

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

المقالات، إلا مقالة واحدة كانت عن أسعار الطماطم! فسر صديقي أحمد سيف النصر لي ذلك فيما بعد. قال وهو يضحك:

ـ كان أبو الفتح يسخر من اجتماع لمجلس قيادة الثورة قاد فيه المناقشة صلاح سالم، واستمر ساعات طويلة للبحث في غلاء أسعار الطماطم!

توقفت السيارة أمام مبنى المجمع الجديد في ميدان الإسماعيلية، الذي أُطلَق عليه ميدان التحرير حديثًا. نوافذ قليلة مضاءة في أعلاه، لكن أحد أبوابه مفتوح، وبمدخله بعض الضباط والمخبرين الواقفين في حالة تأهب. يأخذني الضابط المبتسم مع ثلاثة مخبرين، لنستقل المصعد إلى الدور الثامن. ألحظ حركة دائبة لأشخاص عديدين في الطابق. ندخل ممرًا دائريًا متعرجًا، على جانبيه أبواب كثيرة موصدة. أدخل غرفة خالية، إلا من مكتب صغير وكرسيين من الخيزران. يبدو أنها غرفة للاستجواب.

أحاول أن أرتب أفكاري، وأستعيد ما سوف أقوله في الاستجواب المنتظر. لم يطل انتظاري سوى ربع ساعة، كانت كافية لأن أتذكر المرة الوحيدة التي زرت فيها هذا المكان. كان ذلك بعد وصولي إلى القاهرة مع رُوث بثلاثة أشهر. فوجئت ببواب العمارة يسلمني استدعاءً باسم رُوث للتوجه إلى إدارة المباحث العامة، ويخبرني أن مخبرًا سريًا من قسم شرطة السيدة زينب قد أحضره. أخفيت الأمر عنها، وتوجهت إلى قسم الشرطة، فأخبروني أن مقر إدارة المباحث العامة يقع في مبنى مجمع المصالح الحكومية الجديد.

ذهبت في الظهيرة إلى الجهاز الجديد، الذي ورث وظيفة البوليس السياسي القديم. تخلصوا من بعض الرءوس العتيقة الفاقعة في الجهاز، واستمرت الرتب المتوسطة والصغيرة، ومعها بعض ضباط

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

الجيش. يومها استقبلني ضابط نحيف شاحب الوجه برتبة صاغ، علمت فيما بعد أن اسمه مصيلحي. كان يدخن بغزارة، ويمص سيجارته بشفتيْه الغليظتيْن في شبق. فتح فمه، فظهرت أسنان سوداء قبيحة المنظر. ابتسم مبديًا استغرابه قائلًا:

ـ أهلا يا دكتور يحيى. لقد استدعينا السيدة رُوث، فلماذا لم تجئ؟

ـ ومنذ متى تستدعون زوجة أجنبية دون زوجها؟!

ابتسم ابتسامة باهتة بزاوية فمه، وهزَّ رأسه. أحسست أنه يقول بنظراته الشامتة:

ـ أرأيت كيف يمكننا تنغيص حياتك؟

أعطى صوته نبرة محايدة، ونظر نحوي بفتور:

ـ يبدو أنك نسيت، أنك قد قدمت طلبًا للسماح بالإقامة الدائمة لزوجتك. الاستدعاء كان إجراءً روتينيًّا. بالمناسبة، كيف وجدت فيينا يا دكتور يحيى؟

دفعتني سخافة السؤال إلى تجاهل الرد عليه. حاول أن يأخذ هيئة الناصح، فجعل صوته لينًا:

ـ ليتك يا دكتور تبتعد عن أنصار السلام المشبوهين. تلك المنظمات يصنعونها؛ لتكون غطاءً لأعمال التجسس لصالح الشيوعية العالمية. نحن نعرف أن زوجتك شيوعية، وكانت في مؤتمر فيينا. لن نتعرض لها مادامت لا تمارس نشاطًا في مصر.

اتجهت نحو باب الغرفة مغادرًا، فجاء صوته من وراء ظهري:

ـ دكتور يحيى، أنت كاتب سيصبح له مستقبل كبير. لا تُضيع مستقبلك.

كنت أفكر في سيناريو للقاء محتمل مع مصيلحي هذه المرة، حينما انفتح باب الغرفة، ودخل ثلاثة أشخاص ليقتادوني عبر

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

الممر الدائري المتعرج إلى غرفة أخرى، أمامها حارسان مسلحان. الغرفة كبيرة، ومؤثثة جيدًا. في صدارتها مكتب كبير، ووراءه ضابط يرتدي بذلة الجيش الكاكي. جذبت نظري لوحة أمامه مكتوب عليها الصاغ محيي الدين أبو العز. جلست على كرسي جلدي مريح أمامه. وهنا، اكتشفت أن مصيلحي نفسه يجلس إلى جانب المكتب وأمامه أوراق كثيرة. وجود ضابط جيش في إدارة تابعة لوزارة الداخلية نبهني إلى اشتراك جهاز المخابرات العامة الجديد أيضًا في حملة القبض.

طلب الصاغ لي قهوة وكوبًا من الليمون دون أن يسألني، وتشاغل ببعض الأوراق أمامه. كان مصيلحي ينظر بفضول نحوي، وبدا ككاتب صغير لتحقيق سيجريه أبو العز. فور وصول القهوة والليمون، التفت الصاغ بوجهه نحوي، وأمسك بورقة بين سبابته وإبهامه، وقال:

ـ تفضل القهوة يادكتور. منذ أسبوعين كنتَ مسافرًا إلى بيروت، وقابلت أحمد أبو الفتح. لماذا قابلته؟ وفي أي شيء تحدثتما؟ قبل أن تجيب أنصحك بعدم الكذب.

كنت قد توقعت سؤاله من قبل، فأجبت من فوري:

ـ هو رئيس تحرير الجريدة التي أنشر فيها قصصي، وبيننا علاقة صداقة عادية.

نفد صبر الصاغ بسرعة خارقة، لم أكن أتوقعها. تكورت قبضة يده اليمنى التي وضعها على المكتب، وحاول أن يكظم غيظه فابتسم ابتسامة متشنجة وهو يرفع من صوته:

ـ كنتما تتآمران على الثورة والبلد، أليس كذلك؟! كيف لشيوعي مثلك أن يضع يده في يد إقطاعي من رموز الرجعية؟!

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

صمتُ، كنت قد اتخذت قرارًا بألا أدخل في جدل سياسي في أي تحقيق يُجرى معي. أردفت مصطنعًا البراءة:

ـ صدقني، كنت أقابله كصديق أكلت معه عيشًا وملحًا من قبل!

ـ وقصتك التي ألقيتها في مؤتمر الأدباء العرب في دمشق، هل كانت أيضًا من باب العيش والملح؟

ـ مالها قصتي؟ قصة تتحدث عن رجل تركي إقطاعي يسور أرضه ويجعل منها سوقًا، ويجبر الناس على الدخول إليه من باب واحد، لكن الناس كالنمل يصنعون طابورًا ويفتحون فتحة في السور. ما علاقة هذا بالسياسة أو بأبي الفتح يا حضرة الصاغ؟

احمرَّ وجه أبي العز، ويبدو أنه شعر باستهانتي بما يقول. لمحت نظرة تَشَفٍّ على وجه مصيلحي، الذي ابتسم ابتسامة صفراء. كان الأخير يسجل الاستجواب على الورق الذي أمامه، وينظر بطرف عين نحوي بين فينة وأخرى، ولسان حاله يقول:

ـ أرأيت خيبة ضباط الجيش، عندما يتدخلون في عملنا؟

تجهم وجه أبي العز، وألقى بقنبلته في وجهي:

ـ يا دكتور يحيى، أنت تتعاون مع أعداء الوطن وعملاء الاستعمار!

ولأول مرة أفقد التحكم في عواطفي، انفجرت في وجهه صائحًا:

ـ أي تعاون مع الاستعمار يا حضرة الضابط؟! كنت في اللجنة التنفيذية للكفاح المسلح في الجامعة، وكنت في أول الصفوف يوم أن فتحوا علينا كوبري عباس. أي عداء للثورة، إذا كنت مع غيري الجسر الذي خطت عليه الثورة لتصل إلى كراسي الحكم؟!

أنهى الصاغ الموقف بلهجة آمرة:

ـ نشاطك لا يخفى علينا. أمامك عشر دقائق لتكتب لنا بأسلوبك الشائق تفاصيل الاتصالات التي قمت بها في دمشق وبيروت.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

انتقلت مرة أخرى إلى الغرفة الخالية، أعطوني قلمًا وورقًا، ثم أغلقوا الباب وتركوني وحيدًا. ماذا أكتب؟ وإذا كتبت، فهل سيغير ذلك من مصيري شيئًا؟

عندما جاءتني الدعوة للمشاركة في مؤتمر رابطة الأدباء العرب، لم أتردد في قبولها. كانت مجموعتي القصصية الأولى قد صدرت وسط أجواء الاحتفاء بها، رغم قتامة الأحداث الجارية. لم تكن رابطة الأدباء السوريين موسرة لتستضيفنا في فنادق، فجاءت إقامتي من نصيب شاب سوري اسمه غسان. كان واضحًا أن قصصي قد سبقتني إلى الشام، فوضعوا مداخلتي في الجلسة الأخيرة، واخترت أن تكون قراءة لقصة من قصصي. الجلسات متتابعة، والشوام متفائلون وخصوصًا بعد سقوط الشيشكلي. شيخ أزهري معمم يعتلي المنصة ويندد بإعدام العاملين المصريين خميس والبقري. أسأل جاري في المقعد، فيبدي تعجبه:

ـ ألا تعرفه؟!

ـ لا!

ـ هو الشيخ عبد الله العلايلي من علماء لبنان الأفذاذ.

جاري شاب لبناني، منفتح، وتقدمي. تعطيه نظارته السميكة وأذناه الكبيرتان مظهرًا أكبر من سنه. أسأله عن اسمه، فيهمس:

ـ دكروب، محمد دكروب.

أعطيه نسخة من كتابي الصادر حديثًا في القاهرة، فيبتهج. أفكر كثيرًا، هل أقرأ قصة منشورة لي من قبل، أم أكتب قصة خصيصًا للمؤتمر؟ بقيت محتارًا حتى جاء اليوم الأخير للمؤتمر، ولم يبق سوى سويعات على ختامه. ذهبت إلى بيت مضيفي غسان، وطلبت منه أن يغلق عليَّ باب غرفة الصالون، وألا يفتحه حتى أنتهي من

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

الكتابة. الفكرة التي كنت أطاردها وتطاردني طوال اليومين السابقين، تتضح رويدًا رويدًا، وكأنها خطوط غائمة في لقطة تصوير تتحدد بضبط عدسة الكاميرا. انهمر سيل الكلمات، واصطفت السطور، وتتابعت الفقرات. أقرأ القصة بلساني بصوت خفيض، وأنا أذرع الغرفة المغلقة جيئة وذهابًا. أنهي إصلاحات نادرة في كلماتها، وأفتح الباب متهللًا. أجد غسان الرفاعي منتظرًا. نعم، تذكرت هذا هو اسمه.

عندما رأى نصّ القصة في يدي، صاح منفعلًا:

- غير معقول! كيف واتتك الموهبة في ظل الانتظار والتوتر أن تكتب قصة بهذا الطول في ساعتين فقط؟!

في المساء كانت القاعة تتلألأ في أضواء مبهرة. كنت ثانيَ المتحدثين. اتجهت إلى المنصة في حلتي البيضاء متمهلًا، أستمع إلى وقع تصفيق محبب. أتمهل، وأضع يدي في جيب سترتي الداخلي لأخرج الصفحات المطوية منه. أقرأ بتمهل، وبين فينة وأخرى أنظر إلى القاعة، فأجد الصمت مخيمًا على الجميع. لا أتبين ملامح الوجوه، لكنني أرى في الفضاء المعلق وجوه الفلاحين المثابرة المرسومة في قصتي. وعندما أنتهي من القراءة، أتعمد إطالة النظر إلى القاعة، وأطوي الصفحات مرة أخرى لأضعها في جيبي مرة أخرى.

بعد برهة صمت قصيرة، يدوي التصفيق في القاعة، وأهبط من المنصة لأجلس في مكاني مرة أخرى وسط تهنئة المحيطين بي. كنت أعرف أن القصة جريئة، وتشير بإصبع الإدانة إلى الدكتاتورية، وتحيي نضال الناس الذي لا توقفه أي سدود أو أسوار. لكنني لم أكن أعلم أنها ستكون ضمن استجواب أمني لي. هي قصة فيها من الرمز والتورية، ما يعجز هؤلاء الضباط عن فهمه، فلماذا أغضبتَهم؟ كان من الأولى مواجهتي بآخر قصة نشرتها في روز اليوسف، قصة كلها

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

تهكم على شعاراتهم وتهويماتهم المثالية عن جمهورية ومجتمع يسودهما الرأي الواحد والنظافة والنظام والاتحاد. جمهورية ساذجة يحلم بها «صُول» في قسم بوليس، ويجعل الناس فيها يسيرون في صفوف منتظمة ويرتدون زيًّا موحدًا. بعد أيام قليلة، انتقلت من دمشق إلى بيروت لحضور إعلان اتحاد الكتاب والأدباء العرب في مؤتمره الأول، وهناك قابلت أبا الفتح.

فندق سان جورج الفخم يحيطه البحر من ثلاث جهات، أجد أحمد أبو الفتح في مقهى الفندق الشهير الذي يشعر الجالسون فيه بأنهم في جزيرة صغيرة وسط الماء. يبدو ـ رغم ابتعاده عن القاهرة لشهور طويلة ـ أنيقًا وبشوشًا، كما كان دائمًا. يقف مرحبًا، ويأخذني بين أحضانه:

ـ كيف أحوالك يا دكتور يحيى؟

ـ لا بأس.

يبدو واثقًا من نفسه، يسأل عن أحوال صحفيي جريدة المصري الذين تفرقوا للعمل في الصحف الأخرى. تغيرت ولاءات البعض، فأصبحوا يسيرون في رِكاب عبد الناصر وزملائه، وبقيَ البعض الآخر محافظا على مواقفه وإن كان سرًّا. أخذ سيجاره الفاخر وأشعله، ومال بجسده إلى الأمام، وهمس متسائلًا عن جهود المعارضة السياسية للدكتاتورية. كان يتساءل بشغف عما وصلت إليه الجبهة بين الوفد واليسار بعد حملة القبض الواسعة على أعضائها. أخبرته بجهود تنظيمنا للحفاظ على أعضائه وصفوفه. أخرج من جيبه جواز سفر عراقيًّا، وأخبرني أنه يتنقل به بين لبنان والعراق وسويسرا، ثم أردف قائلًا:

ـ أرأيت كيف أصبحنا غرباء في بلادنا؟ وعبد الناصر افترس كل

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

أصدقائه، فلم يبقَ معه سوى الصامتين المطيعين. نجيب سجين في مكتبه بقصر عابدين يتحدث مع الجدران، وأنتم مطاردون كالجرذان!

استفزني وصفه لرفاقي بالجرذان. نتحمل بشجاعة الدفاع عن الديمقراطية والحريات السياسية، بينما هو ينتقل بالطائرات ويعقد مع أخيه الصفقات بمئات الآلاف مع نوري السعيد وحكام عرب آخرين. لاحظ أبو الفتح تأففي من جملته الأخيرة، فابتسم متوددًا:

ـ لم أقصد يا يحيى أي إهانة لكم، فأنتم مازلتم صامدين تزعجون الدكتاتورية بمنشوراتكم. فلأتحدث معك بصراحة أكثر!

ـ أنا مصغٍ إليك.

ـ لابد من تحرك إعلامي يفضح الدكتاتورية العسكرية في مصر. هذه الحملة ستبدأ في الخارج والداخل معًا.

أخرج ورقة وقلمًا من جيبه، وبدأنا نناقش الأفكار الرئيسية لهذه الحملة. كنا مستغرقين تمامًا في الحديث، عندما دخل أحد الأشخاص إلى المطعم. توقف أبو الفتح عن الحديث، واصفرَّ وجهه، ونظر نحوه. ارتسم الفضول والدهشة على وجهي، فأخفض صوته وأشار برأسه إلى حيث جلس الرجل الغريب:

ـ هذا هو الملحق العسكري الجديد في السفارة المصرية. إنه من تنظيم الضباط الأحرار، و هو يقوم بالتجسس على السياسيين المصريين في منفاهم في لبنان.

تأملت بارتياب الرجل الذي ينظر نحونا. كان يرتدى بذلة أنيقة ونظارة شمس غالية. أعطيته ظهري، واتفقت مع أبي الفتح على المقابلة في غرفته بالفندق في الغد. الآن فقط، فطنت أن هذا الرجل هو الذي ترصد خطواتي في بيروت! في اليوم التالي ناقشنا بالتفصيل خطوات التحرك، وما يتطلبه من تعاون من تنظيمنا. رجعت إلى

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

القاهرة وكتبت مقترحًا من نسختين؛ نسخة أوصلتها لأحمد شوقي المختبئ من البوليس؛ ونسخة أخرى احتفظت بها.

عندما قرأت نسختي، هالني اكتشاف أنني ـ بخط يدي ـ وضعت حبل المشنقة حول عنقي. قرأتها بعقل بارد، فإذا بها خطة محكمة لقلب نظام الحُكم. أسعفني الوقت لأخبئها في تجويف التمثال، فلم يمرّ على عودتي من بيروت سوى أيام قليلة قبل مداهمة منزلي واعتقالي!

انفتح باب الغرفة، ودخل مصيلحي ووراءه أحد المخبرين السريين. أخذ الأوراق من أمامي، ونظر فيها. لم أكتب سوى سطرين اثنين: «ذهبت إلى دمشق للمشاركة في مؤتمر رابطة أدباء سوريا ولبنان، وقابلت أبا الفتح مصادفة في بيروت، ولم نتحدث في السياسة». استشاط مصيلحي غضبًا، وخرج بالورقة. بعد دقيقتين، كنت مقتادًا في سيارة الترحيلات إلى القلعة. كنت وحيدًا عندما دلفت من البوابة، وجاء أذان الفجر حزينًا من مئذنة جامع قريب. زنزانة انفرادية، وأصوات تعذيب وصرخات تأتي عبر الجدران. انتظرت دوري حتى انتصاف النهار. لا طعام، ولا ماء.

كنت متعبًا مستنزف القوى، عندما سمعت صرير الباب الثقيل للزنزانة. فتحت عينيَّ، فوجدت مصيلحي واقفًا يبتسم. قال:

ـ كيف الحال يادكتور؟ هل تذكرت ما كان بينك وبين أبي الفتح؟

ألوذ بالصمت ولا أردّ، فتنهش صدري ركلة بيادة عسكرية. أسمع صوت انكسار ضلع في جانبي الأيسر، ولا أستطيع الصراخ من الألم. كلما تأهبت للصراخ، أحسست بوخزة سكين في رئتي توقف تنفسي. تطفر الدموع من مقلتيَّ في صمت. يأتيني صوته مرة أخرى:

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ هل تذكرت يا دكتور يحيى أين يختبئ صديقك أحمد شوقي؟ هل تذكرت لقاءك مع أبي الفتح؟

أظل صامتًا أتوجع، أستمع إلى أنين يصدر من جوفي ويتلاشى قبل وصوله إلى شفتيَّ. فيما بعد، سيرن في أذني صوت زميل اعتقال، قابلته بعد خروجي من السجن بسنين:

ـ كانوا يقولون: ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستعباد! فإذا ما رفعها بالفعل ضُرِب ضرب الإبل.

أسمع صوت إغلاق باب الزنزانة ووقع خطواتهم الذي يبتعد ويتلاشى. تبدأ عيناي في الدوران للتعرف على المكان. مازال الضوء الشحيح يسمح باستكشافه. دلوان معدنيان فارغان قريبان من الباب الموصد، وخربشات بأسماء مساجين على جدران الزنزانة. تستوقفني خربشة قريبة من سقف الزنزانة، فأتساءل: كيف استطاع ذلك السجين الوصول إلى هذا المكان ليكتب اسمه وتاريخ اعتقاله؟! أمدّ ذراعي فتصطدم بشيء صلب. أنظر، فأجده رغيفًا من الخبز. أزحف سنتيمترات لألتقطه. أضعه في فمي، يكفيني نصفه لأبقي النصف الآخر للغد. أمضغ بصعوبة وبطء. سيظل هذا اليوم هو الأقسى من أيام السجن، إنه يوم الصمود والاختيار. بعده، ستصبح تفانين التعذيب بلا طائل رغم ازدياد قسوتها. أن تكسر إرادة جلادك وتنتصر إرادتك، هو الحسم الذي يبقيك صامدًا.

في تلك الليلة لم أتذكر رُوث، ولم يرد على خاطري أي ندم على عدم سفري معها إلى بلادها. المرة الوحيدة التي تذكرتها في السجن، كانت عندما انهالوا علينا بالضرب بالكرابيج والشوم في تشريفة حفل استقبال لنا. كان مأمور السجن المخنث يجلس على كرسيه في باحة السجن تحت عريشة تظلله، ليستعرض الواردين الجدد.

كنا عراة تمامًا، وكان يحملق في أعضائنا باستمتاع. واحد فقط منا كان يرتدي فانلة داخلية طويلة ليست من مقاسه! كيف وصلت إليه؟ وكيف احتفظ بها؟ هذا السؤال لم أعرف إجابته حتى الآن. ولكنه كان من المستحيل خلعها عنه، فقد كان هناك قيد حديدي يحيط برقبته، وينتظم في سلسلة متينة تربطه برقاب الرفاق الآخرين. كنا مطروحين على الأرض، تنسال الدماء على وجوهنا. أدور بنظراتي بحثًا عن أشيائي، فأجد ملابسنا وكتبنا القليلة ممزقة مبعثرة في كل مكان. نظارات زجاجية مهشمة، وملابس مهترئة، ووجه رُوث تعلوه تكشيرة ساهمة.

نعم، هي تلك المرة الوحيدة التي تذكرت فيها رُوث، وأنا مسجون. تلاشت وجوه الضباط والسجانة والرفاق المعذبين، كان وجهها يملأ ناظري. كانت تتمتم: «ألم أقل لك يايحيى؟ ليتك سمعتني». كان كل مايهمني أن أصمد، وألا أضعف. سأخرج رافعًا رأسي، وبعدها من حقي أن أراجع مواقفي من الحياة والسياسة والتنظيم. سأصمد، ولن أنكسر الآن.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

(٢١)

«إما حياة كاملة كما أريدها أو لا حياة..لماذا لا أحيا مثلهم، لماذا ليس باستطاعتي أن أساوم، لماذا خلقت هكذا؟».

(البيضاء)

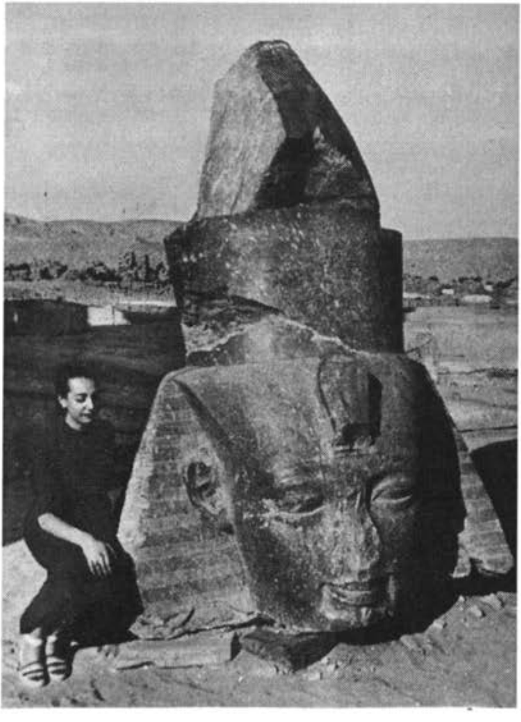

روث ريفيرا في مصر

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

في اليوم التالي لزيارة سامانثا الليلية، رأيتها في قاعة الدرس بالجامعة. تأكدت أن مخاوفها لم تتحقق، وأنها كانت تبالغ في توقعاتها. في اليوم نفسه زارتني في المكتب، وشكرتني على ما أسمته «كرمًا حاتميًّا» من جانبي. في كل مرة تفزعني تلك الفتاة بتعابيرها، التي لا يمكن لأجنبية أن تستخدمها.

كنت قد بدأت في جمع الكتب والأدبيات المتعلقة بالأحداث التي شهدتها مصر في العامين اللذين أعقبا ثورة ٥٢. كلما تبحرت في قراءة ما جمعته، ازددت حيرة وتخبطًا. صراع سياسي واجتماعي عنيف، يفقد الشخص، غير المعاصر له، القدرة على الحكم بصواب وصحة موقف طرف من أطرافه دون غيره. أتصور يحيى ورُوث في خضم تلك الأحداث، وأشفق على قصة حبهما التي كان من الصعب أن تصمد في وجه كل هذه التقلبات والعواصف.

أذكر جيدًا هذا الصديق الذي فتح أمامي باب العثور على الكنز. هو محامٍ يهوى التاريخ ودهاليزه. كنت أتحدث معه مصادفة عن يحيى ورُوث ولُغزهما، وعن اليسار وحركة أنصار السلام المصرية. ضرب بكفه على جبهته، وقال:

ـ لن يفيدك سوى كتب المحامي عادل أمين!

ـ من هو هذا المحامي؟

ـ محامٍ يساري، نذر عمره لجمع أصول القضايا السياسية المتعلقة بتياره السياسي، وطبعها على نفقته الخاصة في أكثر من ثلاثة عشر جزءًا.

بحثت عن تلك الأجزاء، وعثرت على بعضها بصعوبة بالغة. كان من حسن الطالع أن أجد الكتب الخاصة بالفترة الزمنية التي أبحث فيها. جرفتني أمواج التاريخ والوقائع والأسماء التي أصبحت

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

بارزة فيما بعد. متعة البحث لا تضاهيها أي متعة، رأيت رؤى العين الحياة في مصر في بداية الخمسينيات، وعشت حياة التنظيمات السرية وخلافاتها. نبلاء، ومخبرون سريون، وجزارو تعذيب، وأبطال صامدون. طالعت أصولًا لمنشورات وصحف سرية ومراسلات وتقارير تحريات بوليسية. لم يشفِ غليلي ما قرأت، فصرت أبحث عن الأجزاء الناقصة التي لم أجدها.

اسم يحيى لم أجده في ملفات أي قضية قدمت للنيابة العامة! كنت متأكدًا أنه تمَّ اعتقاله في فترة ما بين خريف ١٩٥٤ وصيف ١٩٥٥. هو نفسه يتحدث في بعض أحاديثه عن سنة ونصف السنة قضاها في المعتقلات، بينما يرى آخرون أنه يبالغ في طول فترة اعتقاله، وأنه لم يقضِ سوى ثلاثة عشر شهرًا فقط. قارنت بين المعلومات التي حصلت عليها من مصادر مختلفة، وتواريخ نشاطاته في تلك الأيام وأقواله. توصلت إلى أن اعتقاله كان في بدايات أكتوبر ١٩٥٤، وأن الإفراج عنه تمَّ في أغسطس ١٩٥٥، أي أنه قضى أحد عشر شهرًا وراء القضبان. حملت اللغز الخاص بغياب اسم يحيى في ملفات القضايا إلى صديقي المحامي، فانتابته هستيريا الضحك:

ـ يبدو أنك خام. الاعتقالات لا يتمّ تقييدها في ملفات، والتحقيقات التي لا تُقدم لمحاكمة يتمّ تجاهلها. الملفات التي تقرؤها الآن هي لقضايا قدمت للقضاء.

جذب انتباهي ملف قضية، عُرِفت باسم قضية الجبهة الوطنية. تمَّ القبض فيها على يساريين ووفديين وكتاب وفنانين في الأيام الأولى من نوفمبر ١٩٥٣. كان من الواضح أن أنصار السلام يلعبون دورًا رئيسيًا فيها. في مضبوطات أحد المتهمين، وكان اسمه مصطفى كمال صدقي وكان وقتها أيضًا زوجًا للفنانة تحية كاريوكا، وجدت خطابًا

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

مثيرًا للاهتمام. كان الخطاب موجهًا من يوسف حلمي المحتجز في معتقل روض الفرج إلى تحية، ومؤرخًا في ٥ سبتمبر ١٩٥٣:

«لقد كسبنا فنانتنا الكبيرة في صفوف المناضلين الأحرار. لا أخفي عليك أنني كنت متخوفًا من سفرك إلى مهرجان بوخارست على إثر ما بلغني من أحد المعتقلين أنه شاهدك في إدارة المخابرات العسكرية. شكرًا لك يا تحية. إن وقوفك في صفوفنا يعطيني الشجاعة والقوة والإيمان بالنصر على جميع الأعداء».

فحوى الخطاب تثبت أن القبض على كاريوكا في القضية لم يكن مصادفة أو تجنٍّ من تحريات المباحث العامة. لقد شاركت في نشاطات دولية لحركة أنصار السلام والتنظيمات اليسارية آنذاك. تقارير المراقبة والتسجيلات التي قامت بها المخابرات العامة تؤيد هذا الاستنتاج، فبيتها الكائن بـ ٢ سكة أبو الفدا بالزمالك شهد العديد من الاجتماعات واللقاءات السرية. جاء الإفراج عن كاريوكا وحنفي الشريف مبكرًا، أدرك عبد الناصر بحسه السياسي خطورة أن يتضمن قرار الاتهام اسميهما. وجود «كاريوكا» ضمن المتهمين وراء قضبان القفص أمام المحكمة العسكرية العليا، كان سيحدث لغطًا وضجة كبرى أمام الرأي العام. ولكن أين يحيى ورُوث من كل هذا؟

يحيى منغمس في نشاطه السري ليعوض نشاط قيادات تنظيمه القابعة في السجون. ورُوث يبدو أنها غادرت القاهرة، أو على وشك الرحيل. أبحث في مذكرات من عاش تلك الفترة العصيبة من رفاق يحيى، وأندهش من مطابقة خيال الروائي للواقع. يقول يحيى في «البيضاء»:

«وفي السجن وافاني شوقي بعد أسابيع من الهرب، وعلمت أن سانتي غادرت البلاد وأن لورا اعتقلت هي الأخرى، وأنها بجوارنا

في سجن الحريم. وكم هفت نفسي لأراها، إنها البقية من سانتي وأيام سانتي.

أما البارودي فقد ظل أعمى يقود».

وفي الواقع أيضًا تمَّ القبض على يحيى بينما ظل شوقي مختبئًا في شقق سرية يتنقل بينها، ويدير مع لجنة قيادية صغيرة ومؤقتة نشاط التنظيم. استمرار البارودي الأعمى في القيادة، كان حكمًا واضحا من يحيى على طريقة عمل وسياسة تنظيمه آنذاك. ربما كان رحيل سانتي بعد دخوله السجن، هو الفارق الوحيد مع الواقع. عندما حكى يحيى عن واقعة القبض عليه في أحاديث عديدة بعد ذلك، لم يأتِ على ذكر سانتي أو رُوث الحقيقية. كان وحيدًا في شقته بالمبتديان، مع شقيقه الأصغر. لقد رحلت رُوث قبل القبض على يحيى، بل وقبل مجيء عام ١٩٥٤، وإلا فلماذا تنجب بنتها في نفس العام؟ كانت الأحوال عندما رحلت مدلهمة، وحملات القبض على أصدقاء يحيى ورفاقه مستعرة. جماعة أنصار السلام تمَّ حلها، وأغلقت مجلتها، وأعضاؤها مطاردون أو في السجون بدءًا من منتصف عام ١٩٥٣. الآن فقط، أدرك أن رحيل رُوث كان إجباريًا ومنطقيًا. ولكن ينقصني دليل دامغ على وجود رُوث في القاهرة؛ دليل يجعلني لا أعتمد على سطور شاردة في كتب مستشرقين أو موضوع صحفي قديم.

مَرَّ أسبوعان على زيارتها لبيتي، وكلما مرت الأيام شعرت بأن سامانثا في أمان. تتحرك في بحثها ببطء، ولكن في ثقة. تحضر دروسها بانتظام، وتشاغبني في لقاءاتنا. تعودت على طريقتها في الحديث، وتصرفاتها المفاجئة المربكة. أصبحت مهتمًا بدراسة ما يحدث حولي من حركة احتجاج سياسي واجتماعي. أتابع نشرات الأخبار في القنوات الفضائية، وتجتذبني برامج الحوار السياسي.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

كم مرة رأيت صديق الصبا حمدي في صور المظاهرات المبثوثة، ولاحظت أنه يمارس دوره كمتظاهر بتفانٍ عجيب؟ ذات يوم يرتدي زيَّ قرصان أعور في مظاهرة تندد بغرق عبَّارة تنقل المصريين للعمل بالسعودية، وفي يوم آخر يرفع يديه المقيدة إلى قفص من الجريد بسلاسل حديدية ويضع لاصقًا على فمه للاعتراض على العصف بالحريات، وفي ليلة باردة يمسك بالشموع بالقرب من ضريح سعد زغلول احتجاجًا على ضحايا العنف البوليسي. أطلقت ـ بيني وبين نفسي ـ على حمدي لقب «متظاهر مصر الأول». اختار طريقه، بينما من الصعب، بل مستحيل أن أغير طريقي الذي اخترته من البداية. ألم يقل الإمام محمد عبده: «لعن الله فعل ساس يسوس وسائس ومسوس». أنا على مذهب الإمام الذي جرب الاشتغال بها، فتشرد وتغرب عن المحروسة. أدركَ بثاقب فكره أن الابتعاد عن دهاليزها يساعد المثقف على خدمة الوطن وتقدمه.

غابت سامانثا بضعة أيام عن محاضراتها، فتذكرت رقم تلفونها الذي أعطته لي يوم زيارتها الليلية لمنزلي. حاولت الاتصال بها عدة مرات، ففشلت. كانت الرسالة واضحة «التلفون مغلق، أو خارج نطاق الخدمة». طافت الاحتمالات برأسي، ربما كانت مغامرة من مغامراتها في دهاليز العمل العام، وربما كان انجذابًا لقصة حب مع أحد أقرانها من المصريين، أو هي محاولة منها لجذب انتباهي. ربما وربما وربما، لكنني وقتها لم أفكر قط فيما حدث فعلًا، وعرفته بعد ذلك بأيام.

طال الغياب، فسألت زميلتها الصينية التي تدرس «ألف ليلة وليلة». وعدتني شهرزاد الصين بالسؤال عنها. في اليوم التالي دخلت مكتبي في تردد وخوف. فور جلوسها، طلبت مني وعدًا ألا أخبر أحدًا بما عرفته عن سامانثا. همستْ وكأن معنا آخرين في الغرفة:

ـ لقد جاء البوليس إلى منزلها، وأخذها بحقيبة سفرها إلى مكان ما!

ـ وكيف عرفت بذلك؟

ـ سألت الجيران. ذهبت إلى مسكنها الذي زرته من قبل.

لُمت نفسي؛ لأنني لم أعر اهتمامًا لما تنبأتْ به، هي نفسها. شغلني مصيرها أسابيع. هل اعتقلوها أم اكتفوا بإبعادها عن البلاد. كنت قد تعودت عليها، وعلى ما تحدثه في نفسي من عاطفة منقوصة. لم يكن حبًّا، كان شغبًا محببًا حرك سطح حياتي الراكد. لم أنم أيامًا، كنت أفكر فيها، وفي مصيرها. نسيت مصير دراستها وبحثي عن «البيضاء». بعد أيام أعلمني نائب رئيس الجامعة المسئول عن الطلاب، أنها رُحلت إلى بلدها لأسباب سياسية، وأنها لم تعد في قوائم الجامعة ولا في كشوف الحضور والغياب. تملكني الارتياح، فسامنثا بخير وليست حبيسة في سجن مصري.

بعد أشهر قليلة تلقيت منها تهنئة بالعيد الكبير على بريدي الإلكتروني. كنت سعيدًا، فذكرى ترحيلها بالقوة لم تترك لديها أثرًا سلبيًّا تجاه مصر ومن عرفتهم في أثناء فترة إقامتها. أخبرتني أنها قررت الهجرة من دراسة الأدب إلى دراسة تاريخ السياسة في بلدان الشرق الأوسط. أبدت أسفها لعدم استطاعتها الاستمرار في مطاردة خيال رُوث في رواية «البيضاء». لم يهمني هذا، كنت سعيدًا لأنها تواصلت معي، وظلت تحمل ذكرى طيبة للقاءاتنا.

مرت السنون، وبدأت في نسيان بحثي والخطوات التي سرتها وراء يحيى وأنصار السلام وبنت ريفيرا. انشغلت برسائل دكتوراه وماجستير ومقالات وأبحاث. انتابني الملل ذات مساء، فنقرت على محرك البحث «جوجل»، وبدأت في كتابة بعض أسماء الأماكن

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

والأعلام. أي شيطان هذا الذي أوحى لي في لحظة مجنونة، أن أكتب اسم رُوث ريفيرا في المستطيل الخاص بالبحث!

وجدت خبرًا عن وفاتها في عام ٢٠٠٧، ومقالة عنها في عام ٢٠١٥! فركت عيني، فروث ـ التي أعرفها ـ ماتت في ديسمبر ١٩٦٩. دققت وراجعت الخبر والمقال، فأدركت أنها روث الصغرى. «روث ماريا» حفيدة دييجو ريفيرا، وأول طفلة رزقت بها رُوث التي بحثنا عنها. جذب انتباهي المقال بشدة، كان رثاءً من كاتبة صديقة لها. توقفت أمام المفارقة، فروث الصغيرة لم تعش سوى اثنين وخمسين عامًا. عمرها قصير كأمها. كانت مثمنة فنية لأعمال جدها ريفيرا وزوجته فريدا كالو، وعاشت في كندا. بعثت رابط المقال إلى سامانثا، أحببت أن تشاركني الاكتشاف والمفارقة. بعد يومين اثنين جاءني ردها:

«سامي! اندهشت من إصرارك على البحث عن رُوث وعائلتها. قمت بدوري بالبحث عن جنيفر كليمنت كاتبة المقال. هل تعرف من هي يا سامي؟! هي روائية ورئيس نادي القلم الدولي، أصلها مكسيكي. لقد بحثت عن بريدها الإلكتروني وبعثت إليها رسالة أسألها عن روث الصغرى. هل تتذكر أنني قلت لك يومًا إنني لا أستبعد أن تكون ابنتها من يحيى؟! لقد ردت كليمنت عليَّ مؤكدة أنها وأخاها بيدرو من ذرية روث ومعماري اسمه ألفارادو. كانا صديقين لها في طفولتها. المفاجأة، أنها بعثت بعنوان البريد الإلكتروني لابن روث، بيدرو دييجو ألفارادو. هذا هو العنوان إذا أردت مراسلته. سامي، ما الذي ذكَّرك برُوث؟!».

سامانثا لا تتركني دون مفاجآتها، رغم عشرات آلاف الأميال التي تفصلنا. أشعلت البنت فضولي مرة ثانية، فوجدت نفسي أبحث بدأب في محرك البحث عن بيدرو. اتضح أنه فنان بارز، طالعت لوحاته

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

المميزة. تعجبت من تلك العائلة التي تتوارث العبقرية والإبداع. كتبت رسالة له عبر بساط الريح الإلكتروني. قلت له إنني أجري دراسة عن كاتب مصري بارز يدعى يحيى طه، وعن حياته الشخصية، وأدبه. سألته عن حقيقة زواج رُوث به، وعن مكوثها في مصر. رجوته أن يبعث لي بما يتوفر لديه من صور لوالدته. سألته مباشرة عن سبب رحيلها وافتراقها عن يحيى. لم تمر ثلاثة أيام، وإلا كان الرد موجودًا على قائمتي البريدية.

«عزيزي سامي

أرفق لك بعض الصور التي آمل أن تكون مفيدة لبحثك.

مع أطيب تحياتي

١ ـ بورتريه فوتوغرافي في عام ١٩٥٠ قامت به المصورة المكسيكية «لولا ألفارس برافو».

٢ ـ روث ريفيرا وشقيقتها لوب في فترة الطفولة مع أبيهما.

٣ ـ صورة روث ريفيرا عند التخرج في معهد البوليتكنيك.

٤ ـ صورة لها في مصر، لقد تزوجت مصريًا، ولكنها لم تستطع تحمل الثقافة المصرية. طلقت ورجعت إلى المكسيك.

٥ ـ صورتها وهي تقف أمام أبيها كي يرسمها في إحدى لوحاته.

٦ ـ بورتريه روث ريفيرا الشهير.

٧ ـ صورة زواجها من والدي بيدرو ألفارادو كاستانون في عام ١٩٥٤.

٨ ـ صورة فوتوغرافية.

٩ ـ صورة فوتوغرافية لها في عام ١٩٦٨، عندما عملت كمنسقة للأنشطة الثقافية في دورة الألعاب الأوليمبية التي أقيمت في المكسيك.

مع تحياتي

بيدرو دييجو-الفارادو»

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

الآن فقط امتلكت الدليل الواضح على زواج يحيى برُوث؛ صورة فوتوغرافية لها بجوار تمثال فرعوني عملاق، وإقرار من ولدها بحدوث هذا الزواج. باقي الصور التي بعثها بيدرو، كنت مع سامانثا قد حصلنا عليها من النِّت. لاحظت أن بيدرو قد عبث بصورة رُوث وهي ترقص مع زوجها الثالث في افتتاح الدورة الأوليمبية بالمكسيك قبل وفاتها بعام واحد! قام بقص وجه الزوج، هل هو على علاقة سيئة به؟

ما كتبه بيدرو عن ثقافة المجتمع المصري التي لم تستطع رُوث أن تتحملها، ألقى بضوء شحيح على أسباب انفصالها عن يحيى. قد تكون الظروف السياسية آنذاك هي السبب، وقد تكون أيضًا عدم تقبل المجتمع المصري للحرية التي اعتادت عليها في أوساط المتحلقين حول والدها الفنان العظيم. لم يكن يحيى بعيدًا عن تلك الثقافة، وهو الذي كان معروفًا بغيرته على زوجته وغزواته النسائية في الوقت نفسه. رسالة بيدرو كانت انتصارًا بعد سنوات من البحث والدراسة، وكانت سامانثا ـ رغم ابتعادها وتركها الدراسة والبحث ـ الوسيلة التي حققت الانتصار. لولاها ما عرفت عنوان بيدرو نجل رُوث، وما راسلته. بعثت إليها رسالة بيدرو، كان ذلك من حقها الأدبي.

جاء ردها:

«سامي، مبروك.

وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى.

أهنئك على الانتصار».

مفاجأة أخرى من جعبتها التي لا تنتهي. هذه البنت معجونة بماء العفاريت، لا يمكن أبدًا أن تكون أمريكية. تكتب، وكأنها أزهرية.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

تتحدث كأي بنت بلد من حواري السيدة. تتقصع بالملاءة اللف كامرأة من سوق الوايلية!

بعد شهور، وعندما قابلت الدكتور سعيد شرابي في أحد المؤتمرات، عرضت عليه ما توصلت إليه حول رواية «البيضاء».

نظر إليَّ بعصبية واضحة، وصاح في وجهي:

ـ ألم أقل لك من قبل إن العمل الفني يؤخذ كما هو؟

ـ لكن الظروف المحيطة به والدافعة له، هي جزء من عملية إنتاجه.

ـ اسمع، ما قُمت به ليس بحثًا ولا نقدًا، قد يصلح لرواية. اكتبها، وخلِّصنا من شططك. أطلق عليها «ظل البيضاء».

يمثل الدكتور سعيد مثلًا أعلى لكل الدارسين والباحثين في مجال الأدب عندنا. نشاطه الأكاديمي مرموق، ومقالاته في الشأن العام تتسابق عليها الصحف. يقترب منه منصب الوزارة بقوة، وكم من مرة نشرت الصحف أنباء عن ترشيحه لتولي حقيبة الثقافة. لكنه في اللحظة الأخيرة يفقد المنصب ليتولاه من هو أقل منه كفاءة وأكثر اقترابًا من رجال الأمن. لا أطمح لمنصب وزاري أو سياسي مثله، فقط أريد أن أحظى باعتراف بي كأستاذ وباحث قدير.

عندما أتأمل مسيرة يحيى وقصته مع روث، ينتابني حنين جارف إلى زمنهما. أتذكر سامانثا وشقاوتها، وأقنع بالذكرى. من المؤكد أنني سأظل عازبًا ووحيدًا بقية عمري.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

(٢٢)

«وكانت لسانتي طريقة في التدخين تعجبني. كنت أشعل لها الكبريت فتمدّ فمها الدقيق وفيه السيجارة وتجذب نفسًا ثم تلتفت إلى الناحية الأخرى وتنفثه بينما وجهها يجفل باحتقان وردي مفاجئ يزغلل العينين، ونظل نطفئ السجائر ونشعل غيرها إلى أن تستأذن سانتي، وتعلق حقيبتها في كتفها وتمضي».

(البيضاء)

أرى خيالات بيضاء باهتة، وهالات من ضوء شاحب. يلف الغرفة البيضاء ضباب خفيف. هل هي غشاوة أطبقت على عينيَّ، أم أنه كابوس يجثم على عقلي؟ أفتح عيني على آخرها، فأجد ملامح مبهمة، وخطوطًا رأسية مطموسة غير محددة. وجه بأنف وعينين يقترب مني. أستطيع ـ بعد لحظات ـ معرفة صاحبة الوجه، وإدراك المكان الذي أنا فيه. إنها غرفة المستشفى بأثاثها الأبيض، ونافذتها التي تسمح ستائرها البيضاء بنفاذ ضوء شحيح لنهار غائم. أنظر بامتنان إلى وجه الممرضة الشابة الذي اقترب مني، وهي تبدل وضع زجاجات المحاليل الطبية المتصلة بوريد ذراعي.

ـ سنيورة، صباح الخير. لقد استطعت أخيرًا النوم ولو لساعتين!

أومأت برأس واهن، وحاولت الابتسام. منذ أن دخلت المستشفى وأنا أدرك أنها المرة الأخيرة التي لن أخرج منها إلى منزلي وعائلتي.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

أشعر بدنو النهاية، تمكن المرض الخبيث مني، لا فائدة من التمسك بأهداب أمل مستحيل.

في ظهيرة اليوم سيحضر زوجي رفاييل، ولن يحضر أبنائي. لا يسمحون بزيارة الأطفال لذويهم المرضى في مستشفى الأورام. لكن ولدي بيدرو يتسلل ظهيرة كل يوم من المبنى العام للمستشفى، عبر ممر طويل، إلى مبنى الأورام. يأتي إليَّ ليجلس بجواري، ويمسح وجهه في ثوبي. منذ شهرين بلغت روث ماريا عامها الخامس عشر، لا أعرف ماسيكون عليها حالها عندما لا أكون هنا. بيدرو يصغرها بعامين، أما خوان ففي الثامنة من عمره. أشفق عليه، لكنه سيعيش في كنف والده رافاييل.

في الأيام الأخيرة يمرّ شريط حياتي أمامي مرارًا. يقولون إن المرء ـ قبيل موته ـ يرى نفسه، والأحداث البارزة التي مرَّ بها في حلم يقظة موجز. وجوه الثلاثة الذين تزوجت بهم تزورني باستمرار، نظراتهم مشفقة تتساءل عما حدث لي. حياة شاقة بين تصميم وتنفيذ مشاريع معمارية في طول المكسيك وعرضها، وبين محاضرات متابعة ومقالات وكتب أؤلفها. نشاط اجتماعي وثقافي عارم، اجتماعات ومقابلات ومؤتمرات. حتى السياسة التي انغمست فيها شقيقتي جوادلوب، نالني منها جانب. توليت رئاسة الاتحاد العالمي للمهندسات المعماريات. كنت ألهث. لم يكن يسيرًا عليَّ أن أحافظ على الثروة الفنية التي تركها والدي وزوجته فريدا كالو. حولت منزليهما إلى متحف فني تسلمته الحكومة. وأقمت متحفًا ضمَّ مقتنيات أبي من التحف اليدوية لعصر ما قبل الغزو الإسباني للمكسيك؛ خمسين ألف قطعة من المنحوتات والرسوم اليدوية لحضارة أهل البلاد الأصليين. اخترت شكل الهرم لهذا المتحف،

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

إنه مزيج من هرم «تشولولا» وهرم «سقارة» المدرج. استخدمت الحجارة البركانية السوداء والنوافذ الزرقاء لأصنع أثرًا تشكيليًّا خرافيًّا. أفنيت عمرًا مع رفاق كثيرين كي تسود «العمارة الوطنية» في المكسيك. لابد للفنون والعمارة والأدب والموسيقى أن تُعجن بألوان الوطن وروائحه وصخوره وصحرائه.

تطل وجوه الأطفال الفقراء من وراء نوافذ المدارس الريفية التي ساهمت في إنشائها، يلوحون لي بأكفهم الصغيرة. أصابعهم تلامس الزجاج، لتكتب حروفًا في الهواء. ملامح ينهكها الفقر، وابتسامات بريئة ترفضه وتتشبث بالأمل. كنت أتذكر أبي، وأنا أصمم أبنية تلك المدارس. أستعيد صوته:

ـ الجداريات هي فن الشعب ومتعة البسطاء. فلنجعل الشوارع والميادين متاحف مجانية.

أنظر إلى نافذة الغرفة التي أرقد فيها، ألم يكن من الأفضل آنذاك أن أوسع من مساحتها في التصميم حتى أتمكن من الرؤية جيدًا والإطلالة على الأشجار في الحديقة؟! لماذا لم يمرّ ذلك الخاطر بي آنذاك، وأنا أصمم المعهد الوطني للصحة الذي أرقد فيه، في قسم الأورام؟

ـ هل تريدين شيئًا يا بروفيسور ريفيرا قبل أن أذهب؟

ـ لو سمحتِ، ناوليني جريدة اليوم، ونظارتي الطبية من على الطاولة.

أضع النظارة على أنفي، وأمسك بالجريدة قبالة وجهي. تبدو الحروف مهتزة وملتوية. أقطب ما بين عينيَّ، فتصبح الكلمات مقروءة إلى حد ما. أنظر إلى ترويسة الصحيفة، ويفاجئني التاريخ الأربعاء ـ ١٥ ديسمبر ١٩٦٩. يبدو تاريخ اليوم غير غريب بالنسبة إليَّ. هل

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

هو تاريخ ميلاد بيدرو طفلي الثاني من زوجي ألفارادو؟! زواج لم يستمر سوى ثلاثة أعوام. قرار متعجل، كان طوق نجاة لي من ذكريات تجربة حب محبطة، وزواج فاشل مع يحيى. كنت مشتاقة إلى حياة عائلية، تملؤها بهجة الأطفال. لم يستغرق الأمر إلا أسابيع قليلة بعد رجوعي من مصر، اتفقت مع ألفارادو على الزواج. معماري، مثلي، ويكبرني بعدة سنوات. جاءت طفلتي الأولى "روث ماريا" في أكتوبر، كم هي تشبهني كما كان يقول بابا. لحقها بيدرو بعد عام ونصف العام، في فبراير! كيف فاتني أن تاريخ اليوم لا يمت بصلة إلى ميلاد بيدرو؟ ١٥ ديسمبر، يوم يذكرني بتاريخ ما، ليت ذاكرتي تنجو من المرض وتنبئني. نعم، تذكرت الآن، فيينا ويحيى، لقد كان اليوم الذي التقيت فيه بيحيى. دائما، ما كنت أتذكر هذا اليوم كلما صادفته في الروزنامة. أذهب إلى تاريخ بعيد، من الصعب أن أقرر، هل يمثل سعادة بالنسبة إليَّ، أم تعاسة؟!

لاشك أنه ـ في ذاته ـ كان يومًا سعيدًا في حياتي. لا يهم فشل زواجي منه، ولن يؤثر في بهاء ذاك اليوم ما حدث بيننا فيما بعد. كنت شابة صغيرة تملأ صدري أنفاس الحياة والحب. أرى وجهه الوسيم الآن، وهو يطاردني بابتسامته وحججه الواهية، كيف كان يلاحقني بصندوق تصويره في إلحاح مضحك. يحيى قصة حب قديمة وزواج مجهول، حرصت على ألا يصل إليهما فضول الصحفيين. حتى بابا، لم يشر إليها ـ من قريب أو من بعيد ـ في أحاديثه ومقابلاته ومذكراته. كان دييجو يلوم نفسه، كلما تذكر أنه لم يعارضني ـ بقدر كافٍ ـ في سفري مع يحيى إلى القاهرة. شجعني على الزواج بألفارادو سريعًا قائلًا:

ـ وداوني بالتي كانت هي الداء. لن ينقذك من محنتك سوى زواج آخر وأطفال.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

أنظر الآن إلى حياتي وزيجاتي الثلاث، وأتساءل: هل كنت سعيدة حقًّا؟

حياتي مع ألفارادو لم تكن سعيدة، افترقنا بعد سنوات قلائل. زواجي بكورنييل سرعان ما تحول إلى كابوس، رغم بدايته المبشرة. كان قاسيًا مع طفليَّ من ألفارادو. كنت أهرب من البيت، وأغرق نفسي في العمل والنشاط العام. عشر سنوات من الكد والمسئولية. كان نشاطًا فوق العادة، بقدر ما كان فرارًا من خلافات زوجية ومعاناة لأطفالي الثلاثة. فقط الآن، أدرك أنني لم أكن أنثى عادية ترضى بوصاية الرجال، وقوانين مجتمع ذكوري. لم أدرك أن فشل تجربة زواجي المصرية سيلازمني حتى آخر العمر. لم يكن يحيى المتسبب في فشلها، كنت أنا أيضًا مسئولة بشخصيتي المتمردة والعاطفية. ورثت عن أبي حبَّ الفن والجموح وعشق الحياة. هل كان عشقي للرجال جبارًا عنيفًا فلم يتحملوه، أم أنه أعماني فأسأت الاختيار؟

رغم ضعفي وافتقاد عينيَّ لحدة النظر، أرى الآن وجه يحيى بملامحه واضحًا أمامي. ابتسامته، ونظرة الأسى في عينيه. أكاد أسمع صوته يسألني:

ـ ما الذي حدث لك يا رُوث؟ أين ذهبت نضارتك وحيويتك اللتان أزعجتاني، وأخافتاني؟

أغمض عينيَّ، وأمد ذراعيَّ على آخرهما، أتحسس بأطراف أناملي وجهه، وأجيبه:

ـ المرض أنهكني يا يحيى، هاجمني فوجد حصوني مستسلمة، وفوقها رايات بيض مشرعة.

أتذكر نظراته غير المصدقة لمقاومة أبي الأسطورية للسرطان، وعشقه للحياة الذي جعله يرفض بتر عضوه. ورثت من أبي كل

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

شيء؛ الفن والعاطفة المشبوبة وبعض الملامح. لكنني لم أرث منه التشبث بالحياة، ومقاومة المرض الخبيث.

لم يكن عبثًا أن كل من تزوجتهم فنانون. أطفالي روث وبيدرو وخوان رضعوا الفن مع حليبي، وسرت الموهبة في دمائهم من الجد والجدة. كانوا يلعبون ويكبرون في أرجاء متحف دييجو وفريدا، يهرولون في الممر الذي يربط بيتًا بلون الكوبالت الأزرق وبيتًا أحمر قانيًا بلون الورود. كان همي الاحتفاظ بمتحف ريفيرا وكاللو في أحسن حال، واتسعت مسئولياتي لتتسع لمتاحف عديدة ومستشفيات ومدارس وأبنية ومشاريع فنية عديدة. هل أنا نادمة على كل ما بذلته من مجهود جبار في فترة لم تتعدَّ عشر سنوات؟ لا، لست نادمة، ولو بدأت من جديد لاخترت نفس الطريق.

نوبات الألم عنيفة صادمة، تجعلني أصرخ غير عابئة بمن حولي. أشعر بقدومها، بينما يبدأ السعال يهتك صدري.

الآن أتذكر يحيى وهو يقول:

ـ لم أرَ إنسانًا مثلك يقبض بشفتيه بكل تلك القوة على السجائر!

الآن أدرك أنه لم يكن ممكنًا أن نستمر معًا. كانت أعصابه عارية، وكان في حالة توتر دائم. أنا الأخرى كنت متوترة بدوري، أردت كل شيء؛ الحياة والحب والفن والأطفال. فيما بعد، أدركت أن أحلام الشباب مثالية، وأنه من الصعب إدراك كل ما نريد. كنت أبحث عنه في المؤتمرات الدولية العديدة التي حضرتها خارج المكسيك، لم ألمحه مرة واحدة. لعله قد ابتعد عن أوساط حركة اليسار العالمي، أو لعلي انكفأت في مسئوليات رئيس الاتحاد العالمي للمهندسات المعماريات، فلم أذهب إلى مؤتمرات أدبية. سمعت عنه مرة واحدة، عندما ذكر سكيروس صديق والدي أنه رآه قبل حرب ٥٦ في معرض

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

لأفلاطون في زيارة تضامنية إلى مصر. قال سكيروس دون أن ينظر إليَّ:

- رأيت زوجك المصري مصادفة في القاهرة!

لم يضف أي كلمة أخرى، وأنا أيضًا لم أشأ أن أستزيده. كان سابو-رانا جالسًا، فأشاح بوجهه ونظر بعيدًا.

هاهو الألم قد بدأ من جديد. يزداد فجأة فيعتصرني اعتصارًا. أصرخ، تحضر الممرضة مسرعة، وتحقنني بمخدر. تربت على جبهتي، وتأخذ من يديَّ الصحيفة. تقول:

- تستطيعين أن تأخذي حبة واحدة من هذا الشريط، إذا لم يذهب الألم بعد الحقنة.

أشعر بعد لحظات أن القبضة التي اعتصرتني قد خفَّت وتراخت. تمر أمام عينيَّ وجوه من أحببتهم من الرجال، يتلكأ وجه يحيى ويأبى الرحيل. أرى الآن وجهه في لحظاتي الأخيرة في القاهرة. نجلس أنا وهو وأمي في صالة شاي بالطابق الأول لعمارة في ميدان الأوبرا بالقاهرة. النوافذ الزجاجية الواسعة تحيط بنا من كل مكان. أسفل هذه الصالة يقع محل حلويات شرقية، ويربطه بها سلم خشبي. الصالة أيضًا تعلو المكتب الرئيسي لشركة مصر للطيران، والذي تقف أمامه حافلات تنقل الركاب إلى مطار القاهرة «ألماظة». اسم غريب طالما تندرت عليه مع يحيى.

كنت أسأله:

- ما علاقة الطائرات بالألماظ؟

- هم يهربون مجوهرات وألماظ العائلة المالكة بالطائرات يا رُوث!

يومها، لم تكن هناك أي فكاهة أو ميل للدعابة. أصرَّ يحيى -

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

كجنتلمان ـ أن يصطحبنا إلى المطار مودعًا. باءت محاولة ماما لإقناعه بالسفر معنا إلى المكسيك بالفشل، وللحق كانت علاقتنا قد ساءت بدرجة كبيرة، فلم يكن بمقدور سفره معي أن ينقذ زواجنا. ملامح وجهه حزينة جامدة، يحاول أن يكون لطيفًا فيلقي بكلمات مجاملة. أصرَّ أن نتناول الشاي قبل الرحيل، فقد كان لدينا وقت كافٍ قبل موعد الطائرة. نظرت إلى الخارج، فوجدت إصبع تمثال الفارس الممتطي حصانه الممتلئ يشير إلى مكان ما بجوارنا. تبادر إلى ذهني ـ في لحظة ـ أنه قد يشير إلى مستقبل مجهول ينتظر كلينا. وفي لحظة أخرى، شعرت أنه يأمرني أن أبقى في القاهرة لأستأنف حياتي مع يحيى. التقت نظراتنا، فوجدت مسحة حزن في عينيه. وجهت بصري بعيدًا عنه، إلى النافذة. مبنى الأوبرا الخشبي القديم بطوابقه الثلاثة يودعني، كنت ويحيى نختلف إلى بعض حفلاته. كنت أرتاح كثيرًا إلى قاعته وشرفات مسرحه.

كم مرة قلت له:

ـ التقينا في فيينا في «الكونسيرت هاوس»، فلنزر «الأوبرا» كثيرًا حتى نستمد القوة للتغلب على الصعاب التي تعترض حبنا.

أنظر إلى الشرفة الواسعة في الطابق الثاني لمبنى الأوبرا، والأبواب الخمسة العملاقة التي تطل عليها. أتأمل الأعمدة الزخرفية المستطيلة التي تحيط بها.

التقت عينانا مرة أخرى، وأنا أرفع فنجان الشاي إلى شفتي. اضطربت، فأرجعت فنجان الشاي إلى مكانه، وأخذت سيجارة من علبة سجائري. مدَّ يده ليشعل سيجارتي بولاعته. فالتقت نظراتنا، وقتها لم أدرك كنه نظرته إليَّ. هل كانت عتابًا، أم إشفاقًا، أم غضبًا؟ عيناه بئران بلا قرار، لكن نظرته إليَّ لم تكن خواءً ولا

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

فراغًا. ارتعشت أصابعي، وأنا أضم شفتيَّ بقوة على نهاية اللفافة. أنقذني صوت أمي:

ـ تدخنين بشراهة، عندما كنت في مثل عمرك لم أكن أدخن كثيرًا.

ـ كنت تدخنين أكثر مني، هل تنسين اللوحة التي رسمها بابا لك وأنت تمسكين بالسيجارة وتنفثين الدخان في الهواء؟

تدخل يحيى ملطفًا:

ـ سأفتقد تدخيننا المشترك، وسأجد علب سجائري غير منقوصة في المساء.

الضحكة التي كان من المفترض أن تجاوبه، تحولت على شفتي إلى ابتسامة مجهضة. ضحكت ماما في مجاملة له، بينما وجم وجهه في حيرة. دوى بوق الحافلة ليعلن قرب رحيلها من قلب المدينة إلى المطار. نظرت إلى الساعة التي تعلو واجهة الأوبرا، فوجدت عقاربها تشير إلى الرابعة ظهرًا. نزلنا مسرعين لنلحق بالباص.

ما الذي جعلني أتصرف معه كما تصرفت آنذاك؟ صعدت مع ماما إلى متن الباص، همَّ يحيى بالصعود. وجدتني أدفع يدي نحوه مصافحة، وأوقفه.

ـ أرجوك، لا داعي أن تذهب معنا.

ـ لماذا؟

ـ هكذا أحسن!

ـ لماذا ياروث؟

لم أجبه. كانت يدي تدفعه برفق في صدره، حتى لا يذهب معنا. حسم السائق الموقف، عندما طلبت منه تذكرتين فقط. وقف يحيى متضايقًا على الرصيف. ظل منتظرًا حتى مغادرة الحافلة. هيئ إليَّ أني رأيته يلوح بيده مودعًا، بينما كان الباص يتحرك. ظلت نظراتي

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

تتبعه، التفتُّ نحو النافذة الخلفية، والباص يلف حول دائرة الميدان. كانت قامته تبتعد وتتضاءل. ربتت ماما على كتفي، وهمست:

ـ خيرًا فعلتِ ياروث.

لم أكن متأكدة من تصرفي.. هل كان خيرًا، أم شرًّا. لكن كان ذلك أهون بكثير عليَّ من وداع اللحظة الأخيرة في المطار. خشيت أن أضعف في تلك اللحظة، ويصيبني الانهيار أمامه. لم أرد أن يبقى مشهده في وداعي بالمطار في ذاكرتي، لكن لحظة الوداع على سلم الباص بقيت لأتذكرها اليوم.

أيقظتني خبطات واهنة على باب الغرفة من غفوة الذكريات. دخلت شقيقتي جوادلوب الغرفة، وقبلتني في جبيني. أمسكت بيدها، فأدركت إلى أي مدى كانت يدي باردة. همست شقيقتي:

ـ رفاييل جاء لرؤيتك قبلي، لكنك كنت نائمة. لم تستيقظي، ففضل أن يغادر دون أن يزعجك.

أدركت أن حقنة العقار المخدر قد أفقدتني الوعي. طلبت من أختي أن تأخذ مفتاح يحيى الذهبي المحفوظ في علبة قطيفة خضراء في الدرج الأسفل لمكتبي، وأن تضعه في مظروف، وتبعث به إلى القاهرة.

سألتْ باستغراب:

ـ لماذا؟

ـ أرسليه إليه بعد رحيلي.

ـ لِمَ كل هذا اليأس يا رُوث؟

ـ اقتربت النهاية، لا داعي للخداع.

سألتني عن العنوان. أدركت أنني لا أعرف عنوانه. طلبنا ورقة من الممرضة، وكتبت عليها بحروف مرتعشة Yehia Mostafa Taha.

نظرت إليَّ جوادلوب مستغربة، فقلت:

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

ـ هذا يكفي. سيجدونه، من المؤكد أنه أصبح مشهورًا جدًّا.

اقتراب النهاية جعلني في سلام مع نفسي ومع الجميع، بمن فيهم يحيى. أردت أن أقول له: وداعًا، وأنا التي حرمته من وداع اللحظة الأخيرة في المطار. ربما أردت أن أبلغه، بأنني أحببته وأنني ظللت محتفظة بمفتاح شقتنا الذهبي حتى النهاية. ربما!

ذهبت شقيقتي، وتركتني وحيدة في المساء مع الألم. ألم فظيع ينهش صدري وعظامي وكل جسدي. لم يعد بمقدوري التحمل. صرخت، ناديت على الممرضة. لا أحد هناك. تلمست أناملي طريقها إلى الشريط المعدني للحبوب المسكنة فوق الكومودينو الملاصق للسرير. تناولت كوب الماء الموضوع بجانبي. ابتلعت قرصًا واحدًا، لكن الألم ازداد وطأة. فضضت الشريط المعدني، وتناولت قرصًا آخر. لا أعرف كم قرصًا قد ابتلعت. ربما اثنيْن أو ثلاثة أو أربعة أو عشرة. لا أعرف كم. أرى نفسي أصعد هرمًا ضخمًا كهرم خوفو وحدي. أنظر إلى السماء. الشمس ساطعة، كشمس القاهرة. كلما صعدت درجة من درجاته، أصبح ضوؤها أكثر وضوحًا وسطوعًا. تتحول إلى لون أبيض شاهق، يكسوه ضباب كثيف.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

(٢٣)

«ولو أن أحدًا قد لوح لي أن سانتي ممكن أن تتحول ذات يوم إلى ذكرى، مجرد ذكرى، لخنقته احتجاجًا وغضبًا.

لكن أحدًا لم يقلها، حتى أنا لم أقلها لنفسي. إنما بلا قول أو ضجيج تكفل الزمن بكل شيء. وفي صمت وبلا مؤثرات.

الزمن قاتل.

نهاية الأشياء».

(البيضاء)

تأتيني أصوات المحتفلين المبتهجة بليلة رأس السنة، تُذهب هدوء الشارع المعتاد في منتصف الليل. أصوات ارتطام زجاجات الخمور الفارغة بالأسفلت، تصنع دويًّا أشبه بانفجارات مكتومة متتالية. فرقعات الألعاب النارية تضفي على هذا الصخب مسحةً من فرح مصطنع. أرقد على سريري بالغرفة، ثم أقوم لأنظر إلى الخارج بحذر من خلال فتحات الشيش الخشبي للنافذة. الشباك قريب من أرض الشارع، لا أرى أحدًا يمرّ أمامي، لكن الأصوات تجعلني أحسّ باكتظاظ الشارع بالناس! أُحكِم إغلاق زجاج النافذة اتقاءً للضجة، والبرد، وموجات الابتهاج التي تغتصب مشاعري.

هذا أول رأس سنة أقضيه وحدي، بلا صُحبة، ولا رفيق.

ليلة رأس السنة الماضية قضيتها وراء قضبان السجن، لكني لم أكن وحيدًا. أنا والرفاق احتفلنا معًا في العنبر. أضأنا شموعًا

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

خبأناها من قبل، وبدأ كل واحد فينا يقدم فقرته في الاحتفال. باحة العنبر تفتح عليها أبواب الزنازين، والأبواب موصدة. كنا قد علقنا بطانيات الصوف الخشنة في قضبان شبابيك أبواب الزنازين. من يأتِ عليه الدور، يمسكْ بطرفي البطانية، ويجلس على منتصفها. يسحب الطرفين المعلقين في قضبان النافذة المرتفعة، ويرفع جسده بقوة ذراعيه إلى أعلى. وكأن رافعة حملته إلى سقف الزنزانة، لينظر من النافذة، ويصل صوته إلى الأدوار الثلاثة المحيطة بالباحة. على نافذة كل زنزانة سجين يطير صوته في الفضاء، لينطق، ويغني، وينادي، ويلقي شعرًا ونكاتٍ، ويهنئ بقدوم عام جديد رغم أنف سجانيه!

أتذكر ليلتها، كيف سحبت طرفي البطانية وارتفعت إلى مستوى الشباك. كنت قد أعددت قصة قصيرة لإلقائها. لم تكن هناك أوراق أو أقلام لكتابتها، فكنت أؤلف جملة ثم أقوم بحفظها، ثم أضيف الجملة التي تليها وأقوم بحفظ الجملتين معًا. تكتمل الفقرة، فأعيدها عدة مرات لأستعيدها عن ظهر قلب. تتجاور الجُمل، وتتعاقب الفقرات حتى اكتملت قصتي. ليلتها استمر قصي ربع ساعة. كلما تعبت عضلات ذراعيَّ، قام زملائي الثلاثة في الزنزانة برفعي ثانيةً إلى نافذة الباب بأذرعهم. كنت أسمع في أثناء انقطاع حديثي بسبب ذلك الجهد البدني أصواتًا من الزنازين الأخرى:

ـ أكمل يا يحيى!

ـ لماذا توقفت؟!

كلما تحدثت، ران الصمت على العنبر بأدواره الثلاثة. بعد آخر كلمة، وبعد برهة صمت محسوبة انفجر التصفيق، فأحدث صدًى عاليًا في فضاء العنبر. تعالت أصوات الزنازين الأخرى:

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

ـ أعِد يا يحيى!

ـ ما هذا الجمال؟!

ـ الله.. الله!

فوجئنا باشتعال المصابيح الكهربية في العنبر والزنازين، وجاء صوت الشاويش فرج بعد أن سمعنا صوت الباب الحديدي للعنبر مجلجلًا:

ـ اخرسوا يا أولاد الكلب، لا ترسلونا إلى جهنم الحمراء. كان اتفاقنا أن تحتفلوا بهدوء. لا تنسوا أن ضباط المباحث من الممكن أن يحضروا في الحال.

ارتفعت الأصوات تُطيِّب خاطره في رجاء وتوسل. انصرف بعد أن أطفأ الأنوار، وأحكم إغلاق باب العنبر.

أرقد الآن على سريري في البيت، أرتدي بيجامتي وأحاول أن أغفو. رغم حريتي في أن أخرج إذا أردت، وأن أخلع البيجامة وأرتدي حلتي، فإنني حزين أشعر بقيود تشل أطرافي الأربعة. زجاجة البراندي التي أحضرتها مساءً مازالت في كيس الورق على الطاولة في الصالة. اشتريت معها جبنًا روميًّا وزيتونًا وبسطرمة وخبزًا. كل ما اشتريته، مازال ملفوفًا في لفته. هل أرتدي ملابسي سريعًا، وأخرج لأحتفل مع السكارى في أي بار في وسط القاهرة، أم أجلس خلف مكتبي، أحتسي كأسي وحيدًا، وأجتر ذكرياتي وحاضري؟

يغشاني وجه رُوث، ويغزو غرفتي الكئيبة احتفالي معها بليلة رأس السنة منذ ثلاثة أعوام.

فيينا ـ رغم جروحها ـ صاخبة مبتهجة، زينات مضاءة، وأشجار عيد الميلاد منتصبة في الشوارع والميادين. ندف الثلج تغطى رءوس الأشجار والشوارع وملابس الناس. يتجاوز الصخب وصرخات

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

الاحتفال جدران البيوت والملاهي والمقاهي والحانات. في مطعم ماريا تيريزا، ووراء منضدة عامرة بالشراب وأنواع اللحوم المطهوة بطريقة أهل فيينا الخاصة، كنت مع رُوث وأبيها وأصدقائه نحتفل بالزواج وقدوم العام الجديد.

يعلو صوت دييجو، وهو يرفع نخبنا:

- في صحة روث وفرعونها المصري، سنة جديدة وحياة جديدة لكما!

أراها سعيدة، كما لم أرَها قط. تضحك وتقرصني في ذراعي، تجذبني إلى حلبة الرقص ونرقص ثملين. أصدقاء أبيها على المائدة: أراجون، ونيرودا، وإيليا أهرنبورج، وآخرون لا أعرفهم. كان حاضرًا من بلدي يوسف حلمي والخميسي، الاثنان يتبادلان القفشات والنكات. يستخف الحبور بيوسف حلمي فيغني بصوت من طبقة التينور «الحلوة دي قامت تعجن في الفجرية». يبدي الآخرون استغرابهم من اللحن والأغنية الشجية. يسألون عنها، فيشرح حلمي معناها. أسمع اسم سيد درويش، رغم بدء صدح موسيقى الرقص القادمة من الحلبة. ينطق حلمي الاسم بفخر، ويشمخ بقفصه الصدري، ويصفق بكفيه كأنه سيبدأ في قيادة أوركسترا غير مرئية.

يضحك الخميسي، ويقول:

- كفى يا يوسف بك! الضيوف لن يتحملوا كل هذه الجرعة الزائدة من الانبساط المصري!

تلمع أعين ريفيرا ونيرودا، ويقول أراجون مبتسمًا وهو يضع يده برفق على كتف إلزا رفيقته:

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ جميلٌ أن نسمع غناءً بلغتكم العربية. الشعر خُلِق عربيًّا.

ثم ينظر في عينيْ إلزا في وَلَهٍ واضح، ويردف:

ـ ذات يوم سأكتب لكِ ـ يا حبيبتي ـ قصائد لعينيك من وحي شعرائهم القدامى!

أتذكر تلك الليلة غير مصدِّق أنني عشتها. ليلة من ألف ليلة، أتسامر فيها مع من تصبو إليهم أعين الناس وآذانهم. ساعات أجلس فيها مع رُوث التي فتحت أمامي باب عالم لم أكن يوما أحلم بولوجه! عالم لمست نجومه بأناملي، وأمسكت به بكلتا يديَّ.

أربع ليالٍ استودعتُ واستقبلت فيها ثلاث سنوات متتالية! ليلة في فيينا مع أبرز أدباء وفناني العالم رأسًا برأس، وليلة مع الأصدقاء بعد مغادرة روث، وليلة على بُرش الليف في السجن، وليلتي هذه التي أجلس فيها وحيدًا، لا أجد نديمًا ولا رفيقًا!

أنزع الغطاء الثقيل من فوقي، وأنهض من سريري. أضع قدميَّ في الشبشب، وأرتدي الرُّوب، أحكم رباطه وأذهب إلى الصالة. لا أوقد النور، أجلس على الفوتيه الوحيد، وأدخن سيجارتي. الضوء القادم من الغرفة يضيء جزءًا من الصالة بشحوب، بينما يبقى الجزء الذي أجلس فيه معتمًا. دخان السيجارة المتصاعد يصنع خيالات زرقاء وأشكالًا سيريالية عجيبة. أخاله على هيئة قضبانٍ. تتشبث يدايَ بتلك القضبان، وأنظر من خلالها. أرى نفسي في باحة السجن في أثناء فترة التريض في الصباح. يتحلق حوليَّ بعض الرفاق، نتناقش في قصة قرءوها لي من قبل. أتبين من بينهم عطوة. يبدو ممتعضًا مما أقوله.

بعد أن أنتهيَ، يرفع وجهه إلى السماء ويتحدث بأنفة:

ـ يا زميل، قصتك غير إيجابية، تنتهي نهاية مائعة. هي مجرد نظرة

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

طويلة من طفلة مقهورة إلى أولاد الأثرياء! أين الصراع الطبقي؟ أين التمرد على الأوضاع الظالمة؟

يفور الدم في عروقي، فأقترب منه صائحًا:

ـ ما علاقتك بالأدب، وأنت مجرد مترجم متواضع؟ لم تكتب قصة حتى الآن، وتلقي عليَّ دروسًا في الكتابة!

ـ أنت تخرب عقول الزملاء، بورجوازي صغير معادٍ للواقعية الاشتراكية!

لم أجد نفسي، إلا وقبضة يدي تتجه بقوة إلى صدغه. يتحرك بعض الواقفين كي يحجزوا بيننا، بينما يصرخ عطوة:

ـ سأحيلك إلى تحقيق حزبي، أيها الأحمق.

فأرد عليه بثقة امتلأ بها كل كياني:

ـ لا تهُمني، أنت وحزبك.

ولعل تلك المشاجرة، كانت إحدى علامات اقتراب الافتراق بيني وبينهم.

أطفئ سيجارتي، وأقترب من المائدة، أفتح زجاجة البراندي وأصُبُّ كأسًا. لا أمس ما أحضرته من مزَّة. أفتح غطاء البيك أب، وأضع أُسطوانة أوبرا «كارمن». أجلس وراء مكتبي القريب من الردهة وأشعل مصباح المكتب. تصدح الموسيقى، فأتذكر رُوث وعشقها لها. كنت أرى صفحة وجهها وهي تتغير وتتلون حسب كل نغمة فيها. تدور الأسطوانة، وتطغى ذكرياتي على صوتها، فلا أعود أسمع نغماتها. يجيء صوت رُوث متوعدًا:

ـ وصلنا إلى نقطة اللاعودة، ليس أمامنا سوى الانفصال.

أسمعها، فلا أعترض، ولا أمانع. يبدو الطلاق حلًّا معقولًا لمأزق مزدوج أعيشه. أصبحت رُوث بعاطفتها المتأججة، ومطالبها المتتالية

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

بالرحيل معًا والاستقرار في المكسيك تسببّان لي صداعًا دائمًا. تقلبات البلد، وموجات الاعتقال المتتالية للسياسيين ـ من ناحية أخرى ـ تضغط على أعصابنا، نحن الاثنين. أصبحت أمقُتُ جملتها الأثيرة التي تستخدمها في كل شجار بيننا:

ـ يا هيا، زواج يعنى أسرة وأطفالًا واستقرارًا، وأنت لا تريد كل ذلك!

احتدم الخلاف بيننا، فاستنجدت بأمها التي جاءت إلى القاهرة. الأم روائية ومصممة أزياء، عملت كموديل للرسامين والمصورين الفوتوغرافيين في شبابها. مسحة جمال لم تغادرها رغم أنها على أعتاب الستين. نجلس معًا معها في كازينو على شاطئ النيل، فتنظر السيدة لوب بنظرة هائمة إلى صفحة النهر، وتقول بلا مناسبة:

ـ لو كان جورج حيًّا ومعنا الآن، لكتب أروع قصائده!

تغمز لي روث بعينها اليسرى، وتوجه حديثها إلى الأم:

ـ هل كنت حقًّا تتمنين وجوده معنا؟!

تبدو أمارات غضب مكتوم على وجه الأم، وألحظ تشنج أصابعها الممسكة بكوب الليمون المثلج. تنظر إلى رُوث، وكأنها تنهرها. تتحدث باللغة الإسبانية بعنف واضح معها. أخمن ما الذي أغضبها، حكت لي رُوث من قبل عن التصرفات الغريبة لزوج أمها جورج كويستا. زواج، انتهى بموته بعد أربعة أعوام من اقترانهما. كان كويستا كيميائيًّا وشاعرًا فذًا. تهويماته حول معادلات كيميائية تجلب السعادة للإنسان وتحول الماء إلى نبيذ، وقصائده السريالية الطليعية، ونوبات جنونه جعلت منه شخصًا صعب المعاشرة. في نوبة من نوبات هذيانه، قام بخصي نفسه وبتر عضوه التناسلي. نقلوه إلى المستشفى وأنقذوه من الموت بأعجوبة. لكنه غافلهم، وقام بشنق نفسه بحزام

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

بنطاله الجلدي. شخصية أمها القوية الحازمة لم تجعلها تتخطى المحنة وحسب، بلِ قامت بانتقام مروع من زوجها الراحل الذي جلب عليها العار. ألَّفت رواية خصيصًا عنه، لم تكن رواية بل بحثًا عن ثأر. اعتقدت أن تصرفه قد أهانها إهانة بالغة!

لم تفارق سحابة الغضب وجه والدتها، فتلفتت إليَّ رافعة عقيرتها:

ـ رُوث على حافة انهيار عصبي، وأنت لا تريد أن تنقذ حياتكما الأُسرية مما وصلت إليه. أنت طبيب وكاتب وشاب ذكي، تستطيع أن تعيش في المكسيك حياةً مريحة مستقرة. نفوذ والدها يضمن لكما أكثر من ذلك بكثير.

أحاول أن أشرح لها أن العيش خارج مصر مستحيل، فأنا لم ولن أتعلم الإسبانية، وحياتي هنا في مصر لا في مكان آخر.

تتبرم «رُوث»، وتزُم شفتيها قائلة:

ـ ماما، لا فائدة من النقاش معه، فلأرحل معك.

فرُغ كأسي، فأحضرت قنينة البراندي وملأتها من جديد. تسللت أصابعي إلى علبة سجائري، وأشعلت سيجارة منها. أي ليلة رأس سنة هذه! وِحدة خانقة مخيفة، وازدحام ذكرياتٍ يؤرقني.

حياة السجن، التي عشتها بعد رحيلها، تجعلني أوقن بأن انفصالنا كان حتميًا. كان مستحيلًا عليها، وهي بمفردها وبلا لغة، أن تتابع تنقلي من سجن إلى سجن. سجن القلعة، ثم أوردي أبو زعبل، ثم سجن مصر العمومي. كان رحيلها وانفصالنا إذن إنقاذًا لي ـ أيضًا ـ من الانشغال بمصيرها.

عام السجن لم يكن هينًا. صمدتُ فيه، ولم أنكسِر. شاهدت موجة جنون التعذيب البشع تجتاح السجون. كانت حالات التعذيب فردية

أيام الملك، ومرتبطة بجرائم الاغتيال والإرهاب. حظيَ السياسيون بمعاملة متميزة في سجن الأجانب. إذا غضبوا عليهم، نفوهم إلى معتقل الطُّور أو الهايكستب. قد يعصف بهم السل، فينقلون إلى مصحة حلوان أو ألماظة. أين نحن الآن من سجن الأجانب في ميدان باب الحديد؟ إقامة تشبه حياة الفنادق، وأطعمة يحضرها متعهد أو تجيء من منازل المعتقلين، وزنازين بأسرة ومكاتب. تطل نوافذها على ناصية شارع عماد الدين مع شارع الملكة نازلي!

بعد دخولي السجن بأقل من شهر، حدثت محاولة اغتيال عبد الناصر، وبدأت معها هستيريا الضرب والسحل والجلد بالسياط. عام، تنقلت فيه من سجن القلعة إلى أوردي أبو زعبل ثم إلى سجن مصر العمومي. شهور، رأيت فيها بعينيَّ الانتقال من مملكة الباشوات إلى جمهورية الخوف. كم من مرة قمت فيها أنا وزميلي في الزنزانة الدكتور حمزة، بمداواة ظهور المعتقلين وتسلخات جلودهم! سجن مصر، عنابره أربعة طوابق. في عنبرنا، يُسجن معتقلون من غزة في الدور الأول، ونحتل نحن اليساريين المصريين الدور الثاني، أما الإخوان المسلمون فسكنوا الدوريْن الثالث والرابع حتى يكونوا أقرب إلى السماء. قائد السجن المخنث الرهيب يشرف بنفسه على تشريفات المساجين القادمين من سجون أخرى. يصطف الجنود على جانبيَّ البوابة، وينهالون بالشوم على رءوس القادمين الذين جردوا من ملابسهم. العروسة الخشبية في باحة الدور الأرضي من العنبر، يحتضنها المعتقل مرغمًا ويدخل ذراعيه ورأسه في فتحاتها. يبدأ الجلد بسياط من أسلاك تلفونات مجدولة. سياط تحفر في الظهر، وتأكل اللحم، وكأنها سواطير جزار تنهال على ذبيحة. لا أنسى الفلسطيني يوسف النجار الذي انكسرت أصابع يديه الاثنتين

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

من الضرب عليهما، فأصبح غير قادر على الإمساك بأي شيء. فيما بعد، قدم الفلسطينيون لي علبة سجائر كاملة احتفالًا بعيد ميلادي. يومها أشعلت سيجارة من وراء سيجارة، ودخنت كما لو أنني شهريار يفض بكارة عذراواته في ليلة واحدة.

يقول لي حمزة:

- رويدك يا يحيى، ضع الغد في حسابك. نحن لا نعرف ظروفنا القادمة.

وأرد عليه ضاحكًا:

- ومن يدريك أن هناك غدًا قادمًا؟ اصرف ما في الجيب، يأتِك ما في الغيب!

توقظني لسعة حارقة مابين أصابعي؛ لأدرك أن فلتر سيجارتي قد احترق وأنا غارق في ذكريات السجن. أضع من زجاجة البراندي قطرات على الحرق، فيشتعل ألمًا. أحتاج لمثل هذا الألم في هذه الليلة؛ كي أشعر أنني مازلت حيًّا. وُلِدت من جديد، عندما خرجت من السجن. وُلِدت بحكمة شيخ، ورغبة متأججة لشاب.

عندما أخذوني، دون سابق إنذار، مع ثلاثة رفاق، ووضعوا خاتم السجن الأزرق على ظهور أكفنا، كنت أظن أنهم سينقلوننا إلى سجن آخر. سلمت بذلة السجن، وتسلمت ملابسي التي لم أرها منذ أن أصبحت معتقلًا. جلسنا في سيارة الترحيلات بملابسنا المكرمشة. حذائي الذي أنتعله بدون رباط. كان رفيقان منا يسيران حافيين طوال الشهور الماضية، وأنا وزميل آخر احتفظنا بحذاءيْنا بعد احتجاجنا لأننا معتقلان ولسنا محبوسين، فأمر الضابط المناوب بنزع الرُّباط منهما. شقت السيارة طريقها في شوارع

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

وسط القاهرة، كنت أتطلع بين فينة وأخرى عبر الكوة الصغيرة في أعلاها، فأكتشف الطوابق العُليا من عمارات وسط البلد. توقفت السيارة، فنزلنا منها أمام مبنى من طابقين، يحرسه جنود من الجيش على رءوسهم بيريهات حمراء. نظرت باستغراب إلى ضابط السجن الذي يرافقنا. في تلك اللحظة انتبهت إلى أنهم هذه المرة لم يكبلوا أيدينا بالقيود الحديدية!

قال الضابط لنا، بعد أن سلمنا لضابط حرس المبنى:

ـ سننتظركم هنا لنرجع بكم!

أدخلونا مباشرة إلى غرفة في الطابق الثاني. وقف ضابط برتبة صاغ من وراء مكتبه مرحبًا بنا. دققت النظر. إنه هو! هو بصلعته، وشعره الأسود الذي غطى جزءًا منها، وشاربه الكث المميز، ونظارة الشمس التي تغطي دائمًا عينيه. كنت رأيت صورته في الصحف، وفي جريدة مصر السينمائية، الصاغ صلاح سالم!

عندما بدأ سالم حديثه، وجاء النادل بأكواب الليمون الساقع، شغلني سؤال كبير: لماذا تمَّ استدعاؤنا في هذه الحالة المزرية لمقابلة «ترمومتر الثورة الحراري»؟

بدأ حديثه بالتأسف على اعتقالنا وثقته في وطنيتنا. أخبرنا بنبأ صفقة الأسلحة التشيكية، وأن السوفييت سيمولون إنشاء السد العالي، وأن المرحلة المقبلة ستشهد تعاونًا وثيقًا بين مصر والدول الاشتراكية. كُنا في ذهول، لم يكن أحد منا زعيمًا كبيرًا للتنظيم، حتى يأتي بنا سالم ليفاوضنا.

انتبهت على صوت الصاغ، وهو يشدد على مخارج حروف كلماته:

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ استدعيتكم كي تقوموا بمهمة وطنية، ستسافرون إلى السودان لتقابلوا رفاقكم السودانيين القدامى في التنظيم هناك. ستساعدوننا في إقناعهم بالتحرك معنا من أجل البقاء في دولة اتحادية.

طلبنا منه مهلة أسبوع للتفكير، وبالطبع كان في ذهننا أن نرجع إلى القيادة في السجون لنأخذ رأيها. وقبل أن نخرج من باب مكتبه، فاجأنا بقوله:

ـ تستطيعون الذهاب إلى بيوتكم من هنا!

لم أكن قادرًا على التصديق. عندما خرجنا من المبنى، لم نجد سيارة السجن في انتظارنا. أوقف اثنان منا سيارة تاكسي ليذهبا إلى عائلتيهما، وسمعت صوت زهدي يصرخ من ورائي:

ـ أسرع يا يحيى، قبل أن يراجع الصاغ نفسه.

فضلت أن أسير في الشوارع؛ لأتنفس الحرية التي نسيت رائحتها. خطواتي متلعثمة، تتخبط قدماي، وأكاد أتعثر في بلاط الأرصفة. نسيت السير على القدمين، والمشيُ مهارة تحتاج إلى مزاولة وتدريب كالسباحة في الماء! بدأت تنتظم خطواتي بصعوبة، وواتتني الجرأة أن أرفع عيني عن أسفلت الطريق إلى أعلى. زميلي فتحي خليل الذي بقيَ معي، كان بلا بيت في القاهرة. سرنا في شارع قصر العيني حتى وصلت إلى ناصية المبتديان. انعطفنا يسارًا وسرنا صامتين، هل سأجد البيت كما هو؟

وقفت أمام الباب محتارًا. أدخلت يدي في جيب البنطال كي أخرج المفتاح، فاكتشفت أنه ليس موجودًا معي. خبطت على باب غرفة البواب تحت السلم، فأنبأني بأن أخي الطالب في كلية الفنون يجيء أحيانًا. جاء بنجار، فتح الباب بعتلة. لم تكن في جيبي أي

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

مبالغ مالية، ذهبت سيارة السجن بالضابط الذي كانت معه نقود الأمانات. أنقد البواب النجار أجرته. دخلت الشقة، هواؤها عطن، فتحت نوافذها على الفور. تنفست بملء صدري، ونسيتُ أن خليل واقف في حيرة أمام باب الشقة.

مرَّ الأسبوع، وفي أثنائه سمعتُ باستقالة صلاح سالم. لم يستدعنا أحد، ولم نرجع إلى السجن! هل نسونا في خضم صراعاتهم، أم أنهم يستخدموننا كطُعم لصيد من تبقى من رفاقنا خارج السجون؟

مازلت أتذكر وجه فتحي سالم، عندما قابلني بعد شهرين من خروجي إلى الحرية. كان هو الآخر خرج بعد أن قضى مدة سجنه القانونية. التقيته صُدفة على ناصية شارع المبتديان، وأنا أقرأ عناوين الصحف المعلقة بالدوبار على واجهة كشك الجرائد.

اصطحبني إلى قهوة قريبة، وفور جلوسنا قال:

ـ أين أنت؟

ـ وأين أنت الآخر؟!

ـ أجلس في البيت بلا عمل. كلما احتجتُ إلى نقود، بعتُ قطعة من أرض ورثتها عن أبي في قريتي. أبحث عن عمل بلا طائل.

مأساة فتحي جعلتني أشكر موهبتي التي فتحت أمامي باب العمل من جديد. كتابي الثاني على وشك الصدور، وبدأت قصصي في الظهور على صفحات روز اليوسف من جديد. استلمت عملًا في أحد مكاتب وزارة الصحة.

أفزعني سؤال فتحي:

ـ وما أخبار التنظيم؟!

ـ لا أريد أن أسمع عنه شيئًا، هؤلاء انتهت قصتي معهم. لا يمكن أن أدخل السجن مرة ثانية.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ وأنا أيضًا. ها هو عبد الناصر يحقق برنامجهم بطريقته الخاصة: إصلاح زراعي، وحياد إيجابي، وتعاون مع الدول الاشتراكية.

لم أقل لفتحي إننا عقدنا اجتماعًا للتنظيم بعد خروجي، واتفقنا على العودة إلى خط تأييد عبد الناصر وسياساته. عرض البارودي عليَّ معونة مالية من التنظيم، فرفضت. كنت أريد أن أخدم قضيتي ككاتب وفنان، وكنت ـ كل يوم ـ أزداد اقتناعًا بأن مكاني ليس داخل جدران سجن السرية والعمل الحزبي، وتحت إمرة البارودي وعطوة.

أقوم من مكاني، وأضع أسطوانة «رخمانينوف» في البيك أب. أصُبُّ لنفسي كأسًا أخرى. يسري في جسدي دفء، لا تفسده سوى قشعريرة تصيبني عندما أتذكر وجه صديقي شوقي. قبضوا عليه بعدي بثلاثة أشهر، ويقضي حكمًا بثماني سنوات من الأشغال الشاقة. شوقي بالنسبة إليَّ صديق أكثر من رفيق في تنظيم سري. اكتشفنا السياسة معًا، وذُقنا الحياة والحب والفن. شوقي جزء من حياتي سيستمر معي، علاقتنا أشبه بعلاقة إنسان بضميره، شقيق بشقيقه التوأم، جملة في قصة تبحث عن الجملة التي تليها.

أكتشف أنني استمعت إلى أسطوانة «رخمانينوف» نفسها عدة مرات، وأنا جالس إلى المكتب. أتطلع حولي في الصالة نصف المظلمة نصف المضيئة. تحملق في وجهي عيون رُوث وشوقي وفتحي والبارودي وعطوة وفؤاد. وجوه كثيرة تخترق بنظراتها جسدي، ولا تستثني عظامي. تخرج من جوفي أصوات، هتافات لمتظاهرين، ونداءات باعة جائلين، وصرخات مذيعي الثورة في الراديو. تتراقص مانشيتات الصحف المتضادة، الحمراء والسوداء والخضراء أمام عينيَّ. أفتح دُرج المكتب، وأخرج

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

أجندة اشتريتها للعام الجديد. فوق غلافها الأخضر، كتب «عام ١٩٥٦» بخط كبير.

أفتح الأجندة، وألتقط قلمي، وأبدأ في الكتابة:

«لماذا نكذب على أنفسنا؟

إن لكل منا قصة حب دفينة قد وضعها في أغوار نفسه، وكلما مضى الزمن دفعها أكثر وأكثر إلى أعماقه، وكأنما يخاف عليها من الظهور.

وسوف أقول لكم كل شيء عن قصة حبي.

ماذا أقول لكم؟»

مكتبة أحمد
telegram @ktabpdf
telegram @ktabrwaya
تابعونا على فيسبوك
جديد الكتب والروايات

تمت كتاب الرواية سبتمبر ٢٠١٧

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

شكر خاص للأصدقاء

للروائي الكبير صُنع الله إبراهيم،
للكاتب الصحفي الكبير عبد العال الباقوري،
للمفكر القامة شوقي جلال،
للمؤرخ القدير أحمد زكريا الشلق،
للأستاذ الدكتور محمد أبو الغار،
للأستاذة منى أنيس، المحرر الأدبي لدار الشروق،
ولكل من قرأ مخطوطة الرواية وأبدى ملاحظاته القيمة.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

الزوجة المكسيكية

لا تحكي هذه الرواية فقط قصة ارتباط وزواج غير معروفة بين أديب مصري بارز وفتاة مكسيكية؛ هي ابنة شهيرة لدييجو ريفيرا أهم فناني الجداريات في القرن العشرين، ولكنها أيضًا تروي لنا سنوات الخمسينيات المبكرة في مصر والعالم، بكل صراعاتها وأحداثها وتأثيراتها. تنتقل الرواية ما بين القاهرة وفيينا والمكسيك؛ لنرى زمنًا وأمكنة ونسق حياة مغايرًا لم يعد له وجود في حياتنا المعاصرة.

يختار المؤلف استخدام شخصيات رواية «البيضاء» الشهيرة التي نشرها يوسف إدريس في نهاية الخمسينيات، فيبعثها للحياة من جديد ولكن في أحداث تمزج بين الواقع والخيال، فيفاجئنا وجود أسماء حقيقية لسياسيين وفنانين مصريين وعرب وعالميين. ولعل الاكتشاف الأكبر هو قصة حب وزواج «يحيى مصطفى طه»؛ ذلك الاسم الذي اختاره لنفسه يوسف إدريس في «البيضاء».

تنبعث قصة «يحيى ورُوث» عبر صوتيْهما على صفحات الرواية. صراعًا بين ثقافتيْن مختلفتيْن، وطموحيْن مشروعيْن، وجانبيْن من المشاعر. حب وغيرة وطموح وفن. أجواء سياسية قلقة في مصر، ومأساة تعصف بعائلة «رُوث» في المكسيك.

كل هذا في إطار عامَي ١٩٥٣ و١٩٥٤ بأجوائهما: الصراع بين الديمقراطية والدكتاتورية، والاختيار بين حرية الصحافة ومصادرة الرأي الآخر، وحيرة المثقفين المتوزعين بين التأييد والمعارضة.

هي بحق رواية عن الثورة والمستقبل والعالم الذي كان!

د. إيمان يحيى؛ كاتب وروائي، يعمل أستاذًا جامعيًّا وطبيبًا في إحدى كليات الطب بمصر. صدرت له رواية أولى بعنوان «الكتابة بالمشرط» في نهاية عام ٢٠١٣.

مكتبة ٣٤٩